

# مَعَالِمُ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُعْصَمِيِّ

مع دراسة من الثقافة العربية المعاصرة في معارك التغريب

بقلم

أنور ابجنت دى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَطَبَعَةِ الْمُسْبَاتِ

شَارعِ الْمُهَاجِرِ، ٢٣٦٤

## ( مدخل )

من خلال دراسة واسعة مستفيضة للأدب العربي المعاصر ، تكشف أن هناك مجالاً واسعاً خصباً ما زال يكراً ، في حاجة للدراسة ، ذلك هو مجال «الفكر العربي» ، وهو مجال رحيب ، نابض بالحياة موصول بالحياة والمجتمع والدين والتاريخ والملة ، بل لا ينبع إذا قلنا أن الأدب قطاع منه ، ومن هنا توسيع النظرة والدراسة ، ولاشك أن دراسة الأدب العربي المعاصر كانت في جذورها دراسة للفكر العربي أساساً ، وبعد أن كانت المهمة التي انتدب لها نفسي تقف عند دراسة الأدب العربي المعاصر ، فقد توسيع لدراسة الفكر العربي والثقافة العربية في مراحلين : الأولى مرحلة الاستثمار وقيام التفозд الغربي ، والثانية مرحلة نهاية الاستثمار وقيام تفозд التغريب والشمولية بدليلاً عنه .

وكان أن فتحت لي دراسة ( الفكر<sup>(١)</sup> العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية ) التي تناولت مرحلة الاستثمار والتفوذ الغربي منذ غزو الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الثانية ( ١٨٧١ - ١٩٣٩ ) فتحت هذه الدراسة باباً واسعاً للتعرف على أدوات فكرنا وقضاياها وأزماتها في مواجهة الفكر الغربي بشقيه ، وكيف واجه فكرنا الانتقام بالنظريات والمذاهب الجديدة التي قدمت له في ظل التفوذ الأجنبي القائم إذ ذلك في قلب الوطن العربي والتي كانت تهدف في الأغلب إلى عمل سياسي عميق الجذور هو القضاء على مقوماته الأصلية بما يمكن للاستعمار من بسط تفوذه ودعمه واستمراره ، ولما كانت مقومات الفكر العربي الإسلامي تطلي أساساً تلك الروح القادرة على المقاومة فقد قامت أزمة صراع بين القوى الفكرية الفازية وأسس فكرنا الحى المفتح قادر على الحركة والتلقى والاستجابة والإذابة في كيانه دون أن يتحول ، أو يصبح تابعاً ، فهو قادر دأباً على التلقى والأخذ والاقتباس وفق حاجة ، لا بالرأي المفروض .

(١) صدرت هذه الدراسة عام ١٩٦١ .

ومن هنا بدأت تظهر عشرات المسائل التي اختلفت فيها وجهة نظر الفكر العربي عن فكرنا العربي الإسلامي على نحو أصبح من الضروري معه البحث عن جذور هذه القضايا وعرضها عرضا منصفا لا ينكر فصل الغرب في تطوره وحضارته ولا يغفل عن القومات الأساسية للفكر العربي .

وقد حاولت في هذه الدراسة تناول التطورات في المرحلة الديقية بين الاحتلال والجلاء عن العالم العربي .

ولاشك أن يقظة العالم العربي الجديدة التي بدأت في ظل الثورة ويقظة القومية العربية وبروز بغير نهضة حقيقة للأمة العربية والفكر العربي قد أثاحت وضع أسس جديدة إيجابية بحيث يمكن الفصل بخط واضح وعمق بين مرحلة ومرحلة في تاريخ الفكر العربي المعاصر .

وغاية ما يمكن أن يقال أن المرحلة التي تلت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية واندلاع دعوة القومية العربية قد أثاحت فرصة واسعة لدراسة المرحلة التي عاشها العالم العربي في مرحلتين من بهما الفكر العربي الإسلامي في المصر الأخير :

المرحلة الأولى : الفترة من ١٥١٧ إلى حوالي ١٨٣٠ تقربياً وهي ثلاثة عقود تقريباً من حكم السلطة العثمانية للعالم العربي وقد كانت هذه الفترة مرحلة ضعف عام للفكر العربي الإسلامي ، مصدره أن العالم الإسلامي والأمة العربية جزء منه كان قد جرى شوطا طويلاً في خلال ألف عام كاملة منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشارك مشاركة فعالة في مقاومة الفكر الإنساني والحضارة البشرية وعمل على إحياء الجذور التي قامت عليها الحضارة الحديثة السابقة بالحضارة الغربية نسبة إلى مكان نوحاً وتوسعاً أساساً ، وكذلك كانت الحضارة الإسلامية العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة اليونانية والرومانية ، وكذلك كانت الحضارة الغربية دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة الإسلامية ، غير أن الفكر العربي الإسلامي لم يسقط يوم تلاشت الحضارة الإسلامية العربية وعندما انطوت الدولة الكبرى المتمثلة في الأمبراطورية العثمانية ولكنها ظل موجوداً وإن خباء ضوءه وعلامة السدا ، وإن لم يبد يتفاعل مع الحياة ، فقد ظلل مستمر الحياة حتى إذا أبعته منه الصيحة مرة أخرى

بالدعوة إلى اليقظة ، فتحت آفاقه مرة أخرى للنهاية ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان حين بدأت اليقظة في الفكر العربي الإسلامي ترسم طريقاً جديداً .

٢ - ثم كانت هذه المرحلة الثانية التي يمكن أن تسمى مرحلة الاحتلال العسكري والسياسي للعالم العربي ( ١٨٣٠ - ١٩٥٢ ) والتي برزت خلالها أصوات جريئة وقوية من دعاة الإصلاح والتجديد في مجال اللغة والأدب والدين والمجتمع والتاريخ ، هذه المرحلة يمكن أن يطلق عليها مرحلة فجر اليقظة ، فقد قاوم فيها هؤلاء المصلحون قوى ضخمة من التفозд الأجنبي والتبشير والتغريب والغزو السياسي والاجتماعي والفكري في ظل مرحلة كان الفكر العربي خلالها يحاول أن يستعيد مكانته ويصحح مفاهيمه وينقض عن نفسه غبار القرون التي جدته وأصابته بالضعف ومن هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهداد ، وبدأت تكشف صورة هذا الفكر على حقيقته ، وبيدو جوهره النقلي يؤكّد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع النهضات والحضارة ، ولبيثت أنه كان دائماً قادرًا على الإيجابية والفاعلية ، وقد كان ولا يزال يحمل لواء التقنية والمعاصرة متطاولاً مع الأزمان المتالية والبيئات المختلفة .

ولكن الاستمرار كان ينبع هذه اليقظة التي تعمل أساساً على شجب تقوّه ومن هنا وجدت من التفозд الأجنبي تحدّياً ضخماً ، هو تحدي القادر المتمكّن لمختلف عناصر القدرة في السيارة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من مخافف ومدرسة وجامعة ، ومن هنا كانت مواجهة التحدى بتلك الروح التي عرفت بها هذه الأمة حين تعرّف بها الأحداث الكبرى والأزمات العاصفة .

• • •

وأعتقد أن فترة الاحتلال وسيطرة التفозд الأجنبي التي بدأت قبل منتصف القرن الماضي والتي أوشكت على الانتهاء خلال العقد الخامس من هذا القرن قد كان لها أثرها الباليد في التشكّين العقلي والروحي للأمة العربية والعالم الإسلامي عن طريق تفоздها في المدرسة والصحافة وبث الفلسفات المادية ، ودفع ثقافات الفرائز والجنس ، وأتخاذ المفاهيم الغربية أساساً لهم القيم الإنسانية ، والاعتداد على مصادر الغرب في فهم أنفسنا ومحاولة

خلق جو مقبل لاعتقاد نظريات الغرب في التربية والنفس والمجتمع والأدب ، وفي هذا محاولة الفصل بين الدين والفكر والقومية والإسلام ، وقد ظل هذا الأمر واحداً إلى وقت طوبل .

ولقد كان أبرز ما في مرحلة ما قبل الاستقلال ظهور مدرسة ذات نفوذ تفصل بين معركة الحرية وبين القيم الأساسية لل الفكر العربي الإسلامي ، ومن هنا مضت حركة المقاومة منفصلة عن مقومات فكرنا ، كانت السياسة تقلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة إقليمية ، وكانت المركبات الأربع العربية والإسلامية والشرقية والإقليمية تتصارع بتوجيهه النفوذ الأجنبي .

وكان معاهد التعليم تحت سيطرة النفوذ الأجنبي تخرج المؤمنين بالغرب المعجبين به ، الآخرين بالفَكَرِ العربيِّ الإِسْلَامِيِّ وَقِيمِهِ ، والذين تعلَّمُوا زُرَاعَ الشُّكُوكِ والرِّيبِ ، منصرين عنه إلى الفكر الغربي وظاهر الحضارة باعتبارها المثل الأعلى .

وقد تعمقت في العالم العربي خلال فترة ما بين الحربين وما بعدها في ظل الاحتلال مدرسة « لا أخلاقية السياسة » المبيدة عن القيم الفكريَّة والروحية العربية الإسلامية والتي كانت تنظر إلى الدين نظرة الغرب وتنظر إلى الإسلام على أنه دين ، وتنصل بينه وبين نتاجه الفكري والحضاري والثقافي التفاعل مع الفكر الإنساني والذى هو عصارة فكر الشرق كله في أديانه وثقافاته .

وفي ظل النفوذ الأجنبي قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوبية ونعت ، وتمقت مفاهيم الغرب في مختلف مجالات الصحافة والتربية والتعليم والثقافة وحلت مفاهيم غربية لقيم العربية الإسلامية الإنسانية .

وبذلك تعمقت الهوة التي تفصل بين الأمة العربية ومفاهيمها وأضطرب الخلط المتصل بذلك أحرقت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها واستطاع الاستهان والنفوذ الغربي خلال مرحلة الاحتلال للعالم العربي أن يعمق خطته الرامية إلى هدم :

(١) مقومات الأمة (٢) شخصيتها (٣) فكرها ، هذه الخطة التي جرت بأعمال

التبشير والتغريب والشمعوية وفي ظل خدمات الاستشراق في مراحل متعددة وفي خطط دقيق ، وقد عمق النفوذ الأجنبي خطته على مراحل متعددة بوسائل تزيف الحقائق والتشكيك في الفاهيم ، وإحلال مفاهيمه لقيم الإنسانية بدلاً من مفاهيم الفيلسوف العربي .  
ويمكن أن نلخص الشبهات والاتهامات التي وجهها التغريب ووجهها الشمعوية للفكر العربي الإسلامي ونوجزها حتى نكشف الطريق بين يدي الباحث :

(أولاً) التجزئة بين العروبة والإسلام . على أساس المفهوم العربي لكلمة الدين .  
والمعروف أن الغرب فصل القومية عن المسيحية ، لأن المسيحية دخلت على أوروبا من الخارج فكانت أجنبية عن طبيعتها وتاريخها في حين أن الإسلام بالنسبة للعرب في غير مجال العربية : ثقافة وفكرة وحضارة وتاريخ .

(ثانياً) فرضية قبول الثقافة والحضارة الغربيين مما « حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب » وهنا ييدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ، والحضارة ملك للإنسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها . والمرارة غير الثقافة ، فالمرارة كالحضارة ليس شرط أن تكون ثقافة ، ولكن هي ملك إنساني عام تأخذ الثقافات منها وتدفع .

(ثالثاً) الفلسفة العربية الإسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية وهذا غير الحق ، فقد كان للعرب طابعهم الواضح ، المستمد من روح القرآن والإسلام والتوحيد ،  
هذا الطابع الذي أخذ ورفض وأضاف وعدل .

(رابعاً) الانفصال عن الماضي كالية باعتباره مصدر التأثر ، وهذا القول خطأ على إطلاقه ، فإن الغرب نفسه لم ينفصل في حضارته وثقافته القائمة عن مصادر التراث اليوناني والروماني . بالرغم من انفصاله عن هذا التراث أدنى عام وضياع اللغة اللاتينية . بينما بقي الفكر العربي الإسلامي وما زال متصل بجذوره ، وما زال مستمر الآخر والفاعلية .

(خامساً) « روحية الثقافة العربية » هذا خطأ مُحض ، فإن الفكر العربي الإسلامي يتسم بالربيع المتفاعل بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(سادساً) احتقار آسيا واتهامنا بأننا آسيويون ، على أساس أن ذلك مصدر تخلف عن أوربا ، الواقع يؤكد والتاريخ يثبت أن آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العربية : كالآكادية والشمرية والبابلية والأشورية والهنودية والصينية وقدمنا للإنسانية ديانات أرضية كالبودية والبرهمية وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

(سابعاً) المحاكاة إلى فترة الضعف ؛ هذه الفترة التي انتهت بها دورة من دورات الحضارة وبدأت دورة جديدة لا يمكن أن تغفل حقيقة القيم والمفاهيم الأساسية للفكر الإسلامي . بعد أن غلت نزعات الجمود والتقليد .

(ثامناً) الرأي الغربي في كلية « الدين » ، هذا الرأي ينطبق على مفهوم المسيحية الغربية وعلى تاريخها ومراحل تناولها واحتلافها مع النهاية الغربية ، ولا يصلح هذا الرأي بتطبيقه على (الإسلام) أو الشكر العربي الإسلامي بصفة عامة . إن مفهوم المسيحية الغربية مختلف عن مفهوم المسيحية السمعة التابعة من الشرق ، ثم أن مفهوم الإسلام مختلف عن مفهوم الدين ، باعتبار الإسلام دين وفكرة ومجتمع وحضارة ، وهو في تطوره وحركته وإنجذبته وتقديره على الناء والإذ والعطاء مختلف كثيراً عن غيره من الأديان .

(تاسماً) دعوات الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية وغيرها ، هذه الدعوات التي استغلت للتفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، وأخذت وسيلة لإحياء خلافات مذهبية قدية مثل الإسلام ومحاولة تغافلها خلق قوميات ضيقة ودعوات إقليمية مسرفة في التخلص من روح الشكر العربي الإسلامي الذي شمل المنطقة ووحدها بعد الإسلام ، وقد أثبتت العديد من الباحثين بدلائل قوية أن الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هي إلا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة العربية وانساحت في المنطقة كلها حيث لم يكن من الممكن أن تبقى حضارة شاغحة في جو حار وعلى رمال ساخنة إلى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهل مصر والشام الخصبة وإلى سواحل البحار والأنهار .

(عاشرًا) دور الحضارة الإسلامية العربية في الحضارة الإنسانية . وقد تجاهل هذا الدور كثير من الباحثين وتجاهلوا أوليات فكرنا العربي الإسلامي في مختلف العلوم والفنون ، كائناً ذلك والجبر والمندسسة وارتياد البحار ونظرية الضوء والطب وغيرها .

(حادي عشر) العالم العربي أيقناته أوربا : وخطأً هذا هو أن العالم العربي استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، يمكن القول بأن الحركة الوهابية (١٧٤٠ م تقربياً) تعد أولى علامات اليقظة وتبسيق نابليون بخمسين عاماً . ولا تنسى الوثيقة التي حصل عليها العلماء من الحكم الماليك قبل الحملة الفرنسية والتي يمكن أن تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الإنسان .

(ثاني عشر) اللغة العربية لغة ميتة كالميتة اللاتينية ، وخطأً هذا أن اللغة اللاتينية كانت لغة دولة ولم تكن لغة أمة ، وكانت لغة أرستقراطية لا يمارسها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتنقلل في طبقات العوام ، أما اللغة العربية فقد كانت لغة الإسلام والقرآن ، عاشت معهما ونعت في ظلها ، وكانت تامة ككلمة قبل الإسلام والقرآن ، وقد استطاعت بمحويتها وقوتها أن تصرخ كل لغات العالم الإسلامي وتأخذ السكان الأول وستظل حية لأنها كانت قادرة على التجاوب مع الحضارات والمدنية دوماً .

ولقد استطاع الفكر العربي في فترة الاحتلال (١٨٣٠ - ١٩٥٦) تقربياً أن يقاوم هذه النظريات والشمبهات وأن يدحضها غير أن النفوذ الغربي الملف وراء التغريب والشعوبية أجرى محاولات جديدة لبسط هذه الشبهات بأساليب جديدة .

\* \* \*

هذا هو الموقف الذي واجه الفكر العربي في أوائل مرحلة الاستقلال وإنهاء النفوذ الأجنبي والذي حاول أن يثير الشبهات حول يقظة العالم العربي الجديدة ، وأن يوجه ظلال الشكوك حول الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذه الشكوك التي تحاول أن تعمق العالم العربي وقد أوشك على التحرر من النفوذ الأجنبي العسكري والسياسي حتى تفرض عليه أن يواجه معركة جديدة هي التخلص من التغريب والشعوبية ، وقد وضع الاتجاه نحو تأصيل المهمة وكشف تامر التغريب عليها في كلامات مضيئة :

« نحن في حاجة إلى الوحدة الفكرية حتى ندعم هذا التضامن العربي ، أن التحرر الفكري ضروري لها في هذا المجال ، وهناك واجب أساسى في إقامة أدب عربى مستقل خال من السيطرة الأجنبية أو التوجيه الأجنبى فلا تكون ذيلاً لكتلة من الكتل .. فكرنا ينبع من ضميرنا ، مع وعي عميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية ومن ناحية أخرى بقدرة الإنسان بدوره على التأثير في التاريخ ومع فكر مفتوح لسلك التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ، ولا يبعدها عنه بالتصub ولا يصد نفسه عنها بالعقد مع إيان لا يتزعزع بالله ورسله ورسالته القدسية التي نعيشها بالحق والمهدى » .

وعصارة هذه الفترة تمثل في عناصر محددة :

أولاً : نحن لسنا خصوصاً للحضارة الغربية أصلاً ، فالحضارة الغربية مدينة إنسانية عالية شاركنا في بنائها وكان لنا دورنا في تشكيلها ، وهي حق مشاع لكل الأمم والشعوب ، وقد أخذنا منها أرقى ما وصلت إليه ، واستطعنا في ظل اليقظة التي عرفها العالم العربي كله منذ عام ١٩٥٢ أن نصل منها إلى مرحلة كبيرة في مجال الصناعة والتسلح وبناء الطائرات والتكتيكيات العلمي وما يتصل بالقدرة والفضاء بحيث لا يمكن أن نتهم اليوم بالقصور أو التخلف ، وبحيث نكوت قد عدونا الطوق الذي كان يضر به الاستعمار والتفوّذ الغربي حول الأمم حتى لا تصل من الحضارة إلى جوانب القوة فيها .

ثانياً : لسنا خصوصاً للفكر الغربي أصلاً إلا حين يحاول هذا الفكر أن يسيطر علينا لحساب التفوّذ الأجنبي ، أما فيما عدا ذلك فالتفكير العربي يحمل عصارات من الإبداع والابتكار في مجالات الفلسفة والفن والأدب والتاريخ تتجه نحو ترقية الإنسانية ولتكن نقف منه موقفين وانحين :

الأول : لنا أولوية في مجال النهضة والحضارة وكان فكرنا العربي الإسلامي له دور وأثر واضح أكيد لا سبيل إلى إنكاره أو غطته أو تجاوزه <sup>(١)</sup> .

(١) أقر أكتابنا (صفحات من أبجادنا) ، وكتابنا (أضواء على الفكر العربي الإسلامي) .

الثاني : أن الفكر الغربي - عن طريق النفوذ الاستعماري المحتفى وراء التغريب والشعيوبة ، يحاول أن يفرض علينا بعض النظريات والأفكار والمذاهب التي لا تتفق أساساً مع مقومات فكرنا العربي الإسلامي في مجال : الجنس والتربية وعلم النفس والمادية التاريخية وغيرها ، ونحن نرى أن هذه النظريات إنما هي مراحل في تطور الفكر الغربي تتصل بحضارته وثقافته المستمدة من مصادر اليونان والرومان أساساً ، ونحن بفكر متزوج لكل التجارب الإنسانية ننظر في هذه النظريات بروح الاستقلال والرشد الفكري ، ونقف منها موقف القدرة على الأخذ والرد « والقبول والرفض » ، فنأخذنا أساساً أن لنا مقومات وقيم أصلية ترسم ثقافتنا وشخصيتنا وفي ضوئها نأخذ وندع ، وإن يتحقق أبداً أن تكون تابعين أو مستوردين ، أو أن نذوب في فكر الغرب .

ولعل أبرز ما أعطتنا يقطننا العربية هي هذه القدرة على مواجهة الفكر الغربي دون استسلام له ، لقد أعطتنا القدرة على إسقاط « عقدة الأجنبي » وذلك ببلوغنا مداه في المضاربة والدينية والتقنية « التكنيك » . ومن هنا أصبح في مقدورنا أن ننظر إليه نظرة المغلوب إلى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأت في عالمنا العربي اليوم تيار ضخم قوي : أنا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساساً ، وأن هذه المقومات قادرة على أن تقوم وتحيا ، وهذا هو سر مفهوم الثورة : « التحرر الفكري من كل سيطرة أجنبية أو توجيهي أجنبى » ولكننا في نفس الوقت نعيش « بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية » فلا تخشى أن تواجه كل أفكار الأمم وثقافاتها فتحن ندرسها ونتقن بكل الخبرات والتجارب المالية والبشرية والإنسانية في مجالات الاقتصاد والمجتمع ، ما دمنا ثابعين على قاعدتنا .

(الثالث) أن فكرنا العربي الإسلامي ليس أساساً فكر جامد ولا متخلّف ، ولا متوقف عند الماضي ، ولا دافع إلى الارتداد . أو الرفض لمنطق الحياة والتطور « بل هو متباور حتى قادر على الحركة » ، مواجه للنهضات والثقافات ، قادر على الاتقاء بكل جديد يأخذ منها ويعطى ، لا يبعدها عنه بالتمتص ولا يصد نفسه عنها بالعقد » . وفوق ذلك فهو

ـ مؤمن بأنه فكر تخرج فيه الروحية واللادية والمقل والقلب ، والحياة والآخرة ، إيمانه بالله ورسالاته الندية لا يتزعزع .

( الرابع ) أن وحدة فكرنا العربي الإسلامي هي مصدر الوحدة العربية أساساً ، وأننا في ظل يقظتنا نحس بأن فكرنا العربي قد أخذ طريقه الحق ، التعمق ، الحق ، على الطريق الذي كان قد عجز عنه في خلال فترة الاحتلال ، ولذلك فهو قادر اليوم على أن يواجه حالات التغريب والشمعوية التي يقودها النفوذ الاستعماري أساساً عن طريق منظمات وصحف مشبوهة تصدر في بعض أنحاء العالم العربي ، وتهدف أساساً إلى مقاومة الوحدة العربية ، واليقطة ، والثروة والبناء الذي تقوم به بلادنا من أجل دعم العالم الثالث ، ودعم الأمة العربية في مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد وبناء الإيمان الإسلامي والرابطة الإنسانية ولذلك فنحن نرى أساساً أن حركة الشمعوية والتغريب هي بديل النفوذ الأجنبي والاستعمار ونحن نحاربها ونقاوم آرائها على هذا النحو .

( الخامس ) نحن في ظل يقظتنا العربية الوعية المعاصرة التقديمية « سنبق متحررين من كل المذاهب : مذاهب الجمود والتتصub أو مذاهب التحلل والإباحة والإلحاد ، وفكernا هنا هو فكر الأمة الوسط ، يأخذون يعطى على قاعدته الأساسية المستمدّة من جوهر الأمة العربية في مفاهيمها وتراثها وتأريخها وروحها وثقافتها ، فلن تتحرج مفاهيمنا ، ما دامت مستمدّة من ميثاقنا ومنهجنا ، فننحن في مرحلة ما بعد الاحتلال في العالم العربي نعمل من تجربتنا ومفاهيمنا ضوءاً كاشننا وهادياً للطريق ، مرتبطة بقيمنا أساساً ، لا نذهب مذهب الجمود والتتصub ، ولا التحلل والإباحة ، نرى في التغريب والشمعوية بديل النفوذ الأجنبي وأداته ، فقد تكشف أن كل حالات التغريب والشمعوية إنما تستهدف الوحدة العربية واللغة العربية والتاريخ العربي وتحاول النفع من قدر أمة متّحدة تنشئ الحياة وتبني في مجال الحضارة والعلم والصناعة ، ومقاومتنا لهذه الحركة التي تلجم إلإذاعة بعض المذاهب الفكرية الغربية الجائحة ، إنما هو مقاومة أساساً لتيار مشبوه ، ولا زلنا نذكر كيف قال أشكول في إسرائيل

أئمهم يحاربون وجود لغة واحدة في الشرق الأوسط هي اللغة العربية أساس الوحدة الفكرية وجوهرها.

وبعد فإن فكرنا العربي المعاصر هو امتداد معمق موسع تقدمي لفلكرنا العربي الإسلامي على قاعدة الحركة والقدرة على الأخذ والعطاء دون أن تنجاز أو تستورد أو نكون تابعين ونخن في طريق البناء نحاجل أن نصحح الأخطاء ورسم فلسفة تقدمية لفلكرنا العربي من خلال يقطتنا الجديدة البناءة.

(السادس) القومية والديمقراطية والاشتراكية نظارات متبعثة أساساً من فلكرنا العربي الإسلامي ، ولها جذور أصيلة في مقومات فلكرنا ، ونخن اليوم نعاملها باعتبارها قيم إنسانية أساسية للفكر الإنساني كله ، وقد كانت واحدة الدلالة في فلكرنا ، ومن هنا فنخن لا نأخذ منها مفاهيم الفكر الغربي لها ولا نستنقن تفسيراته ، وإنما نخن نستمد مقوماتها من واقعنا وفلكرنا وتراثنا أصلًا ، وليس لنا أن نتجه بها وإلا كنا متخللين عن تطور فلكرنا أصلاً قبل تطور الفكر الإنساني الذي استمد مفاهيمه للقومية والديمقراطية والاشتراكية من فلكرنا العربي الإسلامي أساساً ثم تناه ، وتطور به مع تطور الزمن والحضارات وجريان النهر البشري الذي لا يتوقف عن الحركة والحياة . ومن ناحية أخرى فإن عمق فلكرنا ووضوح مقوماته وشمولها يقتضي على التعارض الذي يواجهه الفكر الغربي فيما بين هذه المذاهب .

\* \* \*

هذه بعض العالم التي تكشف عنها دراسة هذه الفترة ، وهي كما قلت فترة لم تبعد بعد عن نظر الباحث المعاصر حتى تكون الأحكام فيها سديدة ومقررة . وليس علينا إلا إلقاء الضوء على الواقع ورسم صورة له . ولاشك أن الصورة تعطي فكررة واحدة، قوامها: أن الفكر العربي قد انتقل إلى مرحلة جديدة . وأن المرحلة السابقة قد أوشكت على أن تنتهي ، وأن المرحلة الجديدة واحدة في أنها أكثر اتصالاً بروح العصر مع الاعتماد على الجنور ، وأكثر تعميقاً لهذه الجنور ، وأكثر استنارة في فهمها والأخذ منها ، وتعيمها ، وأنها تؤمن أساساً بـ أنها لا تتناق من الفكر التربي تلق التام أو المستورد أو غير القادر ، وإنما يقودها إيمان .

بحقها في أن تأخذ الحضارة فقد ساهمت في بنائها أصولاً و كان لها دورها ، وهي ترقى بين الحضارة والثقافة ، أما في مجال الفكر فهي تؤمن بأن لها فكراً له طابعه ومعالله وشخصيته ، وأتها ليست مستعدة للتغريب فيه » هذا الفكر نفسه وعلى قاعدته نستطيع أن نقبل بحرية وطلاقة تجارب الفكر الإنساني وندرسها ونأخذ منها وندع ، بما يتنقق مع مقوماتها وحاجتنا وظروف الزمان والمكان .

ولاشك أن الفكر العربي المعاصر في عصر التحرر من الاستعمار والتجمع للوحدة قد بدأ يصحح مفاهيمه » ويكشف روح التغريب والشعوبية وشجبهما ، وهو يحاول أن يشق طريقه حيثما ، بعيداً عن أخطار التغريب والجمود من ناحية والتجدد والإلحاد من ناحية أخرى ملزماً بعمومات فكره الأساسية : امتزاج الروح والمادة والعقل والقلب . وهو بسبيل التقدم خطوة أخرى » هذه هي خطوة العطاء وتقديم عصارة فكره للإنسانية التي تتطلع إلى ضياء جديد ، سيكون مصدره يحقق هذا العالم الأوسط التمثيل في الشرق العربي الإسلامي وفكرة العربي الإسلامي ، هذا الفكر الإنساني الوسط .

## عناصر البحث

أولاً : مقومات الفكر العربي وسمطياته .

ثانياً : مقومات الفكر العربي وسمطياته .

ثالثاً : التغريب والشعوبية الفكرية الحديثة .

رابعاً : نحن والحضارة الغربية .

خامساً : نحن والفكر الغربي :

دراسات مقارنة : للثقافة والدين والتراث والتاريخ واللغة والأدب  
والقومية والأجناس بين الفكر العربي والفكر الغربي .



الكتاب الأول  
الفكر العربي الإسلامي  
( مقوماته و معطياته )



مقومات الفكر العربي الإسلامي

يتميز الفكر العربي الإسلامي في مقوماته، ويتختلف عن فكرين وآخرين في مقوماتهما في العالم الحديث: أولهما «فَكَرُ التَّرْبَ»، وثانهما «فَكَرُ الشَّرْقِ».

فالنكر الغربي الذى قام أساساً في أوروبا وامتد إلى أمريكا له طابعه ومقوماته ومفاهيمه الأساسية التي تمثل في مزيج من الوثنية الأفريقية والسيجحية الغربية المستقاة من المسيحية الأصلية ، ويتمثل جوهر هذا الفكر في «المادية» العلمانية الخالصة . وإلى هذه المذاهب تردد كل أنجحات النكر الغربي ومفاهيمه .

وذكر «الشرق» الذي قام أساساً في أواسط آسيا وامتد إلى الصين واليابان يقوم على أساس الروحية الخامسة ممثلة في فلسفات وديانات البوذية والهندوكية والكنفوشيوسية وغيرها. وهو فكر يؤمن بالروحية الخامسة جوهر الكائناته مقاوماًه الأساس.

أما «الفكر العربي الإسلامي» فهو فكر العالم الإسلامي وقومه الأمة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان وأندونيسيا وأفريقيا وجموعة من يتكلمون اللغة العربية أو يدينون بالإسلام في هذه المنطقة المتدة فوق أفريقيا وآسيا والتي تتوسط المجموعتين الآخرين من حيث المكان والجغرافيا والمناخ ، وتتوسطهما أيضاً من حيث مفاهيمها وقيمها التي تجمع بين الروح والمادة وتغرس بينهم وهي الأمة الوسطى والقاربة الوسطى،

فإذا قيل أن السكر العربي الإسلامي هو السكر «الأوسط» فإن ذلك يكون مساوياً لما يقال من أنه يعيش في النطقة الوسطى من العالم «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» .

卷一

وهو فكر إسلامي عربي لأنه مزيج من الإسلام واللغة العربية . فهو فكر أساسه الإسلام وجوهره « التوحيد » وطابعه ذلك المزيج الجامع للروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة ، والحياة والموت ، وهو فكر موحد لا يقبل النظرية

الجزئية وإنما يقوم على النظرة السكانية أساساً، وقوم هذا التهم أن الإسلام ليس ديناً فحسب، بل هو دين وفكرة وحضاره ومجتمع، فالدين بمعناه العلمي جزء منه ولذلك ليس هو كله، «واللغة العربية» هي مادة هذا الفكر ووعائه وهي رمز على هذه الأمة التي نشأ فيها ومنها امتد إلى العالم كله، فضى شرقاً إلى الصين ومضى مغرباً حتى عبر إلى الأندلس.

والعروبة والإسلام شقين لحقيقة واحدة، يكمل كليهما الآخر فليس يضر أن يتسمى باسمهما معاً، حتى لا يفهم أنه فكر عربي «قومي» يدخل فيه العرب وحدهم، وحق لا يوصف بأنه فكر إسلامي يقوم على الإسلام وحده، ذلك أن الفكر العربي الإسلامي في الحق هو عصارة فكر الأجيال والثقافات المختلفة التي عاشت في هذه المنطقة، وهو مزيج من ثقافات الفرس والهند والرومان واليونان والمسيحية التي تبلورت كلها في بوتقة واحدة، وحملت طابع الإسلام الذي ليس ديناً فحسب، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع، ومن هنا كان هو فكر كل الأديان والثقافات والأمم والشعوب التي عاشت تحت اسم العالم الإسلامي وما زال تعيش — من مسيحيين ويهود، من فرس وترك وأفغان وهنود وجاوين وغيرهم، ومن هنا لا ينطبق على الإسلام ما ينطبق الأديان الأخرى التي تعرف في الفكر العربي باسم «الالاهوت» أو مجموعة الطقوس والمبادرات...، وتمثل فيها الأنظمة الكنسية، والمقارنة هنا بين الدين والإسلام مقارنة بين الجزء والكل، فالإسلام يحمل في كيانه جزئية هي «الدين» ولكنه إذا ورد اسمه «الإسلام» فليس يعني الدين وحده وليس يمكن وضع المقارنة مع المسيحية أو اليهودية أو البوذية.

\* \* \*

وإذا قيل الفكر العربي الإسلامي فليس ذلك يمنع أن يكون مكتوباً بالفارسية أو التركية أو الأوردية أو غيرها من اللغات المبثوثة في العالم الإسلامي والتي بدأت متصلة باللغة العربية أو مكتوبةً بمحروفيها أساساً، فإن جوهر هذا الفكر هو أساساً « عربي إسلامي » بفهاميته ومقوماته التي تتمثل في امتزاج الروحية والمادية أساساً، وهذا هو ما يكشف عن طابعه التمييز عن الفكر الشرقي والغربي على السواء.

ولملأ أبرز الأزمات التي مرت بالعالم الإسلامي إنما جاءت من الفصل بين هذه القوى المتلاقيتين المترجحة في كيانه، فإذا غلت المادة تقلصت الروح، وإذا امتد المقل تقلص

الضمير ، أو المكس ، فهنا يقع الاضطراب الذى يبعث على التخلف ، والهزيمة . ولقد كان جوهر فكرنا المتمثل فى الروحية والمادية المتزجتين هو سر الأسرار فى كل ما عرف عن الفكر العربى الإسلامى من تجدد وانفاس واتساع فى آفاقه على نحو بهر الباحثين والمؤرخين ، حيث لم تبلغ حضارة من الحضارات ما بلغه فى التوسع فى زمن قليل لا تزيد عن قرن من الزمان .

كذلك كان جوهر فكرنا الآخر الواضح فى البقاء والحياة والاستمرار بالرغم من اضطراب الدولة وسقوطها تحت سلطان الفزاعة : التتار والصلبيين والاستعمار الح资料 .

فهذه النظرة الكلية الشاملة للسادى والمنوى مما ، هي سر القوة والحياة ، ومنها يصدر ذلك الروح الواضح من القدرة على المقاومة والتحدى للفزاعة ومنها تمثل الملهم الاستقلالية الذاتية التي تطبع الأمة بطابع لا يمكن أن يندم أو يذوب أو يضيع في غمار المذاهب والنظريات التي يحملها الفكر البشري من الشرق أو الغرب .

ومن هنا كان إصرار النفوذ الغربى على غزو هذا الفكر للقضاء على طابعه الأساسى فى امتزاج الروحية والمادية المتزجقة فيه بطابع الفكر الغربى « المادى الحالى » ومن هنا نشأ الصراع بين الفكر العربى الإسلامى وبين دعوات التغريب التي تحاول أن تحل مفاهيم غربية لقيمته الأساسية أو تحل قيمًا غربية مكان القيم التي يحملها الفكر العربى الإسلامى .

ولعل أخطر ما حمل عليه الفكر العربى الإسلامى هو « جزئية النظرية » لتحل محل النظرة الكلية الشاملة التي هي طابعه الأصلى ، والتي تحول دون تجزئة الأحكام بين النفس والمجتمع أو بين الدين والتربية أو بين الأدب والخلق على النحو الذى يتمثل فى النظرة الغربية . فالفكر العربى الإسلامى يؤمن بقاعدة الأساس المترج من الروح والمادة والتوازن المتسق بين العقل والروح ، فيما توقف إشعاع الروح تجاه المقل .

ولا يوجد قطاع من الفكر العربى الإسلامى يمكن فهمه لو أخذ بمفرده وعزل عن

القطاعات الأخرى ، وأى جزئية لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا إذا درست متصلة اتصالاً وثيقاً بالأجزاء الأخرى ، ذلك أن بناء الفكر العربي الإسلامي يقوم على رابطة أساسية تمثل الهدف وهو بناء « الإنسان » فلا بد من الترابط بين الجوانب المختلفة ، في أى قضية فتحن لا نستطيع أن ندرس الأدب دون أخلاقيته ، ولا ندرس التربية منفصلة عن روح الدين ، ولا نحل مشكلة ما دون تقدير جوانبها الاجتماعية والنفسية والروحية والعقلية في وقت واحد . وهنا يبرز جوهر الفكر العربي الإسلامي الذي يعزز في تفاعل بين القيم الروحية واللادنية ولا يفصل إحداها عن الأخرى .

أبرز مقومات الفكر العربي الإسلامي أنه يمثل الإنسان كائناً حياً محباً للحياة يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل الآخرة كأنه يموت غداً، في ظل من الأخوة والمحبة، مع إيمان بالله وإيمان بسيادة الإنسان على الكون تحت ظل الله بوسنه صاحب انتلافة في الأرض. وتلاقى في الفكر العربي الإسلامي : العاطفة والعقل ، الروح واللادة ، العلم والدين ، الفكر والشعور ، النفس والجسم ثم يظهر طابع الأخلاقية الملايا واتجاهي الأتجاه نحو الإنسانية والمجموع أكثر من الأتجاه نحو الفردية والذاتية والتضاحية بالنفس في سبيل الكل ، ومقاومة الناصب وجihad المحتدى ، من زهاده فيما ليس ملكاً له أو حق وقدر للشرف والتضليل والصدقة . واستعداد للجود بما يعلك ، وإقامة المدل الاجتماعي وإقامة بناء المجتمع على أساس التضامن والمساواة .

وجوهر الفكر العربي الإسلامي يجمع بين المحافظة والانطلاق ، والتحليل والتأليف ، والمثال والواقع والبساطة والوضوح . يحب التقدى « لا وتحمل بذلك مثولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ». ينظر في كل شيء بفكر منفتح وبغير عقيدة مسبقة وينقده ولا يراه مقدساً فوق النقد ، لا تقويم نظرته إلا على الاقتناع المقل مع لإيمان الروح . يعزز بين القيمة والمصلحة . له قدرة كاملة على الحركة ومع الحيوية له القدرة على الامتصاص مع سعة في الأفق ، واعتلال الملوكات فيه البساطة مع المرونة ، وله القدرة على الأخذ والعطاء » والقدرة على التأقلم ، يربط بين الماضي والحاضر ، آفاقه مفتوحة على انتقالات والحضارات والمذاهب ، يرى الحكمة من الله أني وحدها ، ويرى الموت في الحق هو عين البقاء » قادر أن يقول لا إداسيم الخسف ، الإنسان عنده ليس إمعة يجرى مع التيار ، ولكنك قادر دأباً على أن يقول أحسنت وأسألت ثم هو يجمع بين الحق والمدل والغير .

ويتمثل جوهر الفكر العربي الإسلامي في الاستعمال على فوارق الجنس والموت والمنصر ، مع الإيمان بالعلم والبحث « طاب العلم فريضة »، اطابوا العلم من المهد إلى المهد، يتصل بالثقافات اتصالاً حرّاً لا تنهى قيود إلا الحفاظ على مقوماته وشخصيته . يؤمن بالحركة على الأساس الثابت لا يقر العبودية الف克يرية ولا التبعية ، تترج فيها الإنسانية بالإقليمية .

ويتمثل طابع الفكر العربي الإسلامي في حرية المقل وسعة الأفق ، واعتبار التاريخ مرأة واللغة أساس ، مع القدرة على المضم والمتبل والامتصاص ، في ظل القاء الملوكات واعتذارها دون تعارضها ومع التعاون على البر والحق ، والوفاء بالعهد والإنسان سيد الكون تحت حكم الله ؛ وسيادته ليست سيادة مادية ، بل سيادة القيم الإنسانية من العدل الحرية إلى الإباء والمساواة . والانسجام بين الفرد والمجتمع ورق النفس عنده يجري مع الأرق المادي . وفي مجال العلم قوامه الإيمان بالتجربة «قل هاتوا برهانكم» حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء : وفي كل نظرة : الاعتدال . الخلق . الكرامة . العفة ، العرض ، الشرف ، الشورى . لإسراف ، لآخراف ، لاتصبع ، لانفرقة عنصرية لانفني شخصية المرأة في شخصية الرجل ، لا يقدم الرجل المرأة كأرقى لمعنته وفائدته المادية . التكامل والتكافل والراكة والمدل في الاقتصاد والمجتمع . وضوح سلطان العقل على البدن والغراز «المزلة الوسطى» ، لاعقرية بلا مسئولية لا الإباء والبعد والسلام ، لا شيء يفرض بالقوة ولكن بالاقناع والبرهان .

وهكذا يقدم الفكر العربي الإسلامي نظرة كاملة للحياة والإنسان على أساس الانتقاء والامتزاج بين النهن والقلب والروح والمادة ، فالتفكير العربي الإسلامي لا يحترم الحياة ولا الأمور المادية ، ولا يذهب مغبرا إلى الروحية والغيبيات . وهو يدعو إلى الاتصال بالحياة والارتباط بها والتفاوض معها دون أن يتجاوز حد القصد والاعتدال . وفق مثل أعلى رفيع . مع استعماله لكل التفاصيل والرهبانية على السواء ، يقيم أحکامه على أساس المقتل والمعدل . ويوفق بين الاتجاهات المتقابلة ويجمع بين الدنيا والدين . على أساس الرهد في مجال الثراء ، والإباء في مجال الفقر ، في انسجام والبقاء متكامل .

## معطيات الفكر العربي الإسلامي

استطاع الفكر العربي الإسلامي أن يقدم لل الفكر العالمي والحضارة الإنسانية المخطوط العربيضة وللتقالفة والعلم والفن » بعد أن تبأرت في يومنته عصارات الثقافات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية » وأن يخلق من هذه المعطيات المضافة إلى أصوله الأساسية فكراً واضح القومات والقيم .

ولم يكن الفكر العربي الإسلامي ناقلاً أو مترجمًا حسب ، بل ومبينا وبياناً وفي خلال هذه المرحلة التي تسلم الفكر العربي الإسلامي فيها أمانة الحضارة ، فاستطاع أن يضيف كثيراً من الثمرات وأن يبدع الجديد أيضاً ، وكانت أبرز معطياتها هي طبع الحضارة بطبع سيادة الخلق ومبادئ الشرف وسمانى العدل والإخاء والتكافل الاجتماعي . وكان الرق في نظرنا هو تقلب الإنسان على المادة وعلى أهواه في نفس الوقت .

ولعل أبرز ما أعطى الفكر العربي الإسلامي للحضارة الحديثة « النهج العلمي » فالعرب المسلمون هم أول من وضع قواعده وأسسه ، وطبقوها تطبيقاً كاملاً على كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر . وقد كان الإسلام في أسسه الأولى والقرآن في مطالع آياته قد دعا إلى « البرهان » في كل قضية ، ومن هنا شأق حال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل ، مع النهي عن التقليد ، وتحrir النص بعد مراجعته ومطابقته للعقل مع إفراز مصدره .

وقد وصل الفكر العربي الإسلامي في ذلك إلى غايتها نضوجاً وقوة فيما ترجمت آثار اليونان والإغريق لم يأخذها الفكرون العرب والمسلمون قضايا مسلماً بها ولكنهم ناقشوها وراجموها ، وقبلوا منها ورفضوا . فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرها في كثير من النظريات والآراء فلا يتقييد بها ، بل يأخذ منها ما يقتضي به ويوافق مزاجه الفكري ويزيد عليه ، وعنه أن الفلاسفة يصيرون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقييد بأراء من سبقوه بل يبحث فيها ويدرسها ويرضاها على المنطق والعقل ، وعبارة مشهورة

حيث يقول «حسبنا ما كتب من شروح لذاهب القدماء وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا» .

وابن رشد يعنى في طريق البحث العلمي خطوات أشد عمقاً واتساعاً، فيدعوا إلى النظر فيما قدمته الأمم وفق شرائط البرهان، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكراً ناهم عليه وما كان غير موافق للحق نهانا عليه وحدرنا منه وعذرناه .

وابن الهيثم والبيروني يصلان في هذا إلى المدى<sup>(١)</sup> البعيد، ويضع الفاضي عياض «علم المصطلح في الحديث» متحرياً الدقة في التفكير والاستنتاج وقد سار «النظام» في بحثه على أساس الشك والتجربة، فاعتبر الشك أساساً للنجاح، وأشار إلى ذلك أبي هاشم البصري والجاحظ ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة، وقال أن المعرفة لا تحصل إلا بها، وللباحث ابن حزم نظرات في هذا المجال تستطيع بالإضافة إلى ما سبق أن تكون في مجموعها أحسن البحث العلمي كما عرفه الفلاسفة العرب المسلمين على نحو تطبيق لا نظرى، قوله: الاستقراء والقياس والتحليل . مع قصر البحث العلمي على الشاهدة والتجربة وجمع الشاهدات ونتائج التجارب وربطها وتبنيها . ثم ربما يتحقق ذلك بتناول التحول الذي يجدهم قاتلوا طبيعياً أو نظرية علمية ثم استنباط النتائج التي تفضي إليها وبمحض صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع .

وقد نضج هذا النهج على يد ابن الهيثم<sup>(٢)</sup> ١٠٣٩ م وسبق به فرنسيس باكون ١٦٢٦ م ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم من العلماء المعاصرين أن ابن الهيثم لم يسبق بيكون خطيب ، ولكنه سما عليه فقد كان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً .

وقد أشار إلى ذلك ميصف من الترب هو الأستاذ بريفولت الذي قال «إن ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة واللماحة والقياس وتطور الرياضيات إلى صور لم يرها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأولي .

وقال بريفولت أن روجر بيكون قد نقل مذهب العرب في البحث العلمي بعد أن درس .

(١) راجع فصل البحث العلمي في الفلاسفة العرب المسلمين .

اللغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس «، وليس روجر يمكن ولا اسميه فرنسيس يمكن الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار التهج التجريبي «، فلم يكن روجر يمكن إلا رسولا من رسول العلم والنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية . وهو لم يعل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

\* \* \*

ومن عشرات الشهادات المنشفة يتبيّن أن الفكر العربي الإسلامي كان مبدعاً؛ شهد بذلك : لاروملاندو . ليبرى . كاجوري . هوى لين . جول لا بوم ،وليم أوسلر ، سارطون ، ما كن مايرهوف . برنارد لويس ، درابر ، بريفو ، ديلامن أوليري . سيديو . لوبيجي دينالدى .. دولامبر ، جوستاف لوبيون « هؤلاء جميعاً شهدوا بفضل الفكر العربي الإسلامي على علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والكيمياء والنبات والآداب والفنون والفلسفة والموسيقى .

وملخص شهادتهم: (١) أن العرب المسلمين عرّفوا التشريح وما درسوه (٢) الأطباء العرب المسلمين في القرن العاشر يملؤوا تشريع الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية (٣) ابن النفيس الدمشقي المصري اكتشف الدورة الدموية وتقطّعها (هارف) (٤) الكشافة العرب والمسلمون اكتشفوا أمريكا عام ١١٠٠ م قبل كولمبس ١٤٩٢ م .

(٥) الفكر العربي الإسلامي لم ينسخ من المصادر اليونانية والنسكرينية نسخاً ولكن رجاله جعلوا بين المصادرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالأراء الهندية (٦) علم الضوء أسدوا إليه عظمة الابتكار « و كذلك علم الثالثات (٧) الفكر العربي الإسلامي علم العرب أن يضعوا العقل أولًا (٨) اكتشفوا وجود المدوى وطبيعتها لأمراض الجدري والطاعون والكوليرا .

(٩) حتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناوش في جامعة مونيليه بفرنسا ، وقد عاشت جامعات العرب خمسة عشر سنة تكتب للعرب خاصة ، (١٠) أن العرب هم الذين .

مدنوا أوربا في المادة والعقل والخلق وهم الذين علموا العالم كيف تتحقق حرية الفكر مع استقامة الدين (١٠) عد (لكرك) في تاريخ الطب العربي ثلاثة كتب نقلها الغرب من الفكر العربي الإسلامي إلى اللاتينية .

(١١) اختنعوا الساعات المعاقة والزوجية واكتشفوا قوانين قتل الأجسام (١٢) عرفوا ترکيب النار اليونانية (١٣) أول من استخدم الموصلة في الملاحة (١٤) واكتشفوا الإبرة المنقطيسية ، (١٥) وضعوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات (١٦) سجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقاراً لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقاراً وألفاً اكتشفها العرب (١٧) عللوا صعود الماء في العيون ، (١٨) بعثوا في الصوت وعللوا حدوث الصدى ، والجذب في المغناطيس (١٩) ودرسوا نظرية الشووه والترقق وطبقوها على المواد غير المضوية والمعادن (٢٠) أثثروا المرصد واختنعوا إلى الإسطرلابات الدقيقة ، وحسبوا طول السنة الشمسية . وصححوا أخطاء بطليموس (٢١) وضعوا أساس علم الكيمياء ومارسوا التقطير والترشيح (٢٢) فلت الأطباء العرب المسلمين لأول مرة الحصى في المثانة وسدوا الشرابين النازفة واستعملوا المرقد (المهد) في العمليات الجراحية .

(٢٣) صححوا آراء بقراط وجالينوس في التشريح ووظائف الأعضاء (٢٤) عرفوا «الصلفر» . ولم يعرف الغرب إلا في القرن الثاني عشر .

\* \* \*

كما قدم الفكر العربي الإسلامي فلسفات الاجتماع وأصل الأنواع . فقد سبق (ابن مسكونيه) دارون إلى نظريةي أصل الأنواع والتطور ، فقد ذكر ابن مسكونيه في كتبه نشوء الحيوان من النبات ، وأن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة المهايم « وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتفع حتى رتبه أعلى من مراتب البشر » كاسبق ابن خلدون .

وقد تأثر دانتي في قصته « الكوميديا الآلهية » بالعرى في رسالة القرآن .

وسجل الفكر العربي الإسلامي أوليته في مجال كتيبات المكتوفين التي عرفت

بالحروف البارز سجل ذلك على بن أَحْمَدَ بْنَ يُوسُفَ الْأَمْدَى فِي مَوْلَفَاتِهِ وَذَكَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي كِتَابِهِ نَكْتَ الْمَمِيَّانِ فِي نَكْتَ الْمَمِيَّانِ .

وبناءً على ذلك أَبْوَ بَكْرَ الطَّرْطُوشِيِّ فِي التَّأْلِيفِ عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلُوكِ الْكَاتِبِ الإِبْطَالِيِّ (مِيكَافِيلِيِّ) وَكِتَابِ الطَّرْطُوشِيِّ (سَرَاجُ الْمَلُوكِ) مَصْدَرُ لِكِتَابِ (الْأَمْرِيْرِ) وَسَابِقُهُ بِخَسْهَةِ قَرْوَنِ فَقَدْ اكْتَهَفَ الْبَاحِثُونَ أَنْ مَعْلَمَ مَوَادِ كِتَابِ الطَّرْطُوشِيِّ قَدْ نَسِيَتْ فِي كِتَابِ الْأَمْرِيْرِ .

\* \* \*

وَكَانَ لِلْفَكِّرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ أُولَيْتَهُ فِي الْمُوسِيقِ ، وَاعْتَرَفَ الدَّكْتُورُ هَنْرِيُّ فَارْمُرُ فِي بَحْثِهِ عَنْ تَارِيْخِ الْمُوسِيقِ الْعَرَبِيِّ (١٩١٤) بِفَضْلِ الْمَرْبُوْلِيِّ الْمُسْلِمِ عَلَى نَظَرِيَّةِ الْمُوسِيقِ الْعَرَبِيِّ وَأَنَّ ابْنَ سِينَا وَالْفَارَابِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ زَادُوا عَلَى الْمُوسِيقِ الْيُونَانِيِّةِ وَأَدْخَلُوا تَحْسِينَاتٍ وَاحِدَةً ، وَأَبْيَثُتُ أَنَّ الْمَرْبُوْلِيِّ أَجَادُوا فِي بَحْثِ التَّوْرَاتِ الْكَرِيْبِ لِلصَّوْتِ . وَأَنَّ الْمَرْبُوْلِيِّ أَضَافُوا آلَاتٍ جَدِيدَةً ، وَابْتَكَرَ الْفَارَابِيُّ الْآلَةَ الْمُرْوُفَةَ بِالْقَانُونِ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَكَبَهَا هَذِهِ التَّرْكِيبُ الَّتِي لَا تَرَالُ عَلَيْهِ حَتَّى الْآنِ . وَرِجْعُ فَارْمُرِ أَنَّ الْكَنْدِيَّ أَوَّلُ مَنْ كَبَ نَظَرِيَّةِ الْمُوسِيقِ ، وَيَذَهَبُ إِلَى نَفْسِ الْمَقْيِقَةِ الدَّكْتُورِ أَدْمُونْدُ كُورِبَا لُوبِسُ فَيَقُولُ إِنَّ الْمُوسِيقِ الْعَرَبِيِّ هِيَ أَمِّ الْمُوسِيقِ الْأَسْبَانِيِّ . وَإِنَّ أَسْبَانِيَا هِيَ أَمِّ الْمُوسِيقِ الْعَالَمِيِّ . وَأُعْلَنَ الْمُسْتَشْرِقُ خُولِيَّانُ رِيبِيَّارَا أَنَّ مُوسِيقِ الْقَرْوَنِ الْوَسْطَى تَرْجَعُ إِلَى أَصْلِ عَرَبِيِّ .

\* \* \*

وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذِهِ الْمُخَاتِلَاتِ تَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَى الْاِتَّهَامَاتِ الَّتِي وَجَهَتْ لِلْفَكِّرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ بِأَنَّهُ تَرَاثٌ Legacy ولا يُشَكُّ أَنَّ كَلْمَةً «الْتَّرَاثُ» تَعْنِي مَا تَخْلَفَهُ الْمُحَضَّارَاتِ الْبَائِدَةِ وَالْمُقْرَنَاتِ الْمُفَرَّضَةِ ، وَقَدْ يَنْطَلِقُ ذَلِكُ عَلَى تَرَاثِ الْأَغْرِيقِ وَالْرُّومَانِ وَالْفَرَاعَنَةِ ، لِأَنَّ مَدِينَةَ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَلِنَاهِيَّهَا قَدْ اَنْتَهَتْ ، أَمَا الْفَكِّرُ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ فَاَذَالَ حَيَا بَاقِيَا وَقَدْ اَنْصَلَ بِالْمُقْرَنَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ اِتْصَالاً حَرَّاً ، لَمْ يَقِيِّدْهُ تَفَوُذُهُ وَلَمْ يَفْرَضْ عَلَيْهِ اِخْيَتَارَ ، فَامْتَصَ وَاقْبَسَ مَا نَاسِبَ مَقْوِمَاتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ . ثُمَّ خَطَا بِهِ خَطُوطَ ، وَابْتَدَعَ فَنَوْنَا جَدِيدَةً ، وَلَقَدْ كَانَ هَدْفُ الْفَكِّرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ أَسَاسًا هُوَ تَحْرِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الْوَتَنِيَّاتِ وَكَانَ طَابِهِ التَّقْدِمُ

في مجال العلم مع سيادة الخلق والمعدل والحق وفق قاعدة تكريم الإنسان ورفع قدره ، وعلى نحو لا يجعله عبداً للعادة فضل هو السيطر عليها .

والي الواقع أثنا في حاجة إلى أن نفهم مدى دورنا وقوه معطياتنا للحضارة الإنسانية والثقافة والفكر العالمي . وستجد أن أوليات الفكر الإنساني وبدور العلوم والثقافات قد بدأت في حضارة فكرنا فإذا هي عادت إلينا اليوم فإنا ذلك حق في دورة التاريخ ، وقد شاركنا أساساً في إبداعها والإضافة إليها .

\* \* \*

ولقد حاول كثير من الباحثين إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية وردد القول بأن (الحضارة الرومانية) انتهت في القرن الرابع الميلادي وأن (الحضارة الغربية) بدأت في القرن الرابع عشر وأن فترة الألف عام في عمر الإنسانية كانت فترة القرون الوسطىظلمة (٤٧٦ - ١٤٥٣) والواقع أن هذه الفترة كانت فترة ظلام وركود وأخبطاطة بالنسبة لأوربا والغرب وحده ، أما بالنسبة للعالم العربي الإسلامي فقد كانت فترة يقطلة وضياء لا يُحدّه ، فقد ظهر الإسلام في هذه الفترة واتسّم نطاق اليقظة وامتد حتى بلغ الصين شرقاً والأندلس غرباً ورثّ على أوربا نفسها وكاد أن يطوقها .

وقد اعترف الباحثون المصنفوون : جوستاف لوبيون ، لوبيجي رينالدى ، برنى دافن ، سينيديو ؛ بأن الفكر العربي الإسلامي قام ككلنار المفى في القرون الوسطى الأوروبية فأعاد نور الحضارة والمدنية .

يقول لوبيون « كان تأثير الإسلام والمربي في الترب عظيماً ، وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا ، فإذا ما زجعنا إلى القرنين التاسع والعماش للميلاد يوم كانت المدينة الإسلامية في إسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متواحشين يفاخرون بأنهم أميون ، لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء جمّة يقضون الوقت بالتكلّب في ديارهم ينسجون كتب القدماء .

وطال عهد الجهلة في أوربا ولم يجد منها بعض الميل للعلم إلا في القرن الحادى عشر .

عند ما شعرت بعض المقول المستيرة قليلاً بالحاجة إلى نقض كفن الجهل الثقيل ، فطرقوا أبواب العرب يستهونهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العصر ، وما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من لسان أتباع محمد ، فإلى العرب وإلى العرب وجدهم لا إلى رهبان القرون الوسطى من كانوا يجهلون حتى اللغة اليونانية يرجع الفضل في معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا السكرن الثمين » .

\* \* \*

وقد أشار الأستاذ ما كيبل في كتاب (تراث الإسلام) إلى أن أوروبا مدينة للفكر العربي الإسلامي ينبع منها المجازية الحاسية Romance وقال : إننا مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والتحفاظ للعلم الذي كانت تحكمه روما ، وقال إن القصة الأوروبية في نشأتها قد تأثرت بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى وهي القاتمات ومقامات الفرسان ويرى كثير من النقاد الأوروبيين أن رحلات جيلفر التي أنها سيفيت ورحلة روبنسون كروزو التي أنها دينبوي مدينة لألف ليلة وليلة ورسالة حي بن يقطان .

وقد أشار برتراند رسل في شأن مقام الفكر العربي الإسلامي من العلم إلى « أن العرب كانوا أميل إلى التجريب من الإغريق وخاصة في الكيمياء » .

\* \* \*

وإذا كان كتاب « التيزيرب » الذي يحملون لواء الخصومة الجاحدة للفكر العربي الإسلامي قد هاجر معطيات هذا الفكر فإن الانصاف قد وجد طريقه إلى أفلام كثير من الباحثين الغربيين الذين حاولوا أن يقولوا كلة الحق . وفي مقدمة هؤلاء السكاكينة الدكتورة سيد جردهونك في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) .

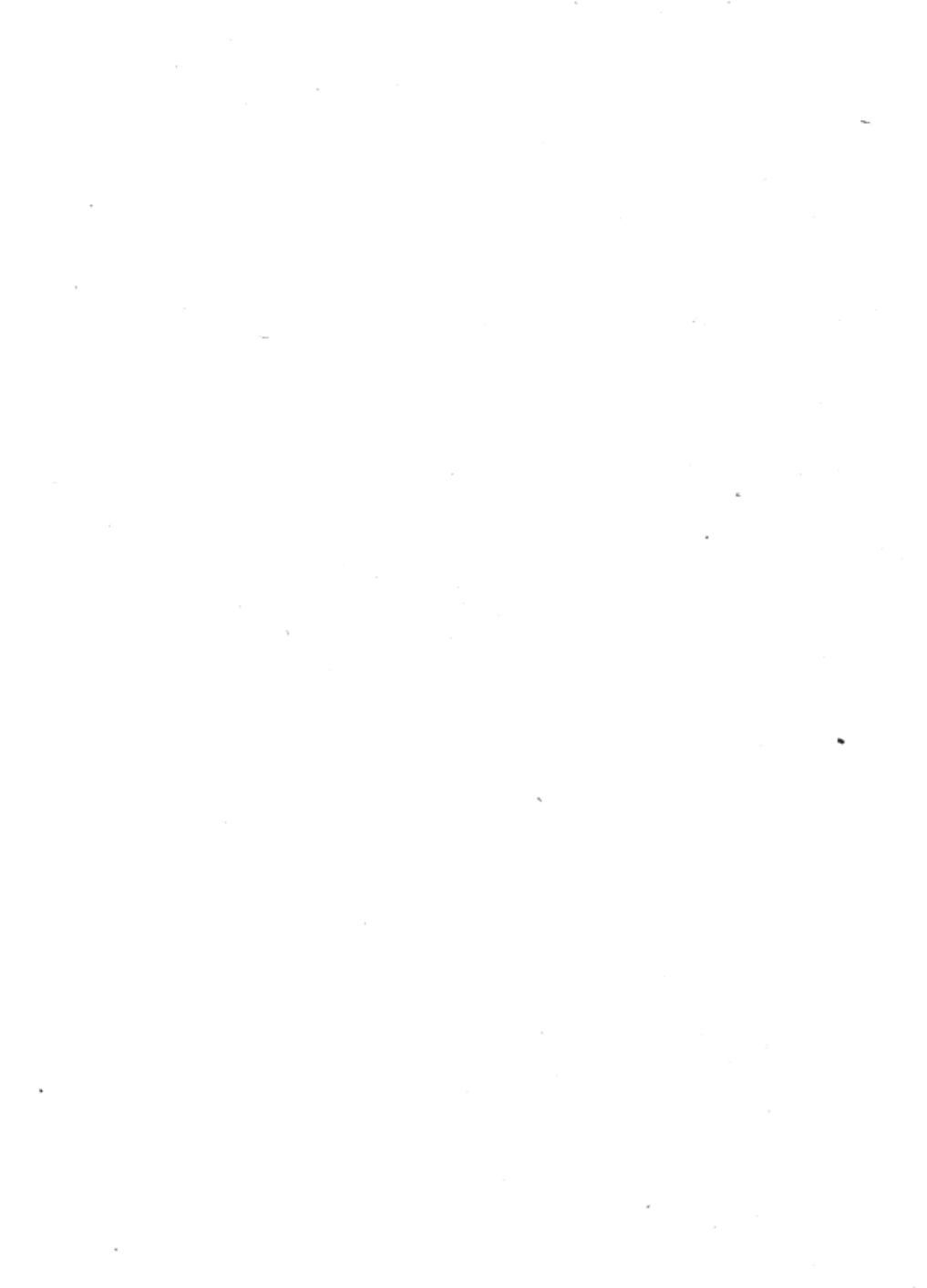
ولعل أبرز ما تنبهت إليه السكاكينة النصفة تصوير مدى الفوارق العميقة بين الفكر العربي الإسلامي والفكر العربي تقول :

« إنه لن السخف أن تعيش البقريّة العربيّة الإسلاميّة على مقياس البقريّة الإغريقية وتلومها لافتقارها إلى التعليل الفلسفى للكون . إن لسلك عبقرية طابعها الخاص وطريقها الخاصة ، وأن مأثرة الفكر العربي الإسلامي الخالدة تقوم في تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة بالمعنى الدقيق لлемة ، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، فقد كانوا أول من جعل من الواقع المزولة عن متنها نقطة الانطلاق لسلك بحث ، وعندئذ أصبح الارتفاع الصبور من الخاص إلى العام أو من الطارقية الاستقرائية إلى الطارقية العلمية الأساسية . إن النجزات التي حققها رواد العلم العربي على أساس المشاهدة والتجربة سوف تحدد الحركة الأولى لتحرر الفكر العربي عن طريق روجر بيكون وألبير الكبير وليوناردو دي فنسى وغاليلوس . . . » .

ويقول : لشد ما يهمن حقهم حين يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم العربي بعد ما حفظوا « من الدمار » . فذلك يعني في الواقع التقليل من قيمةهم والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الزرب مدمومة بأثمارهم .

الكتاب الثاني  
الفكر الغربي

مقوماته و معطياته



## مقوّمات الفكر الغربي

من المعتقد أن «الحضارة» غير «التفكير» وأن الحضارة ملك مشاع للإنسانية من حق كل الشعوب والأمم أن تأخذ منها ما تشاء . فهى ميّصلة بالحياة والاختراعات والآلات والعلوم التجريبية .

أما «التفكير» فيختلف عن ذلك ، ويرتبط أساساً بالنفس الإنسانية في ميولها وقيمها ومنهايمها الروحية والاجتماعية والمقانعية . ولذلك فليس من السهل أن ينقل كالحضارة . وإن كان من الحقائق المقررة أن الثقافات الحية تكون مفترحة داعماً على الثقافات الإنسانية تأخذ منها وتعلّى على قدر ماتمده بالقوّة والحيوية والتطور . وتجعلها مضطربة النمو والاستمرار مع موكب الحياة الذي لا يتوقف . ولكل فكر «مقوّماته الأساسية» التي لا تتحول عنها ، هذه المقوّمات التي امتدت من القرون الطويلة وتكونت نتيجة للذوق والضمير والبصيرة والروح الأصيلة للأمة أو القوم . ولقد تأكّد بصورة قاطعة أن هناك ثلات ثقافات أساسية في العالم الحديث تبدو كل منها ولها طابعها الواضح الصريح .

✗ الثقافة الغربية (بشرطها المادي والماركسي) .

✗ الثقافة الشرقية .

✗ الثقافة العربية الإسلامية .

وفي تفريق شامل أساسى سريع يتبيّن : أن الثقافة الغربية أساسها مادي خالص ، وأن الثقافة الشرقية أساسها روحي خالص ، وأن الثقافة العربية الإسلامية أساسها مزيج متناول من المادة والروح . ومن هنا يتبيّن مدى اختلاف وجهات النظر في المقوّمات الأساسية للفارق بين الثقافات الثلاث .

وإذا كان هناك مصدر لهذه الثقافة أساساً فهي الأديان والمعتقدات وتراث الأدب والفن والفلسفة ، أما الثقافة العربية الإسلامية فقد قامت أساساً على مفاهيم الإسلام بوصفه دينا

وتقافة ونظام حياة كما قامت الثقافة الغربية على مرجع من المسيحية الشرقية والوثنية الأغريقية والعلم الحديث . أما الثقافة الشرقية فقد قامت على أساس مفاهيم الدينين الكبيرين: البوذية والكونفوشيوسية .

ويعكن القول بأن الثقافة الغربية تمثل في أوربا وأمريكا وأن الثقافة الشرقية تمثل فيما يطلق عليه الشرق الأقصى وهي الأجزاء غير الإسلامية والערבية من آسيا . وأن الفكر العربي الإسلامي يتمثل في المنطقة الوسطى التي تحكم اللغة العربية (العالم العربي) أو التي تدين بالاسلام (العالم الإسلامي) .

\* \* \*

وعندما تعمق المقارنة بين الثقافتين العربية والغربية يتبيّن مدى الاختلاف الجذري بينهما بحيث لا يمكن التماهياً في أساس . وإنما يمكن تبادل الامتصاص أو الابتزام بين الثقافتين من جوانبها المختلفة وبالنسبة للثقافة العربية يمكن نقل أساليب الفكر الغربي ومناهجها للاتفاع بها في تجديد عرض جوانب هذه الثقافة وأغنامها وإعطائهما قوة جديدة على الحياة والحركة والتطور دون أن يؤثر ذلك في مقوماتها الأساسية .

والفكر التربي يقوم أساساً على الوثنية الأغريقية + المسيحية ، وفي ظل النظرة المادية التي قدمتها النظرية الرومانية ومن عصارة هذا المزج أقام الفكر الغربي أساس نظرته إلى الله والحياة والانسان وأسس حضارته وطابعها .

\* \* \*

(أولاً) الوثنية الأغريقية .

(ثانياً) النظرة الرومانية التي تمثل في إن كل ما غير روما فهو أرض العبيد .

(ثالثاً) المسيحية الوافدة من الشرق .

## ١ - الوثنية الإغريقية

هي أحد الدعائم الثلاث التي يقوم على الفكر الغربي . وتمثل في التراث الإغريقي الذي يصور المقدمة الملاينية الحرة المنطلقة التي تتميز بأسس واضحة هي : (١) تعدد الآلهة (٢) صراع الإنسان مع الآلهة والطبيعة (٣) حرية الفريزة والجنس (٤) تقدير الجسد (٥) غلبة النزعة الأسطورية (٦) قائلة المقل .

وقد صور دعاة الفكر الغربي مفهوم الوثنية الإغريقية مبيناً ملخصاً الخلاف الجذري بينها وبين فكر الشرق الإسلامي . فقال « أول عنصر من عناصر القوة في حضارتهم إنهم لم يكونوا يوماً عبيداً للتقليد لم تكتبه آلهتهم الطقوس والعادات ، آلهتهم تسرح وترح على جبال أوليبوس وتتصرف تصرف البشر . كانوا يحبون ويكرهون ويحبّطون نساء بعضهم بعضاً ، كانت آلهة اليونان أناساً ولكن جبارات ، لم يستولى على خاصة الإغريق خوف ولا رهبة ، ولا جود أمام الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه أنه عبد ذليل بمحاجة إلى الرحمة والشفاعة ، بل ظل سيد نفسه متنفساً ، موقتاً أنه سيد الأرض ، لم ترق الكون قوة لسحقه ، إجلال المقل وإحلاله مرتبة مقدسة ، لم يرض بالأسطورة والخرافة تعليلاً لظاهر الكون وأسراره بل حاول أن يجدوا لها تعليلات عن طريق المقل والتعليق في ظاهرة تأليه العقل وهم بذلك يختلرون عن الشعوب السامية التي أحلت « الأعيان » العمل الأول . وإذا كان هم السامي إمامته الجسد والانصراف إلى الروح الخالدة وكان هم عالم بمقدوره والإعراض عن الدنيا فإن الإغريقي قدس الجسد وحملة ، وكان انصرافه إلى الحياة الدنيا بالدرجة الأولى فكان عندهه الفناء والرقص والشعر والتثليل والتوصير والنحت ، وهي التي أعرض عنها السامي إعراضًا كلياً على أنها من مطالب الجسد (١) » .

\* \* \*

ومن دراسات متعددة للتراث الإغريقي يبدو أن هناك خطاناً أساسياً : (الأول) العداء

(١) أنيس سامي : مجلة الأبحاث م ..

بين الآلهة والبشر وانتقام الآلهة، وصراع الإنسان مع الآلهة ومحاولة الانتصار عليها (الثانية) عبادة الإنسان وقداسته وإعلاء جانب الماديات والجنس والفرأز وإهانة جانب الروح، وتكشف هذه النظرة عن المخالفة الواضحة للخلاف بين الفكر العربي الإسلامي وأسس الونية اليونانية في نظرتها إلى الآلهة والكون والإنسان.

ومن هنا تبدو النظرة الإغريقية – وبالتالي النظرة الغربية – ناقصة جزئية بينما تبدو النظرة العربية الإسلامية شاملة.

فليس في النظرة الإسلامية إيمانة الجسد والانصراف إلى الروح أو عالم ما بعد الموت أو الاعراض عن الدنيا كالية ، وربما كانت هذه نظرة الفلسفة الشرقية أو الفكر الشرقي . أما نظرة الفكر العربي الإسلامي فهي جام الروح والجسد والمقل والقلب ، وهي لا تنتصر عن الحياة ولكنها لا تسرف في الاندفاع وراء الفرأز ، وهي تؤمن بالله والموت والنبي ولكن ذلك لا يصرفها عن الحركة والتطور والعمل في الدنيا والإبداع . وتبصرتها في ذلك معروفة وواحنة وليس في حاجة إلى الدفاع عنها ، فقد استطاع الفكر العربي الإسلامي أن ينشئ حضارة وثقافة لها فاعليتها وحيويتها وأولياتها في عالم الفلسفة والعلوم التجريبية والموسيقى والطبع والفلك دون أن تخلي عن إيمانها بالله وكانت ولا تزال مفتوحة على الثقافات الإنسانية ، ترجمت في عصر ازدهارها فكر اليونان والرومان وقد نادت وأضفت إليه واعتبرت على بعض جوانبه التي لا تتفق مع منطوق فكرها ومقوماتها ونخته وامتصت عصارات الفكر المسيحي والمندي والفارسي جميعا وأساغتها وبأورتها في بوتقة شخصيتها فامتد به كيانها وتوسعت ، وهي في هذا المصر لا تتوافق عن الامتصاص من عصارة الفكر الإنساني ما يزيدها قوة وحياة ، وسوف تظل قادرة على الأخذ منه بغيرية مما كانت ظروف الضغط التي يقوم بها الفزرو الفكرى أو التغريب أو الشعوبية حلما على الذوبان فيه والتحول عن طابعها وكيانها إليه تتحول كاملا .

ولقد كانت الثقافة العربية الإسلامية قادرة داعيا على أن تأخذ وتدفع وتعطى في أصلها دون أن تتحول أو تذوب أو تتنازل عن قيمها الأساسية ودون أن تكون تابعة أو مقودة . وقد أولى الفكر العربي الحديث ولاءً وتبعدة وترابطا مع التراث اليوناني لاحده له بالرغم من فواصل الزمن وتحول الفاهمين ، بينما عارض رجاله ذلك بالنسبة للفكر العربي المعاصر في ارتباطه بمقوماته الأساسية .

## ٤ - النزعة الرومانية

تمثل نظرة الحضارة الرومانية في قاعدة أساسية هي : « كل من عدا الرومان برأبة » وهي نفس النظرة التي أخذتها الحضارة الحديثة . فالمعدل والحرية والمساواة للرومان فقط أما غيرهم فبيده ولاتنطبق عليهم أى قواعد المعدل . وقد استمد هذا الاتجاه « مونتسيكو » في كتابه « روح » القوانين فقال : إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لأننا نزوج عبيداً فإني أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بما من أن تستبعد شعوب أفريقيا كي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسحة والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة ، ولا يمكن للإنسان أن يتصور أن الله ، وهو ذو الحكمة السامية قد خلق روحاطية في داخل جسم حalk السواد » .

هذه النظرة الأساسية في الحضارة الرومانية ، وقد ورثتها الحضارة التربية الحديثة وأخذتها قاعدة لها في عملية الاستهانة الضخمة التي قامت عليها النهضة ، « تختلف اختلافاً وانحصاراً وجذررياً مع مقومات الفحكر العربي الإسلامي الذي لا يرى فوارق بين السود والبيض ، وإن أكرم الناس هو أتفاه وإن تميزهم إنما يكون بالأعمال والقدرات وموازين الأخلاق والتقييم لا بالألوان أو الأجناس ، ولذلك أنكر الفحكر العربي الإسلامي النظرية المنصرمية وحاربها .

وإذا كانت الوثنية قد امترجت بال المسيحية ( كما يقول درير في كتابه بين الدين والعلم ) فإنه نتيجة لذلك — وعلى حد قول درير — قد نشأ دين جديد متدرج فيه الوثنية بالنصرانية . وعنه أن الامبراطور قسطنطين حاكم روما وأول نصير للمسيحية قد عمل على مزج الوثنية باليسوعية « لصالحة المزعين المتنافسين ( النصراني والوثني ) » وذلك رجاء التأليف ينبعها ، وأن المسيحية التربية كانت تحكم بالقانون الروماني ولم تستمد شريعتها من التوراة . وتمثل الصورة التي عرفها التاريخ كلها في فرض الكنيسة للضرائب الفادحة ، واحتياز ملوكوت السماء لأوليائهم والتعذيب والحرمان لكل دعاء العلم النظري والتجريبي أمثال جرادنو برونو وكوبرنيكوس وجاليليو ، والحق أن هذه الصورة ليست مستمددة من المسيحية الأصلية ولكنها مستمددة من المفاهيم الرومانية .

إذا أضيف إلى هذا مفاهيم النزعة الرومانية في الأغرار إعانا باللادة « وأعطاء اللائذ الجسدية غايتها ، وتفخيم عالم الحسن ، وإراقة الدماء والقتل والتثليث والتعذيب » تتمثل مدى ما ورثته الحضارة التربية الحديثة من جذور الحضارة الرومانية .

### ٣ - المسيحية « الغرية »

تعمل « المسيحية » العنصر الثالث من عناصر الفكر الغربي ، فقد امتدت المسيحية السمحنة التي كان مهيمنها الشرق إلى أوروبا واستطاعت أن تتحل مكاناً في الدولة الرومانية حين أعلان император « قسطنطين » اعتناقها فأصبحت دين الدولة الرسمي . وذلك بعد صراع طويل واجهت فيه المسيحية العسف والاضطهاد والاستشهاد .

غير أن الفكر الغربي لم يتقبل المسيحية كما جاءت من الشرق ، وكان للمقبل الغربي عكواناته الأصلية قدرة خارقة على امتصاصها وتحويلها إلى كيانه الوثني الأصيل ، ومن ثم امتهنت المسيحية بالوثنية الإغريقية فكان من هذا المزاج ما عرف من بعد باسم « المسيحية الغربية » . ثم لم يلبث الفكر الغربي أن واجه عصر النهضة وهذا تحول تحولات كثيرة غيرت مفاهيمه إزاء المسيحية بل إزاء الدين بصفة عامة . فقد كان تأثير الفكر الغربي بالفكر العربي الإسلامي في أوائل عصر النهضة عالماً من العوامل الضخمة التي أثرت فيه وحوّله عن اتجاهه الأصلي .

كان لسريان الفكر العربي الإسلامي في دم الفكر الغربي أثره البعيد المدى في ( ١ ) قيام نهضة الإصلاح التي حلّ لوائها لورثة وكتلتين ومن بعدهما . فقد كانت المسيحية بالصورة التي عرفها الترب مجوبة من الوصايا ، ويمكن القول بأنّها كانت « نظاماً روحياً وإرشاداً خلقياً » دون أن يكون لها أساس واضح في التشريع والاقتصاد والسياسة كما تمثل الإسلام « دين وحضارة ونظام مجتمع كامل » ، والسر في هذا أن نظامها كان موجوداً في اليهودية ، إذ المروف أن المسيحية جاءت تحمل الروح لما دلية اليهودية . وطامت لتسكّر من حدة القسوة التي عرفتها اليهودية ، فجاءت المسيحية تحمل كلّات السلام والبر والخير والتسامح . ومن هنا كان وصف التربين لها بالسلبية والتنكّل والاتّجاه إلى الآخرة دون الدنيا ، وقد هاجها على هذا النحو أعلام الفكر الغربي أمثال : رينات ونيتشة وسفيرز .

وقد صاحب المسيحية أول ظهورها في الترب الخالف الطبيعي في الرأي واصطدمت بالتحليلات والتأويلات في مسائل الآلهة والروح ، مما كان لابد منه أن تؤسس كنيسة تصرف الرأي في أمر كل هذه المناقشات والمحادلات . غير أن هذه الكنيسة لم تثبت أن أصبحت هي أبرز ما في المسيحية الغربية ، وأصبح لها سلطانها القوى الضاغط الذي اختفت وراءه حقيقة المسيحية ، ثم ساد سلطان الكنيسة حتى أصبح عنينا رهينا على النحو الذي تصوره كتب التاريخ .

ولم يقف هذا السلطان عند حد فرض الفرائض الفادحة وتأييد قوذ الإقطاع ، بل أنه امتد إلى حد قتل حرية الرأي وإعدام كل من يقول برأي جديد يخالف رأي الكنيسة التي كانت تمثل في سلطان الكهنوت كحدث بجاليو وغيره ومن هنا كانت ثورة «لوثر» تستمد أساسها من مفاهيم الفكر الإسلامي العربي .

(٢) ظهور المدرسة «الرشدية» التي استمدت من ابن رشد مفاهيمه الحرة وفلسفته العربية الإسلامية التي هزت أركان المقيدة المسيحية والفكر الغربي كله ودفعته دفعة قوية إلى التحرر والانطلاق وكسر قيود الجمود الكنسي .

وبهذا يمكن القول دون أن يتجلوز ذلك نطاق البحث العلمي أنه قامت في أوروبا ما يطلق عليه «المسيحية الغربية».

ولطالما واجه الباحثون الغربيون الماديون فكرة استيراد الغرب للسيجية بازدراء عجيب كأنما عز على الفكر الغربي أن يلقي بأثر من آثار الفكر الشرقي الذي لم يولد في غير يقظتهم.

يقول إيمانويل أدهم أحد (وهو مستشرق مسيحي روسي ترك الأصل) : قامت المدينة الرومانية على تراث الإغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وثبتت عليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوي « والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلت المسيحية وامتصتها وغسلتها . وكان في هذا الابتلاع والامتصاص والتثليل بعض الخلاص لنطق الغرب من روح النسك الآسيوية » ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للسكنى من التفاسير ، مرنة بطبعتها غير حاملة في طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام التضليل بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشريعة التي هبت بها على أوروبا .

ولقد نصب معين مدينة رومية لمواءل داخلية فيها جهاز البربر من الجرمان والصقلبة والسلاف والمون ، وسقطت امبراطورية الرومان على ضفاف التير ، فكانت عصور ظلام في أوروبا ، غير أن الشعوب البربرية التي ورثت امبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان وعاداتهم وكان ذلك مقدمة للمهد الاقطاعي .

ثم طفت موجة العرب على الغرب غير أن الغربيين نجحوا في وقف الموجة العربية عند تفاصي أمورها ، وكان نجاح شارل مارتن على العرب على نهر الوار كنجاح الإغريق على الفرس سببا في إنقاذ المقلية الغربية من روح النسك الآسيوية .

في ذلك الوقت كانت المقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسي الذي قام بروما رقيبا على النفوس والمقول ، عملا بكل سينات روح النسك الآسيوية .

غير أن العقلية الجرمانية لم تر في رقابة روما وسلط البابا إلا روحًا آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربي فعملت الجيد على تقطيع أوصالها.

وببدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية والجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوروبية وبين العقلية البابوية التي تحمل في طياتها شيئاً من روح النسك الآسيوية . . . .

ومعنى هذا الفهم للعلاقة بين المسيحية السمحنة والذرب، هو أن الفكر الغربي في استعلائه بمحوره الوثني المستمد من الفكر اليوناني والروماني قد استطاع أن يقاوم المسيحية ولا يستسلم لها وحاول أن يمحورها ويتحولها إلى شيء آخر، ثم يثبت أن تخلص من المسيحية هرائياً .

\* \* \*

ومن هنا لم تكن المسيحية في الفكر الغربي هي المسيحية السمحنة التي عرفها الشرق وإنما هي مسيحية أخرى صنعتها العقل الأوروبى فكانت مزيجاً من الوثنية والمسيحية .

ثم لم تثبت أن صرت المسيحية الفريدة بالمرحلة الدقيقة الخطيرة حين حل عليها العلم التجربى وأقصاها هرائياً من مجال الفكر الغربي حين وقفت في وجهه وحاربت مقدراته وأكتشافاته ورأت في نور العلم ما يصرع سلطانها الكنسى وتفوزها القائم على استسلام العقل الغربي .

ومن نظرة الفكر الغربي للمسيحية التي قاومت العلم وحالت لواء الاستبداد وتحت الإقطاع والأمراء وأثارت روح الإرهاب والسلطان ، كون نظرته لا إلى المسيحية وحدها بل إلى « الدين » بصفة عامة .

ثم لم يثبت أن طبق هذه النظرة على الإسلام فكان ذلك مصدر خطأه الذي لا حد له . فليس الدين هو المسيحية وحدها وليس الإسلام دين خسب ، وإنما هو دين وفكرة وحضارة ونظام مجتمع .

وإذا قيل « الدين » فهو في منطق البحث العلمي ذلك الجانب الروحي الذي يتصل بالآلوهية والتوحيد ويربط بين الإنسان وخالقه وقد كان هذا الجانب في مسيحية الغرب مضطرباً على النحو الذي تكون به حين أضاف روح الوثنية واستمد من أساطيرها .

أما الإسلام فإنه يجمع إلى جانب الدين الذي يمثل علاقة الإنسان بربه ، جوانب أخرى تتعلق بالعلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدولية .

ومن هنا اختلاف الفكر العربي الإسلامي في جذوره ومقوماته وأسسه عن الفكر الغربي ، فقد أ美的ه الإسلام بنظام كامل في هذا المجال ، ورسم له إطاراً كاملاً لحياة مجتمع ومعاملاته في مختلف جوانبه ، بينما لم يجد الفكر الغربي هذا في المسيحية فكانت نظرته إلى الإسلام على أنه دين نظرة قاصرة ، إذ أن الإسلام جمع بين جانبين : الجانب الروحي أو الالاهي وهو ما يطلق الغرب عليه كلمة «دين» والجانب الاجتماعي المتصل بالحياة والسياسة والفكر والأخلاق ، ومن مرجع هذين الجانبين قامت الثقافة العربية الإسلامية وأنشئت الحضارة العربية الإسلامية .

وعلى هذه الفوارق الجذرية يقوم جوهر الخلاف بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي عميقاً بعيد المدى ، ومن هنا يجد ضلال القول الذي يقول «إن شأن الإسلام<sup>(١)</sup> في الشرق شأن المسيحية في الغرب لم يغير المقلية» . وإذا كان هذا القول قد صدق بالنسبة للمسيحية في الغرب فإنه لم يصدق بالنسبة للإسلام في الشرق ، ذلك أن المسيحية كانت عند الغرب طابها روحياً وإرشاداً خلقياً ولم تكن نظام مجتمع متكامل فيه أساس التشريع والاقتصاد والسياسة كما فعل الإسلام .

\* \* \*

غير أن الفكر الغربي في تطوره بعد النهضة من المقلية إلى التجربة وقد نجح المسيحية عنه وصرفها وأخلع عنها على ذلك النحو المعروف ، ظلل يحمل في أعماقه الخصومة العميقية واليصعب التغليف لل الفكر العربي الإسلامي .

لقد ثار الفكر الغربي على المسيحية وسيطرتها وتعسف كهنتها (على حد تعبير أنيس صايغ) ولكنه جعلها معقد الخصومة بينه وبين العالم الإسلامي . فكانت حملاته الضخمة على الإسلام وفكرة ولغته وكتابه باعتباره القوم الأصلي الذي يعطي العالم الإسلامي قوة

---

(١) وردت هذه العبارة في كتاب مستقبل الثقافة الدكتور طه حسين .

المقاومة للاستعمار الفرنسي ، فكان اندفعه في القضاء على مقومات هذا الفكر عملاً رآه مهدأً أساسياً لبقاء سيطرة .

وقد تطورت هذه الحركة من التبشير إلى التفريغ إلى دعوة الشعوبية والتروي الثقافي في مراحل متعددة خلال أكثر من مائة عام ، ولكنها ظلت تحمل في أعماقها كلية جمال الدين الأفغاني التي ما زالت تدوى في آذان العالم الإسلامي كله منذ مائة عام :

« لم تبرح الروح الصليبية كامنة في قلوب أهل أوروبا حتى اليوم كما كانت كامنة في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية (الفردية) لم يزل المتعصب مستقرًا في عناصرها متفقلاً في أحشائها وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة الماء واللقد والتعصب المقوت » .

وهذا يختلف اختلافاً جذرياً مع موقف الفكر الإسلامي من المسيحية وهو موقف التقدير والترابط الزمني والإعتراف بها كمرحلة على طريق الإنسانية وإعزاز رسولها وتكرير معنقيها والتأخر معهم .

\* \* \*

وقد بدت هذه الروح في الحروب الصليبية ، ثم أتى اللورد اللنبي ١٩١٨ في فلسطين كله المدوية وقال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » دليلاً على أن الاحتلال الفرنسي للعالم الإسلامي كان امتداداً للحروب الصليبية التي ظن أنها انتهت منذ ثمانية قرون والتي عرف من بعد أنها كانت مستمرة في حركة التناقض ضخمة حول العالم الإسلامي . وأن نهايتها هي سقوط العالم الإسلامي كله تحت سلطان الغرب .

وقد هاجم المskرون الغربيون « المسيحية الغربية » هجوماً عنيفاً ومع ذلك فنداً تسمى حضاراتهم واتسم فكرهم باسمها . كما ظهرت دعوات مختلفة لتحريرها وتخويرها ، وقد حللت هذه الدعوات فكرة تصادم الدين مع العقل في المسيحية . كما هاجم كتاب الغرب دعوتها إلى السلام والرحمة والحنان . وكان في مقدمه هؤلاء ينتشرون : ثم كانت الماركسيّة حلة ضخمة على المسيحية الغربية والدين كله . وقد وصفها كارل ماركس بأنها « ديانة الكلاب الصالحة الصائمة » .

وكما ذكر الغرب كلة « الترون الظلمة » كان هدفهم منصباً على المسيحية الغربية

يقول سلامه موسى : كلا ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير وحجرها على الحرية النهنية . وليس شك من هذا التسلط وهذا الحجر ، فمنذ القرون الأولى للسيجية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هي خدمة الدين . ولقد أصبح الرجل الثقف راهباً ، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة والعلم » .

وإذا كنا في حاجة إلى أن نشهد بعوق السيجية الفريدة من العلم وحرية الفكر فإننا نشهد بـ رجل من أشد المسيحيين إيماناً بالسيجية والـ فـكر التـربيـيـ ماـحـتـيـ لاـيـرـىـ رـأـيـاـ بـالـغـلـوـ أوـ التـجـيـزـ : يقول سلامه موسى : « أنت <sup>(١)</sup> عندـماـ تـقـرـأـ الـأـنـجـيـلـ تـجـدـ أـنـ الـمـسـيـحـ لـيـكـنـ يـقـصـدـ إـلـىـ وـضـعـ نـظـامـ كـنـسـيـ جـدـيدـ لـهـ كـهـنـةـ وـحـكـوـمـةـ ، وـأـنـ الـمـسـيـحـ الصـادـقـ فـيـ نـظـرـهـ هـوـ الـذـيـ يـدـخـلـ غـرـفـتـهـ وـيـصـلـيـ لـرـبـهـ . وـالـلـفـقـ أـنـ لـهـجـةـ الـسـيـحـ كـلـهاـ توـهـ الـقـارـيـ ، أـنـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ قـدـ أـزـفـ فـلـيـسـ هـنـاكـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ إـيـجادـ نـظـامـ وـحـكـوـمـةـ ، وـإـنـماـ يـعـبـ عـلـىـ النـاسـ أـنـ يـبـشـوـافـ سـلـامـ ، . . . وـلـكـنـ الـسـيـجـيـةـ نـشـأـتـ فـيـ حـضـنـ الـيـهـوـدـيـةـ وـعـاـشـتـ مـدـةـ غـيرـ قـصـيـةـ وـالـمـؤـمـنـوـنـ بـهـاـ يـمـتـرـوـنـ أـقـسـمـهـمـ يـهـوـدـاـ لـهـ مـذـهـبـمـ الـخـاصـ ، وـلـذـكـ جـرـتـ الـسـيـجـيـةـ فـيـ نـظـامـهـاـ عـلـىـ مـاـ رـأـيـتـ مـنـ النـظـمـ الـيـهـوـدـيـةـ فـسـارـهـاـ كـهـنـةـ ، وـكـانـ هـؤـلـاءـ الـكـهـنـةـ هـمـ الـمـضـطـهـدـوـنـ لـلـعـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ مـدـةـ أـلـفـ عـامـ تـقـرـيـبـاـ ، فـالـكـنـيـسـةـ اـضـطـهـدـتـ الـعـلـمـ وـالـسـيـحـ الـذـيـ كـانـ يـطـلـبـ مـنـ الـسـيـجـيـ أـنـ يـدـخـلـ غـرـفـتـهـ وـيـقـلـلـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـيـصـلـيـ ، لـمـ يـفـكـرـ قـطـ فـيـ إـشـاءـ كـنـيـسـةـ وـإـقـامـةـ كـهـنـةـ عـلـيـهـاـ . وـإـنـماـ جـاءـتـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ مـنـ «ـ بـولـسـ »ـ ، فـالـسـيـجـيـةـ الـفـاشـيـةـ الـآنـ وـمـنـذـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ لـلـمـيـلـادـ هـيـ مـسـيـحـيـةـ بـولـسـ وـلـيـسـ مـسـيـحـيـةـ الـسـيـحـ . وـنـقـولـ بـعـبـارـةـ أـخـرىـ أـنـ الـدـيـنـ لـلـسـيـحـ وـأـنـ الـكـنـيـسـةـ لـبـولـسـ . وـأـنـ الـدـيـنـ إـذـاـ كـانـ قـدـ عـاـقـ الـعـلـمـ أـحـيـاـنـاـ يـعـضـ عـقـائـدـهـ . فـإـنـ الـكـنـيـسـةـ هـيـ الـتـيـ اـضـطـهـدـتـ الـعـلـمـ .

ولـاـ ظـهـرـتـ الـسـيـجـيـةـ دـخـلـتـهاـ طـائـفـةـ كـبـيرـةـ مـنـ الـعـقـائـدـ الـفـاشـيـةـ فـذـلـكـ الـوقـتـ مـنـ تـلـكـ الـأـدـيـانـ وـماـزـلـنـاـ نـحـنـ الـمـصـرـيـنـ نـعـرـفـ فـكـرـةـ الـثـالـوـثـ : الـآـبـ وـالـابـنـ وـالـرـوـحـ الـقـدـسـ وـأـنـهـاـ هـيـ الـفـكـرـةـ الـتـيـ كـانـ فـاشـيـةـ عـنـ الـمـصـرـيـنـ بـاـسـمـ أـوـسـورـيـسـ وـإـسـيـسـ وـهـوـرـوسـ »ـ . ويـقـولـ سـلامـهـ مـوسـىـ : إـنـ الـكـهـنـةـ رـأـوـ أـنـهـمـ أـمـامـ تـيـارـ قـويـ مـنـ الـنـقـافـةـ — فـأـوـاـئـلـ

(١) (كـ) حرـيـةـ الـفـكـرـ وـأـبـطـالـمـاـ فـيـ الـتـارـيـخـ : سـلامـهـ مـوسـىـ مـسـ ٤٦ .

الهبة — يكاد يطمو بهم وينقرهم فأثاروا الجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا تتوافق الكنيسة على نشرها<sup>(١)</sup> . . . وبطول بنا الكلام إذا أردنا أن تتبع الاضططرادات التي نالت المؤلفين والطبعين من الكنيسة والحكومات ، وأشار سالمه موسى إلى حاكم التفتیش وذكر جاليلو فقال أنه لما بلغ محكمة التفتیش في إيطاليا آرائه كتبت إلى الكوردينال بلا دارمين بأمر تأمره أن ينهى جاليلو عن هذه الآراء وفي حالة مخالفته يسجن . وسكت جاليلو لأن شبح النار الذي أودقت ببرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريبا . فلما نشر جاليلو كتابه الذي وافق عليه البابا هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب وانعقدت محكمة التفتیش وحكمت عليه » .

\* \* \*

ولا عجب إذا قلنا أن المسيحية الغربية لم تتحمل روح المسيحية الحقيق ولم تعرفه ويتمثل هذا في أسرين (الأول) هذه المروءة الضخمة والمجازر الشنيعة التي قامت في أوروبا في الصراع بين البروتستانت والكاثوليك وأبرزها معركة سانت بارتلئي .

(الثاني) هذه الحرب التي شنها الغرب على العالم الإسلامي وسيطرته عليه ومحاولته سحق قيمه ومفاهيمه وعربية الإسلام واللهمة العربية والقضاء على الفكر العربي الإسلامي .

ذلك أنها إذا أردنا أن نتمثل المسيحية والمسيح في صورتهما الأصلية لوجدنا البون شاسعا ، فقد دعا المسيح إلى السلام وكل ما يتصل بالفکر العربي والحضارة الغربية لا يطابق مفهوم المسيحية الحقيق .

فليست المسيحية التي شمارها « على الأرض السلام وللناس السرة » هي مسيحية الغرب التي شنت الحملات الصليبية على المسلمين مائتي عام كاملة (١٠٩٦ - ١٢٩١) ثم عادت تغزو العالم الإسلامي مرة أخرى باحتلال الجزائر ١٨٣٠ فالعالم العربي والإسلامي متصلًا حتى انتهت الزفوة عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللنبي في فلسطين وأعلن قوله: « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

\* \* \*

(١) في احصاء أن عدد الكتب التي حررتها الكنيسة ولا تزال حتى الآن تبلغ أكثر من خمسة آلاف كتاب .

وقد عنى كثير من المفكرين الغربيين بتفسير هذه الظاهرة الذين يرون أن الخلق المسيحي قد أتى به في الغرب ، وأنه قد صنعت من تفاصيل الكثيرون الثقة بما يسمونه في أوروبا بالخلق المسيحي ، فقد أثار هذا الخلق في كثير من البلدان <sup>(١)</sup> « وفي هذا قول برتراند رسل : إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، هذا الفرد مات على الصليب .

\* \* \*

ويقول سبنسر في حديث له مع الشيخ محمد عبده : وقد أكد كثير من الباحثين أن السكرة الرئيسية للسيجية كما حاولت أن تصورها الكنيسة لا تغسل حتىقة هذا الدين « وخاصة ما يتعلق بالخطيئة التي تسب إلى آدم ويعمل الإنسانية من الأذى إلى الأبد مسئوليتهما » .

وقد أفضى الباحثون في القول حول وثنية المسيحية أو امتداج الوثنية بالسيجية في الفكر الغربي ويرى إسماعيل أحدم أحد : أن العقل الأوروبي لم يبلث حين تفتح في عصر النهضة أن رفض الدين المسيحي كله وأن أوروبا قد عادت من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية وخلقت آلة جديدة تسمى تارة العقل وأخرى العلم وأخيراً الإنسان ويقول « عادت عقلية أوروبا وحضارتها إلى جذورها الأرضية وقطعت علاقتها الروحية بالسماء » .

ومن ثم اصطبنت المسيحية بلون الفكر الإغريقي في طابعها الوثني الأسطوري « التمثل في الطلاق الجنسي والفرائز .

ويقول أنسى الحاج أن المسيحية كما طبعت كانت إغريقية رغم ما فيها عبريات . ولذلك فإن المسيحية لم تكن ثورة وإنما كانت امتداداً واتصالاً لحضارة سابقة ، لذلك لم تر مانعاً من أن تقتبس الكثير من الوثنية .

## أساس الفكر الغربي

« مادية الحياة والتربية والجنس »

يقوم الفكر الغربي أساساً على الوثنية الإغريقية + النظرة الرومانية إلى الإنسانية (كل ماعدا روما عبيد) + المسيحية المستوردة من الشرق (المسيحية الغربية) .

فقد كانت المسيحية التي بزعت أضواءها في الشرق قد عبرت إلى أوروبا ، ماتزال نظرة العقل الأوروبي إليها تمثل في نظرته إلى الواقد الغريب بينما ظلت نظرته إلى راث الإغريق على أنه المثل الأصيل ، لذلك فهو لم يتقبلها ككل ، وإنما قبل منها ما وافق مزاجه الوثني وإضافة إلى الأصل ، ومن هنا نشأ مزاج أغريقي روماني مسيحي للفكر الغربي . ثم كان للنهضة العلمية التجريبية أثراًها البعيد المدى في بروز التزعة المادية المعاصرة التي لم تلبث أن حاربت الدين وأقصته عن مجال الفكر ، وأصبحت هي القاعدة الأساسية لهذا الفكر بظهور نظرية داروين وتأصلها . فقد أصبحت النظرة المادية بما تحمل من معنى التطور وحيوانية الإنسان مصدر كل نظريات الترب وفكرة في مجال النفس والمجتمع والفلسفة والأخلاق والاقتصاد والأدب والتربية .

ثم لم ي Amit هذا الفكر أن تولدت منه النظريات المادية الماركسيه فأصبحت الشق الثاني له . وهنا عثلت أساس الفكر الغربي في (١) إلقاء فكرة الألوهية والدين (٢) مادية الحياة (٣) حيوانية الإنسان وإطلاق غرائزه .

ويمكن القول بأن أبرز النظريات ذات الفعالية في الفكر الغربي هي :

- ✗ نظرية المادية التاريخية (ماركس) .
- ✗ نظرية العدم (الوجودية) .
- ✗ مادية السلوك والتربية (جييمس وديوي) .
- ✗ نظرية الجنس (فرويد) .

## ١- المادية التاريخية : ماركس

كان ظهور «الماركسية» إيذانا بانقسام الفكر العربي وتعزق جبهته ، وإن كان هو أساساً وليد هذا الفكر ، قام على أساسه المادية والدارونية وعلى نظرته إلى الله والكون والتطور وإن اختلفت نظرته إلى الإنسان والمجتمع . وهو نفس الخط الذي سار عليه من بعد فرويد ، وهو إزال الإنسان من مجال إنسانيته وتمريره مصنفاً إليه نظرة التفسير المادي للتاريخ الذي يستمد الأسباب والسببات من الاقتصاد وحده . ويرى ماركس أن التاريخ يمثل صراعاً عنيفاً بين الطبقات ، سواء في ميدان السياسة أو الدين أو الفلسفة أو الاجتماع فهو يرده جميعاً إلى الاقتصاد والمادة ، ولا شك أن نظرة ماركس فيها شيء غير قليل من الحقيقة التياكتشفها من قبل ابن خلدون وعاصمه كثيرون قبل ماركس حتى وصلت على يديه إلى هذا الحد ، غير أنها في نظر الفكر العربي الإسلامي لا تمثل الحقيقة كاملة ، فليس الاقتصاد والمادة هي المصدر الوحيد لكل دوافع التحول في التاريخ وإنما هناك عوامل أخرى روحية ومناخية ، وتقوم الماركسية التي هي فلسفة اقتصاد وسياسة ومجتمع على تغليب المادة واسقاط الدين فهي ترى أن المادة أصل كل الأشياء وأ أنها تسبق الفكر ، بل أن الفكر والروح وعندما هو تطور المادة إلى أعلى درجات التطور .

وعندما أدين هو مظاهر عجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الافتراضية ، وأنه يوم يجد الإنسان العلمانية على رزقه وحياته سيخفي الدين وستنقضى الحاجة إليه ، ولا تندى الماركسية باضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأسس المادية والمعنوية لوجوده .

ويرى ماركس أن التاريخ العام للبشرية يسير وفق حتمية عبر العصر الصناعي . هذه الحتمية التاريخية نفسها هي التي تحفز العمال إلى أن ينتزعوا الدولة من البرجوازية شيئاً فشيئاً بالطرق الدستورية ، ولما كان فعل التاريخ والطرق الدستورية بطيءاً فلابد من الإسراع في تطوير التاريخ ومساعدته وذلك إنما يكون بشورة العمال ضد البرجوازية لانتزاع الدولة . ويرى ماركس بأن الأحوال الاجتماعية في الأمة ليست سوى المظاهر الخارجى لتنظيمها

الاقتصادي وأن الظروف والقوى التي يخضع الإنسان لتأثيرها هي بدورها تُخضع لتأثير فعل الإنسان نفسه . وحقيقة التاريخ الذي نادى به ماركس هي الحقيقة التي تتحقق بسيادة الطبقة العاملة (البروليتاريا) .

وبالجملة فإن فلسفة ماركس تقوم على (١) حقيقة العالم تتحصر في ماديته (٢) لا إله والحياة مادة (٣) الدين أنيون الشعوب (٤) القيم مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي وهي غير ثابتة (٥) الدين أسطورة ابتدعها أصحاب الصالح (٦) تفسير الحياة الإنسانية من خلال التفسير المادي (٧) إلغاء القيم وأثرها في الحياة وفي توجيه ساوك الناس (٨) اعتبار القيم الأخلاقية قيمًا متطورة لا ثبات لها.

• • •

وقد استطاعت فلسفة ماركس بتطورها وتحوّلها إلى نظام اقتصادي واجتماعي يتمثل في الدولة البولشفية التي قامت عام ١٩١٧ في روسيا أنّ تقسم الفكر الغربي إلى قسمين: فكر غربي مادي وفكرة ماركسي ومن ثم برزت خلافات كثيرة بين النّاسرين بالرغم من امتدادها من الأصل المادي الصرف.

ويرى أرنولد تويني أن الماركسية إنما تمثل «أزمة» في الفكر الغربي المسيحي وعندنا أنها وليدة الفكر الغربي وثورته وتحول طباعي في مجراه ، فقد كان من الطبيعي أن ينبعق من أعمق الرأسمالية في عنفها وجوحها وضخامة ثرواتها دعوة تحمل لوائح الطبقة التي تعمل في الصناعة وأن تسعى هذه الطبقة إلى السيطرة على مصادر الانتاج ، وإذا كانت الرأسمالية تمثل طرف الخليط فإن الماركسية تمثل طرف الخليط من الناحية الأخرى ، وأن كلا المذهبين الاقتصاديين لا بد أن يصدر عنهم مع تطور الزمن وفي ظل حركته الدافمة مزيج وسط يمثل في طور «الاشتراكية» .

غير أن الفكر العربي الإسلامي وقد عرف «العدل الاجتماعي» في فلسنته الأساسية يرى أن الفكر الغربي ما زال يمحي على طريقته في التجربة والخطأ في الدرب الطويل إلى السكالا، بينما لا يرى الفكر العربي الإسلامي جديداً في مفهوم العدل الاجتماعي والاشتراكية باعتبارها مقوماً أساساً وحدانياً في أبعاد فكره.

وفي ظل مفاهيم «الفسكر العربي الإسلامي» الذي يمزج بين المادة والروح في قاعدته

الأساسية تبدو مادية النظرية إلى التاريخ وليس هي العامل الوحيد في حركة التاريخ ، فليست العوامل المادية هي وحدها مصدر تحركات الإنسانية وتطورها ، وأن ثمة عوامل مختلفة ومنها الدين لها أثرها بجانب الآخر المادي .

أما الماركسية فهي تطور فلسق طبقي على النحو الذي سارت عليه الفلسفة الغربية في قيامها على مراحل وطبقات ، وهي مستمدّة أساساً من نظرية هيجل التي تجلّى تياراً من الفلسفة لغربية التي تحمل أساساً وجهات نظر كبيرة حول تفسير التاريخ مختلف عن نظرية ماركس المادية . وفي مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي أن الاقتصاد يمثل جانباً من جوانب تفسير التاريخ وأن هناك جوانب أخرى ذات تأثير لا يمكن إغفالها كالعوامل الفكرية والروحية ، والتي كان لها في الأغلب قوة العامل الحاسم .

ولا شك أن التاريخ من صنع البشر الذين يتأثرون بعوامل كثيرة مختلفة ، ولا يمكن إنكار الدور الذي تقوم به الشخصيات التاريخية العظيمة ، بالإضافة إلى دور الجماهير والطبقات الشعبية في هذه التحولات . ولا يمكن إنكار أثر الشخصية التاريخية التي تقدم شعبها وتقوم بعملية التأثير فالتأثير النفسي الذي يكون مقدمة للتحول .

هذا فضلاً عن أن حتمية التطور التاريخي للإنسان لا يمكن أن تسير في طريق مسدود بين الرأسمالية والشيوعية . ولا شك أن الفكر الإنساني أرحب من هذه الدائرة المغلقة ، ومن رأى الكثيرين أن النظرية الماركسية بتطورها اللينيني والبلشففي ليست هي نهاية الفكر الإنساني ولن ت تكون .

أما « الدين » الذي تنسّك النظرية الماركسية فاعليته فقد لعب أدواراً إيجابية في تاريخ الإنسانية كان لها أثراًها السياسي والاقتصادي والاجتماعي البعيد الذي ، ولا يزال الدين قادرًا على إعطاء الإنسانية وإعطائهما ما ينقصها من المفاهيم الروحية والفكيرية والنفسية ولا تزال رسالة الدين قادرة على رد الإنسانية عن هذا الفلك والتفسّك والضياع الذي تسير إليه بقدم ثابتة .

وقد ظهرت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدّت العقيدة الدينية واتهمتها بتعويق التطور والنهضة ، ثم اندرّت تلك النظم أو تطورت إلى نظم

أخرى ، وبقيت العقيدة كامنة في قراره السلوك الانساني تحفظ الحياة وقيمها الرفيعة خضم القلق والثورات والمحروب . وتلهم الناس أسباب الطمأنينة والثقة بالعدالة الالهية والاستقرار الفساني الاجتماعي .

\* \* \*

وقد قسمت الماركسية الفكر الغربي إلى شطرين يتصارعان اليوم في ميدان السياسة والمجتمع للاختلاف الجذري بينهما حيث تختلف مفاهيم الادية الغربية والماركسية في مختلف المجالات .

وبالرغم من تحول التطبيق البشفي والشيوعي عن مفاهيم ماركس فاتزال نظرية ماركس تتصل قطاعا من الفكر الغربي المعاصر منعزلا عنه ومتصلبا به ، فهي على خلاف مع النظرة المادية الغربية ، ثم مع الوجودية أيضا ونحن على شو فكرنا العربي الاسلامي نظر إلى هذه المذاهب كلها نظرة واحدة : أنها تجاذب وتطورت من أجل البحث عن السكال في المجتمع الغربي الذي يحاول منذ عصر النهضة إلى الآن رسم منهج كامل للانسان والمجتمع وما زال يجرى تجربة منتقلة بين الديقراطية والديكتاتورية والفاشية وبين الرأسمالية والشيوعية .

أما نحن فلنا أساس فكرنا عن الله والإنسان والكون . وعلى شو هذا الأساس ننظر بفكرة مفتوحة إلى كل هذه التجارب ونأخذ منها وندع ، نأخذ منها ما يعطى شخصيتنا قوة وحياة وتطورا واستمرارا في الحركة موك الإنسانية .

ومهما يقول الدين ينظرون إلى علاقة ماركس بنظرته في ضوء نفسيته حيث نجد رجالا يهود يعيشون في جو صراع واضطهاد عنيف لليهود فترك اليهودية إلى المسيحية » وتأثرت نفسيته بخصوصية شديدة للفكر الغربي ومفاهيمه « هذه المفاهيم التي غلبت عليها طابع الرأسمالية وأنه كان يحاول هدم هذا النظام وتدمره .

وإذا كان ماركس شأن بي جنسه يعيش في عزلة تامة عن المجتمع مما يدفع علماء النفس إلى اتهام ماركس بأنه كان مجنونا فأنانيا موسوسا بالغزور والحتقان والغيرة . يعتقد على الشهورين ويتمى أن يكون ذات الصيت ومن هنا أخذ وجهة نظر جديدة مثيرة تحمل لواءها ودعا إليها مهما يكن من قيمة هذه الآراء ، فإن نظرية ماركس كانت ذاتاً عميق وبعيد المدى في الفكر الغربي خاصة والفكر الإنساني عامة . وفي بروتوكولات صهيون تصور آخر لفلسفة ماركس .

## ٢- نظرية العدم (الوجودية)

دفعت الحرب الفكر الغربي إلى التطرف في تزعمه المادية ، وأعطته روح الفلق والضياع . فقد كان لسقوط أكثر من عشرة ملايين في الحرب الأولى وضعفها من الملاليين في الحرب الثانية أثره البعيد المدى في النفس الإنسانية وبالتالي في الفلسفات والمذاهب السياسية والاجتماعية . فقد زادت فكرة التحلل من القيم والاندفاع وراء الفراغ وإطلاق الذات والشهوات والجنس على النحو الذي كشفت عنه هذه الفلسفات : السريالية والوجودية ، وقد تناول الباحثون الأجانب عيون هذه الظاهرة بالدرس « فكشفوا عن أن الحرب قد خلقت في أوروبا مدرسة فكرية يطلق عليها مدرسة ما بعد الحرب وهي مدرسة المرازم والانهيارات والكوارث » وقد تحولت مثلها العليا إلى أشباح . وفي هذا يقول فولنجانج بورخزت « إننا جيل بلا أمل ، جيل بلا عمق » وبلا مستقبل . إن عقمنا هو المأهولة وجيئنا هو الوحشية ، وشبابنا بلا شباب ، وحياتنا عب من الورق ، فارفة وقابلة للتمزق » .

ويرى بعض الباحثين « أن الوجودية ليست إلا تعبيراً عن هذا الأنحراف ، فإن شباب أوروبا يجد غير اليأس والفراغ والضياع ، واليأس مربع والأمل فم لا يشبع ، هذا الشاب الذي لم يشق بأحد ولا بأي شيء كبير على حد تعبير سارتر . أو ما عبر عنه مارسيل جبريل حين قال : إن الناس يعيشون في ذلك التشريح المخاطف القاتل الذي يحدهاته انفجار قنبلة كبيرة ، وعنده أنت « الحياة » حطام : الوحدة والعزلة والسلبية » « الواقع أنه في ظل نهاية الحرب الأولى والثانية ظهرت فلسفتي السريالية والوجودية .

ظهرت السريالية على أثر الحرب العالمية الأولى وابتعدت الوجودية على أثر الحرب العالمية الثانية . والسريالية تستمد فلسفتها من مذهب فرويد الذي يرى « أن الإنسان في جوهره حيوان كفيف من الحيوانات وأن غرائزه وموته الفطرية وحاجاته المضوية هي الأساس المادي لسلوكه في الحياة » غير أن ضروريات الحياة الاجتماعية وما يحتملها من ديانات وفلسفات أخلاقية قد حتمت تنطيم هذه الغرائز والميول وال حاجات ، وأن خضاعها لا مفر منه

لكي تستقيم الحياة الاجتماعية ، وكثير من هذه القيود يؤدى إلى كبت تلك الفرائز والميول وال حاجات التي تنتقل من عقلنا الظاهر إلى عقلنا الباطن لترسب في جب سحيق داخل النفس البشرية ، ومن داخل هذا الجب تبرز من جديد تلك المكتبات كلاما سُنحت لها الفرصة » ومن هنا أطلق على «السرالية» مذهب مخالف الواقع « فهى بهذا النهم تعمل على تسجيل ما يرد على الخفية من صور على أساس أنها مبعثة من العقل الباطل » بصرف النظر عن مجال هذه الصور أو قيمتها أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية أو منافتها لها .

وهم يعتقدون أن الفن الصحيح هو رسم الانكسارات التي تولد نتيجة التفاعل القائم بين نفعتنا الخارجية وذاتنا المجردة بعيدا عن دائرة المنطق أو توجيه الفنون<sup>(١)</sup> .

ولاشك أن هذه الزرعة الفنية المترعرفة عن أصول الفن نفسه لا تمثل إلا مرحلة معينة هي مرحلة الاضطراب النفسي الذي عم الغرب بعد الحرب العالمية الأولى والذى أزع من نهاية الحياة المتمثلة في فناء الجنس البشري ، ومن هنا فهي دعوة إلى الإسراع بالاندفاع نحو المتعة وإطلاق قيود الفرائز والسخرية بالدين والقيم والأخلاق حيث أنها لا تحول دون فناء البشرية .

أما الوجودية : فقد برزت بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل لأزمة شك في الأخلاق والروحية وقد عجزت عن أن يحولا بين البشر وبين النتائج الخطيرة التي واجهتها البشرية من الحرب ومن ثم فهى ترى أن الدين والأخلاق والقيم قد فشلت .  
ويذهب الوجوديون إلى أبعد مدى في إنكار هذه القيم فينكر سارتر فكرة «الله» ذاتها .

والوجودية نظر بعض الباحثين ليست إلا بثابة احتجاج الفرد على طفيف المجاعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردي في الحركات الاجتماعية ، وتقوم الوجودية على النظرية المادية الخالصة » بل على النظرة الماركسيّة أيضا ، فيقول سارتر أننا نعيش في المادة فيجب أن ننضم للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد .

وترى الفلسفة الوجودية أن العالم هو كل شيء ، وهو الحقيقة الوحيدة ، وعندها أن الإنسان هو أرق الكائنات ، لهذا ينبغي أن يتمتع بوجوده كل الاستمتاع وبطرق لحربيه العنان فيحقق ذاته « باعتباره الله نفسه ، وسيد كيانه » .

وقد صورت الوجودية موقفها من فكرة الألوهية في هذا النص من قصة النباب « لسارتر » :

« سيدي الإله : ما أن خلقتني حتى انفصلت عنك ، وخللت عن نسبتي إليك ، فأنا لم أعد ملكا لك » وليس ثمة في السماه من خير أو شر أو إنسان يستطيع أن يصدر إلى الأوصاف « لن أعود لأنخضع لشرعك ، ولست عمولا على الخضوع لغير شرعي أنا لأنني إنسان » .

ويقول سارتر : « نحن يتأتى في هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه في تعيين المدف « نحن في قلق ، في حيرة » .

\* \* \*

وبالجملة فإن الوجودية دعوة الحرية المطلقة فلا جبر ولا إزام على الأشخاص على اعتبار أنه ليس هناك سلطة غير سلطة العلم والعقل .

ويقول « ألبير السكاي » وهو أحد أقطاب الوجودية أن الفكرة التي تدور حولها فلسفة الوجودية هي اكتشاف أن الحياة بلا معنى ولا هدف ، وأن العالم وجد لكنه يعوٍت فيه الإنسان وليس هناك أي نتيجة لكافح الإنسان ما دام الكون كل جوفه صامتا .

ويقول هيديج : إن الإنسان أسقط في هذا العالم دون أن يفهم لماذا ، ودون أن يزود بشيء لا عن نفسه ولا عن العالم وعن علاقته نفسه وبغيره .

ولكي نفهم « الوجودية » علينا أن نفهم سارتر ، وسارتر كاتصنه أقرب الناس إليه : (سيمون دى بوفوار) تقول إنه يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة ، وهو لا يكاد يهضم أن يكون له مهنة وزملاء ورؤساء « وقواعد تراعي وتنفرض » ولن يكون أبدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا ولم يكن سارتر يرى في الزواج شيئاً عظيماً ، كان فوضوياً أكثر منه ثورياً ، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتقراً .

ويرى قياد الوجودية من دعاة المذاهب الإنسانية أن الوجودية مذهب فلسفي مثالي له طبيعة أخلاقية يعمل على تشكيل الوعي العام. وأن ظهوره في ظروف تاريخية معينة لا يعطيه قوّة الفلسفة الإنسانية الحية وأن سارتر وكافى تحت ستار فلسفة الحرية قد نشر تعاليم الفوضوية القليلة والخليقة واحتقار العلم والأخلاق والدين .

وعندم أن الوجودية تختلف أيضاً مع النظرية المادية التي تحمل المادة سابقة على كل شيء، والفكر جاء تالياً للمادة . وقد وضع جورج الحقيقة الإنسانية قبل المادة لينتهي بالفردية بينما ينتهي ماركس بالمجتمع ، وقد هاجم سارتر في قصته الأولى الفنرة : « الشيمورغية » وقال « أنها آلات مسخرة وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً » .

وقد أطلق كثير من الباحثين على الفلسفة الوجودية ، فلسفة العدم والضياع .

### ٣ - مادية السلوك والتربيـة : (جيمس وديـوي)

تمثل الثقافة الغربية في تيارين كبارين : التيار اللاتيني والتيار السكسوني . وقد تصارع هذان التياران في الشرق العربي الإسلامي صراعاً طويلاً ، ثم لم يثبت أنه بُرِزَ تيار جديد هو التيار الأمريكي المستمد أصلاً من الثقافة السكسونية والذى لم يثبت أن استقل بطبعه المستمد من داخل أعمقه على التحول الذى تقوم عليه ثقافة الأمم والشعوب .

ولتكن الثقافة الأمريكية في أساسها « مادية دارونية » تقوم على أساس نفس النظرية المادية الغربية ، غير أنها تميزت بطبع جديـد هو الفلسفة البرجـاتـزمـية (الذرائع) التي ترى أساسها وقاعدتها في أن البقاء للأصلـح والحقـلـلـلـقـوـة ، وأنـهـلـيـسـ ماـيـعـنـىـ منـاـتـهـاـ حـرـمـهـ العـدـلـ وـالـاـنـصـافـ وـالـضـنـيـلـةـ منـأـجـلـ هـذـاـ المـدـفـ » وهـىـلـذـكـ لـاـ تـؤـمـنـ بـعـاـوـةـ الـضـعـيـفـ العـاجـزـ فـالـحـقـوقـ الـتـىـ لـلـقـوـىـ الـمـكـنـ .

ويرى شارل بيرز أحد مؤسسى الفلسفة البرجـاتـزمـية : أن القضاء على الـضـعـيـفـ وـسـيـلـةـ جـوـهـرـيـةـ منـ وـسـائـلـ التـقـدـمـ وـالـرـقـ ، وأنـ اـحـتـرـامـ الـوـالـدـينـ مـثـلـ نـظـامـ لـاـ تـقـرـهـ الثـقـافـةـ الـبـرـجـاتـزمـيـةـ ، وـالـوـالـدـ لـاـ يـعـرـفـ بـحـقـ وـالـدـهـ عـلـيـهـ فـيـ الـوـلـاـءـ أـوـ الـطـاعـةـ أـوـ الـوـاجـبـاتـ الـتـىـ تـحـتـمـهاـ صـلـةـ الـرـحـمـ وـالـشـيـخـوـخـةـ<sup>(١)</sup> ، هذا فـضـلـاـ عـنـ أـنـ الـبـرـجـاتـزمـيـةـ لـاـ تـؤـمـنـ بـالـنـظـريـاتـ الـاـنسـانـيـةـ وـالـرـوـحـانـيـاتـ . وـعـنـدـهـ يـقـاسـ الـمـسـتـوـىـ وـالـسـكـانـةـ الـاـجـمـاعـيـةـ بـالـدـخـلـ الـمـادـيـ . وـبـنـسـبـةـ النـجـاحـ الـذـىـ أـصـابـهـ الـمـرـءـ بـعـضـ النـظـرـ عـنـ طـبـيـعـةـ الـوـسـائـلـ الـتـىـ حـقـقـهـاـ<sup>(٢)</sup> . وـعـنـدـ الـدـكـتـورـ عـمرـ حـلـيقـ أـنـ النـظـريـةـ الـبـرـجـاتـزمـيـةـ هـىـ الـمـسـؤـلـةـ عـنـ رـوـاجـ أـدـبـ الـلـنـةـ وـالـجـوـنـ فـيـ أـمـرـيـكاـ وـسـيـطـرـةـ عـلـىـ عـنـاصـرـ النـذـاءـ السـكـرـىـ ، فـالـكـاتـبـ وـالـفـنـانـ هـنـاكـ لـاـ يـرـقـعـانـ عـنـ ذـوقـ الـسـطـحـيـنـ . وـيرـىـ أـنـ الـثـقـافـةـ الـبـرـجـاتـزمـيـةـ فـيـ أـصـارـاـهـ عـلـىـ النـوـاحـيـ الـمـادـيـةـ فـيـ السـلـوكـ وـالـحـيـاةـ الـإـنـسـانـيـةـ لـاـ تـخـتـلـفـ كـثـيرـاـ عـنـ الـفـلـاسـفـةـ الـمـارـكـسـيـةـ وـتـسـيـرـهـاـ الـمـادـيـ الـتـارـيـخـ . وـمـنـ أـصـولـ الـبـرـجـيـةـ

أن الحياة العملية المادية هي قاموس الكاتب الأمريكي وأن النن والثقافة الرفيعة هي من قبيل الهراء .

\* \* \*

ويجمع الدارسون لفلسفة البراجاتزم ( التي هي أساس الفكر الأمريكي ) على إخضاع كل شيء لعمل ، فالتشكير خاضع لعمل ، والحقيقة خاضعة لعمل ، ومعيار المعرفة عندها هو صلاحيتها لعمل ، والعرفة نوع من العمل . وهي تذكر وجود القيم المائية والمطلقة والذاتية وكل حقيقة عند أصحاب البراجاتزم لا تقبل على أنها مطلقة .

والبراجاتزم تعارض الدين وعقيدته في الثبات والخلود واللانهائية وتعارض القانون الأخلاق وترى أن السلوك الخلقي شيء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على المعرف . وسيكلولوجية البراجاتزم تعتمد على التفسير البيولوجي « الإنسان حيوان » .

\* \* \*

أما أساس نظرية « ديوى » في التربية فيقوم على فصل الدين عن التربية فهو تلميذ للدارونية والبراجاتزم مما .

وقد أقام ديوى نظريته على أساس مادية داورن وذرائع جيمس وعنه أنه ليس في الكون شيء ثابت لا يتغير ، وهو يأخذ بالتجربة في التربية على أساس قوله « أن مجتمعنا ليس نهائيا » وهو يفصل بين الماديات والمعنويات ، ولا قيمة للأخلاق عنده ، يقول « ليست الأخلاق شيئا مطلقا ولست هناك أخلاق مثل داعمة » .

وغایة التربية عنده ليست الأخلاق وإنما الملاعة بين الفرد والمجتمع . وهنا يبدي عمق الخلاف بين جذور منهج التربية في الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي .

\* \* \*

ويقيم وليم جيمس فلسفته على الإيمان بالواقع الحسي الملموس ، والعمل عنه مقدم عن المعرفة ومن رأيه أن المشاعر تتبع من الجسد وليس النفس مصدر المشاعر .

ويمثل هذا الموقف المادي في الفلسفة الأمريكية ، حيث يرى أن الواقع الملموس هو الواقع المادي .

ويمثل هذا الموقف المادي في الفلسفة الأمريكية ، حيث يرى أن الواقع الملموس هو الواقع المادي .

ويمثل هذا الموقف المادي في الفلسفة الأمريكية ، حيث يرى أن الواقع الملموس هو الواقع المادي .

## ٤ - نظرية الجنس (فرويد)

أسس رأى فرويد ونظريته : إن عقل الإنسان الذي هو مصدر سلوكه الخالق ليس في رأسه وإنما في الغريرة الجنسية . ويقول : أنه إنسان تعس ، لأن أسفله أعلاه ولأن غيري به هي المتحركة فيه وإن كل القيم الأخلاقية والدينية التي أقرّها الإنسانية عبر القرون إنما هي عقد نفسية أو أمراض ، باعثها الأول السكت الجنسي . ويجب التخلص منها لكي تعيش البشرية بدون قيم ولا مثال ، من رأيه أن الإنسان في جوهره حيوان كفيف « من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس المادي الصلب لسلوكه في الحياة ، غير أن ضرورات الحياة الاجتماعية وما صحباها من ديانات وفلسفات اخلاقية قد حتمت تنظيم هذه التراث والميول وإخضاعها لقيود لا مفر منها ، وأن كثيراً من هذه القيود تؤدي إلى سكت التراث والميول وال حاجات .

\* \* \*

وقد وجه الكثير من الباحثين النقد إلى نظرية فرويد وأشار بعضهم إلى إن نقطة الضف في فرويد كعلم أنه أخذ من دراسة نفسيته وطفولته أساساً وقاعدة استهدف بها التعميم للوصول إلى قوانين أساسية .

والمعروف أن « فرويد » يهودي عاش في المسا حياة مضطربة مضطربة فقد عرفت النساء بالتعصب الشديد ضد اليهود ، ومن هنا لم تكن حياته سوية على النحو الذي يجعلها عموجاً صالحاً لاستخلاص نظرية سليمة في علم النفس .

وقد حاول فرويد أن ينتقص إنسانية الإنسان بهذه النظرية حيث ركز على « غرائز الإنسان » وجعلها مقادمة ، وبذلك غلّب حيوانيته أو جانبه المادي على روحه وعقله . وقد كان تأثيره بدارون مصدراً لهذه النظرية بالإضافة إلى أحقاده للذاتية والجنسية على الإنسانية .

وقد أشار فرويد إلى هذا المعنى حين قال : إن الإنسان قد طعن في غروره ثلاث طعنات (الأولى) يوم عرف أن الأرض التي يسكنها ليست مركز الكون والوجود وإنها لا تزيد عن أن تكون جرماً تابعاً للشمس يدور حولها (والثانية) يوم أن أدرك داروين أن الإنسان لا يفترق عن الحيوان في طبيعته وأن كل ما يميزه عنه هو درجة من التطور (والثالثة) يوم أن تبين بالتحليل النفسي أن وراء عقل الإنسان عقل آخر يدفعه حيث يشاء دون أن يعرف عنه شيئاً .

تقوم فلسفة فرويد على (١) حيوانية الإنسان (٢) الحياة النفسية للإنسان تتبع من الجنس (٣) غرائز الإنسان هي التي تحكمه وتسطير على نشاطه ، (٤) الروح لا وجود لها على الأطلاق (٥) القيم خرافية وهي تناقض العقل والنفس والمجتمع (٦) تفسير النفس كأنها من خلال الجنس (٧) الأخلاق والدين ابنة جنسى (٨) من عنده الجنس ينشأ الضمير والدين والأخلاق والقيم المليا في حياة البشرية .

\* \* \*

وقد واجهت نظرية فرويد معارضة من المفكرين والباحثين ، ولم يكن ممكناً أن يكون لها هذه المكانة التي وصلت إليها لو لا أن هناك قوة أخرى كانت تؤازرها وتسهّل من التركيز عليها أهدافاً بعيدة المدى ترى إلى مقاومة المفاهيم الإنسانية والأديان وإذاعة الأخلاقيات والآباء .

فقد أثبتت « يوغ » وهو زميل فرويد وضربيه ، كما أثبتت مكدوجل أن العقل الباطن ما هو إلا خرافية ، ونوقشت فرويد في مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرها في آخر أيام حياته ، وقد عارضه « أدل » في أخطر ما ذهب إليه من أن الجنس هو الدافع ، وقال أن الحرك الأول للإنسان هو حب السيادة والسيطرة والتزوير إلى تأكيد كبراءه وتركيز شخصيته .

وما تزال نظرية فرويد تتلقى معارضة من كثيير من الباحثين كلما تقدم البحث العلمي وقد نبذ كثيير من العلماء نظرية فرويد في العلاج المقل والنفس ، وقال الدكتور ناتان كلارين أنه ثبت فساد النظرية الفرويدية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أنس جنسية

بحثة . ومن رأى أكثر الباحثين أن هذه النظرية ليست إلا معمولا هاما لمقول الشباب وعمرهم في نفوس الشعوب . وقد حللت نظرية ( إيمان بالفافوف ) في الأتحاد السوفيتي محل نظرية فرويد، هذه التي تقول أن البيئة هي المسئول الأول عملياً بسبب الإنسان من أخراج نفسى وعقلى .

وقد أعلن بعض الباحثين أن فرويد كان يتخذ نفسه موزجاً للتجربة التي يدعو إليها ولم تكن هذه النظرية قائمة على أساس تجربة متعددة أو إحصائيات دقيقة ، وقيل إن فرويد نفسه كان غير بأزمات نفسية عنيفة . وقد أصابه الاضطراب وهو يعالج مريضه بالموس الجنسي مصابة بـ «قييدة أوديب» وقد تكشف له خلال ذلك أنه هو نفسه مصاب بـ «قييدة أوديب» وأنه كان يتجه إلى أمه ويفار من أبيه وأنه أياه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة .

ولا شك كان تيارات «اللسانية» في الفكر العربي أثرها في دفع موجة التفسير الفرويدى في مجال الأدب والفن ، ثم لم يلبث أن حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق .

## مفاهيم الفكر الغربي

تمثل نظرة الفكر الغربي إلى الله والحياة والانسان في فلسفات مختلفة تصدر كلها عن مادية الفكر وتميز بالتناقض والتعارض . وترتبط بالأزمنة والأحداث والظروف . ولا تصل إلى الشمول والارتفاع فوق الأحداث والظروف .

فالماركسية ظهرت بعد أن استفحلت الرأسمالية ، والوجودية ابعت في ظروف تأثير الحروب الخطيرة .

هذا فضلاً عما وسم به كثير من هؤلاء الفلاسفة باضطراب القوى النفسية فقد جلت دراسات تراجم نيتше وفرويد والبير كاي وسارت كثيرة من عوامل الاضطراب النفسي الذي كانت في الأغلب مصدر نظرتهم إلى الحياة .

ومن هنا تبدو أن أغلب هذه النظريات أو الفلسفات ليست إلا وجهات نظر فردية وشخصية لفلاسفيين ممتازين في ظروف وهيئات وعمرات وأحوال معينة أو تأثيرات مطالعات أو أحداث عالمية أو خاصة . ومن هنا تبدو نظرتها المحدودة، بمحدود الزمان والمكان الذي ظهرت فيه وهذا ما يجعلها تختلف عن النظريات الإنسانية الشاملة التي تبدو صلاحيتها للأزمان والبيئات المختلفة .

وما زال الفكر الغربي يحرى عشرات التجارب في مجال الفلسفات ونظارات الحياة في سبيل الوصول إلى «منهج» أو «أيديوبيا» صالحة ، غير أن استعداد أنسن هذه الفلسفات من النظرة المادية الحالمة قد حال دون وصولها إلى ترعة إنسانية شاملة صالحة لأزمنة وأمكنة متعددة .

ويختلف الفكر العربي الإسلامي مع الفكر الغربي في هذا المجال في أنه يتمثل في نظرة

قدرة امتراج الكل وإلقاء الأجنحة المختلفة والأجزاء المقابلة . وبينما يتسم الفكر الغربي بروح الجزئية والجناح الواحد ، في أقصى اليمين أو أقصى اليسار » يحمل الفكر العربي الإسلامي طابع : الوسط ، الكل ، الإنقاء ، الامتراج ، ومن خلال عشرات المذاهب الفلسفية الغربية تبدو النظرة إلى الحياة معاصرة لطابع الفكر العربي الإسلامي أساساً .

خلاصة مذهب «دور كايم» أن الفرد لا قيمة له ولا معنى بالنسبة للحرية الفردية وأن التيم كلها المجتمع الذي يخلق الأديان والمقائد والأداب والقيم . وعندة أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الإنسان ، وأن نقواعد الخلقة لا وجود لها في ذاتها ، وقد اعتمد «دور كايم» في مذهبه على الماركسية والداروينية مما ونقل أرائهما من مباحث الإقتصاد والعلم إلى مباحث الاجتماع والأخلاق ، وخلاصة رأي «نيتشه» هو نقض الديانات التي تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشري وحماية الضييف . فقد حل على المسيحية ووصفها بالسلبية » وقال أن أخلاق المسيحية تعارض بقاء الأقواء (الصقور) وتصدم عن حقهم الذي تنطق به الطبيعة ، وهو أن الصقر يجب أن يأكل المصفور .

وقد دعا نيشه إلى إغفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية ووصفها بأنها أخلاق الأذلاء . وتمثل هذه النزعه المادية في دعوه بتراندسل إلى مهاجمة المعتقدات الدينية فهو يعلن بصرامة مريمة أنه ليس مسيحيًا وبهاجم العالم الدينية الخاصة بالجنس ، ويرى أن تعاليم المسيحية لا تتفق مع منطق العلم » ويقول أنه لا يؤمن بوجود حقيقة مطلقة ، ويدعو إلى التحرر الجنسي ، أما «لورنس» فيرى أن الحصارة الدينية قد قفت على عناصر السعادة الفطرية في الإنسان وأنه لكي تسترد السعادة علينا أن نعود إلى الحياة الطلاقة المفرأة ، حياة الغابة .

ومن خلال نظريات فرويد في (النفس) ووليم جنس في (الأخلاق) وماركس في (المادية التاريخية) ولورنس في (إطلاق الجنس) وديوي في (لادينية التربية) تبدو صورة الفكر الغربي المعاصر في أبرز مسأله وقضيته .

\* \* \*

ومن أبرز ظواهر الفكر الغربي موالاة التجربة في سبيل وضع فلسفة اجتماعية صالحه

لبناء المجتمع . وقد استعرض عشرات الفلسفات في خلال أزمته الطاحنة بين الفردية والجماعية ، مما لم يتحقق له بعد السعادة أو العدالة المنشاء .

ونحن في العالم العربي والإسلامي أصحاب فكر له طابعه واستقلاله ، لانزى أساساً من دراسة هذه المذاهب والفلسفات بروح حرية قوامها فهم الفكر الإنساني والافتتاح بما فيه من جوانب القوة دون أن تكون مقلدين أو تابعين وهم قدير كاملاً بأن هذه المذاهب قد قامت في ظل مناخ فكري مختلف عن نظرتنا للأمور وطريقة معالجتها وأنها تستمد أساسها من واقع مقومات فكر تلك الأمة .

بل لعله ليس من المحبوب أن يكون لدينا حاول لشأ كل الغرب نفسه ، تستمد أساسها من تجربة فكرنا ، الذي لم يمتنن زرارات بالقلق والحيرة ، والضياع .

بل إن مشكلة الغرب الكبير وهي ؟ « الفردية والجماعية » التي ما يزال يضطرب لها الغرب منذ ابتكار البخار حتى الآن ، يجد الفكر العربي الإسلامي حلها التجربة المستمد من سلوك الإنسان وأخلاقه ومقومات فكره وروحه .

وقد عاش الفكر العربي طويلاً وهو يجرى تجربته الضخمة المتعدة المراحل في سبيل الوصول إلى ارساء قيم أساسية جديدة ، عاش منذ أفلاطون إلى سارتر يحلم ببناء الشل الأعلى في مجتمع عادل سعيد ومع ذلك فإنه لم يصل بعد .

ولو أنه نظر نظرة بعيدة عن المهد أو التمتع إلى الفكر العربي الإسلامي لوجد فيه حاجته وحاجة الإنسانية كلها ، غير أن هناك عوامل ذات ثروة كبيرة تحول بينه وبين هذه التجربة ، فإذا ما أتيح إلى الشرق بالحثّ عن سناد روحي للحضارة حولت هذه العوامل وجهته إلى فلسفة الهند والصين الروحية الصرفة وتنكب ما في طريقه من جوهر الفكر العربي الإسلامي الذي عزّز فيه الروح باللادة .

\* \* \*

والواقع أنه لا يمكن النظر إلى النظريات والمذاهب الأفكار بغيره من بواطنها وعوامل ( م — ° الفكر العربي المعاصر )

دفعها إلى الحركة والتأثير في الفكر بالقوى ذى الفاعلية . ولاشك أن أكبر النظريات التي وجدت قوة في دفعها إلى التفاعل والحركة والحياة هي نظرية دارون ومذهب فرويد وفكرة ماركس عن التفسير المادى للتاريخ .

وبالغم من أن الدارونية الجديدة التي قال بها « هكلى ». قد دعست نظرية دارون إلى الإنسان وعارضت رأيه في تطبيق تجربة الحيوان عليه فقد مضت هذه النظرية تشق طريقها في قوة .

وكأن نظرية فرويد التي تقول بأن الفريزة والجنس هى أساس تصرفات الإنسان ودوافعه قد عورضت بنظرية زمليه أدلر ويوخ ، فإنهما تسللت بقوة إلى الآداب والفنون وأصبحت بعد زمن غير قليل أساس سخن من أساس الأعمال المختلفة في مجال القصص والرواية والمسرحية ، وعندى أن هذا يرجع إلى الدوافع ذات الفاعلية التي كانت قادرة على مظاهر هذه النظريات وتأكيدها واستهداف غرض سياسى أو بشري بعيد المدى في هذا الاتجاه ولعل نصوص بروتوكولات صهيون تفسر ذلك وتكشف عنه .

ويعكن القول أن أساس الفكر الغربى قد قام على هذا النحو :

✗ تحية القيم الروحية والأخلاقية ؟اماً - لأنها بحكم العالم التجربى - من الأمور غير الملوسة .

✗ المشكلات الفكرية العامة التي تعنى الإنسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الإنساني ومن غير معاونة من شى خارج عن العقل كالضمير أو الروح مثلا .

✗ لم تتخلى الثقافة الغربية قط عن فرديتها ووثنيتها وتمصبهما على غير الجنس الأبيض والآرى والأوربى والغربي من أجناس وأمم .

✗ الثقافة الغربية ترى إلى خدمة الإنسان من حيث هو بشر ، وترى إلى خدمة الإنسان الغربى قبل غيره وعلى حساب غيره .

✗ المخصوصة الواحمة العميقه للألوهية والروحية والأديان .

✗ طبق دارون وفرويد وماركس ودور كايم نظريات علم الحيوان على الإنسان ، وكانت

فاعدتهم هي أن الأخلاق ليست قيمة ولا ذاتية ولا ثابتة ، وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه وأن المجتمع هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان .

× تحمل حضارة الترب عدها لأهلها ونقاوتها لأهلها تنظر إلى غير أهلها من الأجناس  
« البشرية نظرة العبيد والأنبياء » .

× لم تهذب النفس البشرية ولم تخف ما للإنسانية من أثره وشهرة بل زادت هذا قوة ،  
وهي جملة الترف والرفاهية هدفها .

\*\*\*

ومن خلال هذه النظرة الموجزة الشاملة للفكر الغربي في شطريه المادي والمادكى  
تتجمع النظريات التي يقوم عليها أساس هذا الفكر ( دارون ولورنس ، ماركس ، فرويد ،  
دور كايم ، سارتر ) على أن الإنسان حيوان ، ابن للصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده ،  
ولا هدف ، ولذلك فلا معنى للحياة الإنسانية رلا الشلل العليا الإنسانية ، وإن الحياة  
تحبط بخطى عشواء في تطورها بما في ذلك الإنسان ، وإن الحياة باطل ، ليس فيها إلا الماءع  
والجنس ، وقد زاد من تمييز هذا الرأى ، حربان عاليتان كبريان <sup>أ</sup> كات الملايين ، مما دفع  
الفكر الغربي إلى الدعوة إلى حرية العمل وإطلاق الحركة والتصرف ، دون قيد  
من دين أو إيمان بالله ، ومن هنا ينبع الخلاف الجذري الضخم في القيم والفاهم والأسس ،  
بينه وبين الفكر العربي الإسلامي الذي يرى الإنسان إنساناً وليس حيواناً وقد رفعته  
الأديان إلى مكان لم يصل إليه مخلوق غيره ، وحفلت بتأكيد إنسانيته وحياته .

ولعل وحده الخلاف هو مادية الفكر الغربي أساساً بينما يتمثل في الفكر العربي الإسلامي  
قدرته على المزاوجة المتفاعلة بين المعاصر والقيم المعنوية والمادية .

وعندئذ أن القيم المعنوية ثابتة الجوهر ، متطورة الظاهر والشكل ، تتحرك مع حركة الحياة  
دون أن تخلي عن جوهرها . أما القيم المادية فهي ثابتة ولكنها تظل مرتبطة بجذورها  
الأصلية لا تنفصل عنها .

فهو مما تطور لا يحيط به الأسرة ، ولا يجعل البحث عن الطعام هدف الحياة

ولا يستبيح الوسائل في سبيل المغابط ، وتنظر قيم الدين وإنسانية الإنسان قائمة أصلًا .

\* \* \*

ولا شك أن هناك خلافاً جذرياً بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي في أمور كثيرة وجوهرية :

١ - «العقائد» وتمثل في إشكال الألوهية والاديان وجعل المادية أساساً لـ كل القوى .  
يلهؤمن الفكر العربي الإسلامي أساساً بالله والأديان .

٢ - «الإنسان» ويتمثل في فهم الإنسان على أنه سيد الكون وسيد نفسه .  
ويرى الفكر الإسلامي أن الإنسان سيد الكون ولكن تحت حكم الله .

٣ - حرية النراز ويرى الفكر العربي الإسلامي وضم نظم وقيود لهذه النراز من أجل  
حياة الإنسان والمحافظة على قوته وقيمه وهدفه الأكبر في هذا: ترقية النفس الإنسانية والسمو بها .

ومن هنا تقوم أساس الفكر الغربي على قواعد ثلاثة :

٤ - إقامة الحياة كالماء على أساس لا ديني (Sorular) .

٥ - التصور المادي في في الفكر والحياة .

٦ - التخلل من كل القيم والأخلاق .

وقد امتد أثر هذه النظرة وتغلغل في مختلف المفاهيم : في مجال السياسة والاقتصاد وعلم  
النفس والأخلاق والتربيـة والفن .

\*\*\*

أما الفكر العربي الإسلامي فقد أقام مفاهيمه على أساس امتزاج الروح والمادة  
والاعتراف بالألوهية ، وقامت أساسه على أساس الترابط والامتزاج بين العلم والدين ،  
والدنيا والآخرة وبين الجسم والروح « بين الواقع والمثال .

ومن شأن هذه المفاهيم أن يحول دون الانقسام بين جوانب الجهة الفكرية في الاقتصاد

والسياسة والاجماع والدين ، هذه الجوانب التي تلتقي في آتجاه واحد هو النفس البشرية وتراثها ، ومن هنا تبدو المشاكل أو الفضايا وهي تعالج عجزنة منفصلة بين علماء النفس أو الأجماع أو التربية ولكنها تدرس موحدة . ومن هنا تبدو حياة العمل والفكر والمجتمع حتى تقويم جميعها على أساس الامتناع والتناسق والسلامة . وبالمثل فإن الفكر العربي الإسلامي لا يرى أن هناك ما يسمونه النظرية الدينية منفصلة عن كافة القيم مجتمعة .

وكان الفكر العربي قد حاول بعد أن فصل الدين عن الفكر والحضارة أقامه دين جديد يقوم على المفاهيم المادية ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى ما أطلق عليه : « ديانة الإنسانية الجديدة » ومقوماتها إنكار البث والخلود وجود الله ، والدعوة إلى اتباع الفضائل لترقية حياة الإنسان بقطع النظر عن العقيدة التي تقول بوجود الله . وعندئذ أن وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية لأنه إذا عدل الإنسان ما هو صالح في هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه سواء أكانت له روح خالدة أم لم يكن ، ولا شك أن هذه الديانة الجديدة ليست إلا محاولة من المحاولات التجريبية التي أجرأها الفكر العربي لتنطعية الفراغ الروحي التي فقدته النفس الإنسانية من تبعيتها للنظرية المادية الخالصة .

وقد أثبتت فشل هذه الديانة مدى اضطراب قواعدها وقيمها على أساس إنكار الألوهية التي هي الفارق الأول والأساسي بين الدين والإلحاد .

نقص هذه النظرة :

وإذا كان الفكر العربي قد قاوم الدين وتحاه ، فإنه قد أحس بمحاجته إلى بديل له يستمدّ به عنه وقد تتمثل هذا البديل في ١) أكثر من محاولة في (١) العلم . (٢) المذاهب الشاملة كالقومية والاشتراكية والديمقراطية . (٣) علم النفس .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعها في أن تعطي الحضارة الغربية بسلماً جراحتها أو علاجها للأذمته ، هذه الأزمة الروحية أساساً ، والتي كانت مصدراً لذاهب القلق والفراغ والضياع .

يقول « لاسكي » : من قرن مضى كان في مقدور الدين أن يقدم للسكثرين الأمل في تعويض ما فاتهم من الحياة وذلك في الحياة الأخرى ، أما اليوم فقد أطفأ العلم أنوار الحياة

ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل . ومنذ قرن مضى رأى الناس بأفق أمل في الطاقة الصناعية الجديدة والآن وبالغم من مزاياها الهائلة يتضمن أن الطاقة المادية التي تستدعي أن تشكل الطبيعة خدمة أغراضاً دون أن يساندها مبدأ ما ، لن يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف .

وقال : أن الإنسانية حاولت أن تلتقط <sup>in</sup> بعض المذهب الشاملة الكلمة ( totalisme ) شيئاً يكون ديناً أو كالدين ، غير أن القومية والديمقراطية والفاشية والماركسية لم تستطع أن تسد في قرن أو قرنين مسد الدين الذي أشبع المقول والقلوب عن قرون وقرنو .

ثم عاجلت الحضارة الفرنسية بعض أزماتها في ميدان ( علم النفس ) في محاولة لسد الثغرة الروحية في بناء المضمار المادي بعلم يسير في مفاهيم العلوم التجريبية المادية يسير على مفاهيم العلوم التجريبية المادية » ونجح علم النفس حين تواضع . وأتحقق حين جمع ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جطيداً . وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى القرن الناشر ، إلى الدين .

\* \* \*

وفي ظل موقف الفكر الغربي من الوثنية الاعرقية والنظرية المسيحية التي كونتها الكنيسة ، كون رأيه في ( الدين ) ورأءه أضيق من أن يستجيب لحركة العلمية وتلتطوره . بل رأء يقف أمام حرية فكره ، فتحاه وحول عليه . ذلك أن صورة للدين التي واجهته أوروبا لم تكن إلا مفرقة في الرهبانية والسلبية وإنكار الحياة . ولم تكن أيضاً سوى مفاهيم غيبية لا تقوم على أساس المقل ولامرأة النهن ولا تعطى الروح حاجتها ومن هنا أخذ الفكر الغربي يقيم دينه الخاص ، « دين البشرية » كبديل للمسيحية ومضي يعلى من شأن الطبيعة فالمعلم التجربى ، حتى بلغت النظرة العدلية حد « المادية الخالصة » الممزوجة بالإلحاد واللادينية » أو ما يطلقون عليه اسم الملاينة » وهو تحرير الحكم والفلسفة والشريعة والاجتاع من نظرة الدين كما تبتلت لهم .

وهذا هو أفكار الفكر الغربي النظرة الصوفية الزاهدة المطلقة التي وجدتها في المسيحية التحولية إلى المادية الخالصة .

وكا تحوّلت علوم الفن والفلسفة والإياع والتربّيه في ظل المادية عن الدين فقد تحول الفن فإذا كانت آثار ذلك على الفن نفسه . يحاول تولستويف أن يصور هذا الأثر حين يقول : أن الأديان تقدم أى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في فهمه للحياة في أي عصر من العصور » وفي أي مجتمع من المجتمعات ، لذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدّر العواطف الإنسانية ، فإذا كانت الشاعر التي يشيرها الفن تقترب من الشّل الأعلى الذي يشير إليه الدين وتجاريّه ولا تناقضه فهي مشاعر صالحة ، وإذا كانت تناقضه وتُمارضه فهي مشاعر رديئة . لقد أبجح الفن إلى طلب التّمة في أوروبا لضعف العقيدة الدينيّة الذي غالب على الأوروبيين وببدأ منذ عهد أحياء المأوم ، وهذا الاتجاه قد حرم الفن الموضوعات الدينية المعيقة وجعله يُنزع إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس ، وهي الطبقة الأرستقراطية » وقد فقد الفن من جراء ذلك مجال الصور ، وغلب عليه القمّوس والتّكلّف وسار فنا متكتّماً غير طبيعي ، وأن أعراض الفن عن تصور العواطف المبنية من الإدراك الحسي الذي جعله يتجه إلى طلب التّمة ، والتّمع الإنسانية لها حدودها التي ألمّتها الطبيعة في حين أن تقدم الإنسانية الذي يصحّبه ويردّه الإدراك الحسي الذي ليس له حدود ، والإدراك الحسي يتّجدد كلّاً تجددت علاقتنا بالعالم من حولنا » ومن هنا يجدوا الخلاف واسحا وجذرياً بين الفكر الغربي وبين الفكر العربي الإسلامي . فالتفكير العربي الإسلامي يقف موقفاً وسطاً فيجمع بين المادية والروحية والعقل والقلب والدين في مزيج متّفاعل . وفي نفس الوقت يرفض النّفارة المادية الخامسة والصّوفية الخامسة ، وليس للإسلام كاپريوس ولا كنيسة ولا رهبانية ولا رجل دين » وإنما عالم دين متخصص في أمور الشرعية والفقه .

ولم يقف الفكر العربي الإسلامي أمام العلم أو التّطوير أو حركة الحياة موقفاً الجمود » بل كان داعماً قادراً — في تاريخه كله — على التّفاعل والاستجابة والحركة » ومصدر قوته هي في هذا المزيج التّفاعل . والدين عنده مرتبط بالحياة ، فيه الإيجابية والقوّة والدافع إلى العمل والبناء والقدرة على المقاومة المبدان ، وفيه المزيج بين الجد والفكاهة .

## اليهودية والفكر الإنساني

يمكن القول بأن الفكر اليهودي قد أخذ طابعاً جديداً بدعوة «هرزل» وكتابه «الدولة اليهودية» هذا الفكر المتمدد منذ ظهور اليهودية قبل المسيحية بأكثر من ستة قرون والذى كوتته التوراة ، والتلמוד ، ثم أضيف إليهما بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ «بروتكولات صهيون» ولا شك أن أبرز ما يؤثر في طابع الفكر اليهودي هو الإحساس بالاضطهاد الذى واجهته اليهودية على المصور وخاصة اضطهاد المسيحية لها . ومن هنا كان صراعها الأول مع المسيحية والحضارة الغربية والفكر الغربي .

ولقد طبع هذا الإحساس بالاضطهاد كل آثار الفكر اليهودي الذى امتهن منذ عصر النهضة بالذكر الغربي ولم ينفصل عنه ، بطبع المقدى على المدينة والإنسانية » يتتمثل ذلك في مختلف الآراء التي أوردها في كتبه أمثال رومان رولان وماكس نوردو ، ونظريات ماركس وأنجاز فرويد ودور كايم وهي النظريات التي وجهت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وتركت فيها آثاراً لا حد لها ، والتي كانت في مجموعة تهدف إلى تزعزع إنسانية الإنسان ورده إلى غرائزه وفتح الطريق أمام دوافعه الجنسية ودفعه إلى الحرية المطلقة وتدمير كل القيم والنظم في مجال الدين والأخلاق والمجتمع ، والقضاء على تزارات الخير والمعدل والحق .

فقد صدرت هذه الدعوات وهذه الأفكار من ثقوس مضطهده تحمل طابع رد الفعل متمثلاً في المجموعة للحضارة والجنس والدين ومحنة بشعار الاضطهاد ، بل إن هذه الشخصيات التي تصدرت مجال الفكر وأوجدت لها اليهودية العالمية مجالاً ضخماً لنشر آرائها وتوصيم دائرتها في مجال الأداب والفنون والموسيعات العالمية ، هذه الشخصيات عندما تدرس يوجد لها من أخلاقها النفسية والمقولة ما يدفع إلى الشك في استواء فكرها وعجزه على فهم الإنسانية والإيمان بها والعمل من أجل إسعادها .

ومن النظرة إلى التلמוד ، وعصراته في «بروتكولات صهيون» تكشف النظرة اليهودية إلى الفكر الإنساني وإلى الحضارة وإلى الإنسانية في طورها الحديث المسمى «بالصهيونية» ، هذه النظرة التي تدفعها أهداف عميقة بعيدة المدى في السيطرة على العالم والإنسانية على أساس

مناهيم اليهودية بأنها شعب الله المختار ، وملح الأرض ، والأمة الفضلى ، وبأن كل ما سوى اليهود عبيد وأن العالم كله مسخر لخدمتهم .

ويتصل بالتلמוד وبروتوكولات صهيون ، تلك الجماعة الفاسخة البعيدة المدى : «الماسونية» التي نفذت منذ مئات السنين إلى كل المجتمعات وأقامت محاكمها الفاسخة في الشرق والغرب وفي العالم الإسلامي وضحت إليها عظامه هذه الأقطار وحكامها واستطاعت أن تسيطر وأن تفرض سلطتها سرًا وتندى رغباتها .

ويتصل بهذا فريق «الدونة» الذي أسلموا في عهد السلطان محمود في تركيا لينجوا من اضطهاد رؤسائهم والذين أقاموا في «سلانيك» منعزلين عن المسلمين مؤرثين فيهم بالتفوز الفكري والمالي وقد نسب إلى هذه الطائفة عدد كبير من أبرز حكام تركيا ودعاة الحرية والدستور والتغريب والتفوز الأجنبي بها . ومن هؤلاء جاود بك وزير المالية الذي استطاع أن يقذف بأكمل عدد من الدونة إلى كبريات المناصب ودوائر الحكومة ..

ولا سبيل إلى معرفة أثر اليهودية في الفكر الإنساني إلا بالنظر إلى دورها الضخم الخطير في مجال السيطرة المالية والاقتصادية في العالم كله وتفوذه الواسع في الولايات المتحدة ومن قبل في بريطانيا وأعمالها ذات الأهمية في مجال العلم التجاري والذرة والصواريخ والقنابل المدروجية فإن أسطلين هذا العلم في أمريكا وروسيا على السواء من اليهود ..

وقد عرف اليهود بذلك المجتمع المحدود بهم ، وهذه العزلة عن البشر ، باعتبار أن دينهم ليس دينًا عاما وإنما هو دين خاص ، وقد كان لهم أثر ضخم متصل في تطور الحضارة الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم ، هذا الأثر الجذري المتدرج بالحضارة الغربية في مختلف فروعها الفكرية والتجريبية حتى يمكن أن توصف هذه الحضارة بأنها حضارة مترجة : ( مسيحية يهودية ) .

غير أن دورهم في الحضارة وهم أهل المال والربا كان بعيد الأثر في دعم الجانب التدميري للأخلاق والقيم ، ويجمع الباحثون على أن التجارب الاقتصادية والاجتماعية قد كشفت عن أن البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التماطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والمدل .

ولاشك أن طابم اليهودية في الحضارة الأوروبية واضح ، وهو الصراع على المطامع المادية ودفع موجة حيوانية الإنسان والقتاء على الدين والأخلاق كوسيلة للعمل على تدمير المسيحية والقتاء على الإسلام وتنقيب اليهودية ( ديناً وجنساً ) وأدأه ذلك فتح الطريق أمام الحرية المطلقة وتدمير القيود الأخلاقية والاجتماعية والدينية ليست وسيطه عن طريق أشرطة الصور المتحركة ، واحتزاع الرقص الخليع بأ نوعه ، ومسابقات المجال و اختيار ملكات المجال ، ونوادي العراة .

ولكن بتعويق هذا الاتجاه تعميقه و تحويله إلى عقائد عن طريق دراسات الفسكون عن طريق النظريات العلمية الموضعية بدقة وفق مناهج البحث العلمي وفي مقدمة هذه نظريات لورنس وينتشه وهافلوك أليس ، ووليم جيمس وماركس وديوي وفرويد ودور كايم ، ثم في مجال الأدب العالمي : ماكس نوردو ، وهو تيان وتمسان مان ، ومورد .

وقد دعت كتابات هؤلاء كنابات جوزيف كيسيل وموريس ديكورا وغيرهم إلى عبادة اللذة والشهوة والحبون ونشر حرف المخون وقصص الدعاارة والصور العارية واعتبارها من أروع أعمال النّن ، ونشر أخطر الكتب المخطورة على أذهان الشعب ، وأفلام الجرايم وقصصها ، ونشرها تحت ستار التحقيق الجنائي ، وذلك كله للتبرير على افتراضها وتوجيه الجماعات إلى التخلل من كل القيم والخلق والفضائل والأدان .

\* \* \*

× هدم الحضارة : وبيّن كثيرون من الباحثين الغربيين أن اليهودية تأسّس على الحضارة ، يقول بيلمان في كتابه « اليهود المعاصرون » لقد حاول اليهود أن يهدمو حضارتنا فقضية دريفوس علّتنا كثيراً من دأب اليهود على إتّقاد رجاتهم مما كلفهم الإتّقاد من مال وجهد . دفع روشيلاد أكثر من مليوني جنيه في قضيّاً دريفوس ودفع بيت روشيلاد عشرة ملايين روبل ذهباً لإتّقاد بوصوف اليهودي الروسي ويرى بيلمان : أن فرويد خلق الإيابحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية وبعد الغريرة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلن بحسبها ما شاء الشبق الكامن في حنابها ضلوعهما » فالهتك الجنسي لا حد له في رأيه ، والولد ينمار على أمه من أبيه ويد لو يعوت الوالد ليحل محله ، أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتصاب وعلاقة الجنس .

أما توماس مان فقد برر عشقه لـ(الموت في البندقية) ووصف مرضي «الصدر» كحيوانات مماثلة تتخذ من يأس الشفاء عنراً للتساند، فصحاحات الجبال مواخير المرض تحت صراقبة الأطباء الذين لا يملكون منهم (قصته الجبل المسحور).

ويصف الباحثون الغربيون اليهودية العالمية (ممثلة في الصهيونية) بالحقن على الإنسانية والانحراب، وأن اليهودية لا تخلق حركة اجتماعية على إطلاقها ولكنها لا تكاد ترى حركة تندفع حتى تسارع إلى استغلالها وتجهيزها إلى ما يخدم مصالحها، وتحاول بعض الفسكون أن يستشهد بنصوص التوراة والتلمود بروتوكلات صهيون التي تصور في صراحة وجراة منطقة «اليهودية» في تدمير الإنسانية فالتوراة تقول: «لست جميع الناس وبحيا إسرائيل وحده» يرفقك الله فوق جميع الشعوب في الأرض و يجعلك الشعبختار المقدس» وفي التلمود «يا ياح لإسرائيل انتصاف مال أى كان، وأن أملالك غير اليهود كانال التروك يحق اليهودي أن يقتلك». وكما أن بني الإنسان يسمون على الحيوانات فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جيما»

× صراع اليهود مع المسيحية: وقد وجّهت اليهودية إلى المسيحية حملة ضاربة تبدو واضحه العالم في التلمود وبروتوكلات صهيون فقد أشار التلمود إلى ما أسماه ولادة المسيح غير الشرعية، واستعماله للسحر، كهاجم الكنيسة والقديسين والأسرار، هذا فضلاً عن عشرات من المؤلفات التي تطعن المسيحية والمسيح والكنيسة، ولا شك أن هذه الخطوط الوابسعة التي خطتها اليهودية في سبيل السيطرة على الحضارة الغربية والفسكون الغربي قد حققت نتائج خطيرة، فاليهود هم الذين صنعوا الماركسية أساساً ودفعوها إلى الأمام، وفي بروتوكلات صهيون إشارة إلى ذلك «البولشقة بنت اليهودية»، ترعرعت وشب في أحضان اليهود حتى اخْتطفها ستالين من أيديهم»

وقد كشف إميل أنتورى في كتابه «مؤامرة اليهود على المسيحية» عن النصوص الخطيرة في بروتوكلات صهيون للفضأ المسيحية والسيطرة على الحضارة الغربية وإشارة اليهودية إلى تأييدها لنظريات دارون ماركس ونيتشه: «لاحظوا أن نجاح دارون وماركس

ونيتشة قد رتبناه من قبل ، وأن الآخر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم في السكر الأعمى (غير اليهودي) سيكون واضحًا لنا على التأكيد .

كما أشارت البروتوكولات إلى الثورة الفرنسية «اذكروا الثورة الفرنسية التي تسمىها «السلكى» إن أسرار تظامنها التمهيدى معروفة لنا جيدا لأنها من صنع أيدينا».

أما المسيحية فقد وجّهت إليها البروتوكولات نبرومات خطيرة. «لن يطّول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية ببدأ انهياراً تاماً. وسيبيّق ما هو أيسّر علينا للتصّرف مع الديانات الأخرى» وقالت البروتوكولات «حيثما يحيّن لنا الوقت كي نحطّم البلاط البابوي بحطّامها تاماً فإنّ بدأ بجهولة مشيرة إلى الفاتيكان ستعطى إشارة المجموع وحيثما يقدّف الناس، أثناء هياجهم، بأقسامهم على الفاتيكان ستنظّر نحن كحّامة له لوقف المذابح. بهذا العمل سننفّذ إلى أعمق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوّة على وجه الأرض أن تخربنا منه حتى تكون قد دمرنا السلطة البابوية.

ولن نهاجم الكلاس القائمة الآن حتى يتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة، ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن طريق فقد الذى كان وسيظلل ينشر الخلافات بينها».

\* \* \*

وفي ظل هذه الآراء ظهرت الحركة المضادة (اللاسامية Anti - semitism) التي يقوم بها الفكر الغربي باعتبار اليهودية قوة مخيفة تحاول تدمير الحضارة والسيطرة على الفكر البشري . ويحاول الفسكوني بأن يفهم الفسكوني اليهودي بالسطحة ، ويقول مستشرق ألماني أن السامي لا لذة عقلية عنده « ولا نسبيه الطبيعية » ، ولذا لم يبرز في العلوم الطبيعية ولم يكتشف شيئاً من أمراء الكون الطبيعية . وأن الخلق السامي أثاني فرد لا يخضع لزمامه ولا ينظم في نظام .

ولقد عملت الكنيسة على اضطهاد اليهودية وتابع ذلك اضطهاد سياسي وعرف داعمًا ما يسمى بمحى « الجتو » وهو الحى اليهودى الرهيب فى المدن الأوروبية الكبرى الذى يجبر اليهود إلى الإقامة فيه .

واستطاعت اليهودية كرد فعل لذلك إلى التغلل والتسلل إلى جهات الثقافة والفنون والتأثيل والموسيقى والصحافة والمحاماة والطب والنشر حتى أصبح قوتها كبيرة ويعيد المدى « هذا النفوذ قد ارتبط فعلاً بالحركة الصهيونية التي حلّ لوادها « هرزل » والتي استطاعت أن توجه أبحاث التاريخ والموسوعات العالمية على النحو الذى تريده اليهودية فأجبرت تحريرات لاحظ لها للإسلام وتاريخه ومفاهيمه وإلى العالم الإسلامي واللغة العربية .

وقد أتسع هذا النفوذ حتى أصبح يمثل شبه سيطرة كاملة على جوانب الفكر الغربي كله » وقد انقسم فلاسفة يهود يحملون في أعماقهم مطامهم وأحقادهم فكان لهم أثراً مثالاً سينيوز وهيفي ومندلسون واستطاعوا أن ينتفعوا بالمقاعد الجديدة : كالديمقراطية والاشتراكية التي حققت خلاصهم من العزلة .

وبالرغم من حلات المفكرين على اليهود كقول تشرملن إن اليهودي غريب عن الحضارة الغربية لأن روحه لا توافقها ، فإن اليهودية استطاعت أن تسيطر عن الفكر العالمي والحضارة الغربية وأن توجهها وجهة خطيرة ، فقد كان لها دورها في فرض عوامل الإلحاد والإباحة والكشف وهدم القيم والأخلاق والأديان .

وقد ظلت ترى المسيحية بالضد والبغى والسلبية ، حتى نقض الفكر الغربي يديه منها تقضى . وكان لها دورها في إذاعة هذه الآراء وتأكيدها ، كقول نيشة في كتابه المسيح الدجال : (Anii - chriet) إن الرجل الأول يبدأ بالتقquer خلقياً وعقلياً عند ما اعتنق الدين المسيحى . وكتاب لدوفيج عن المسيح الموسوم بـ (ابن الإنسان) وكتاب شفيتر عن المسيح ، هذا الكتاب الذى يقول عنه سلامه موسى : « أن شفيتر ألف كتاباً عن المسيح وعالج حياته بشرط (فرويد) بما لا يرضي المسيحية » وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا في الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كتبت الوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم من لا أسيمه ولا أطيقه » .

فلسطين ليست غير العرش التي ستولد منه المدينة اليهودية المستقبلة » .

\* \* \*

وقد أشار أكثر من كاتب من كثيروا حماولات اليهودية للسيطرة على الفكر البشري والحضارة العالمية أن الكتاب الذين يجري في عروقهم دم يهودي كانوا طليعة الدعاء إلى المذاهب المنافية للدين والأداب والمجتمع .

ويعتقد دستويافنكي أن اليهود قد احتضنوا الماركسية معتقدين أنها ستقتلع أصول المسيحية وتلائى تمنها ، وأن هدفهم من بث الدعاية الخبيثة للمبادئ المثلية للغراز باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية أياً يهذف أن تسود روح هذه المبادئ على روح الإنجيل .

وقد أشارت رونوكولات صهيون إلى ذلك في أكثermann من موضع ومن ذلك قوله : «أن دارون ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف تنشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين » وفي قوله « لقد ربينا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم ، إن الآخر المدمر للأخلاق التي تنشئه علومهم في السكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد » .

وحللة آراء هولاء بالإضافة إلى دور كايم ولورنس وسارتر تمثل في احتقار الدين وتحطيم الأخلاق واعتبار الإنسان جيون . فاركين يرى الدين أفيون الشعوب ، وجموعة من الأساطير لتخيير المجهير الكادحة ، وفرويد يرى أن الدين ناشئ عن الكبت ومن عقده اوديب ، ودور كايم يرى أن الزواج ليس من الفطرة وأن الأخلاق والمجتمع والزواج من صنع المقل الجماعي الذي لا يثبت على حال .

ويذهب الباحثون إلى أن اليهودية عملت على تحطيم المسيحية عن طريق قيام النهضة على أساس لاديني ١ مصدره (١) فصل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة (٢) حيوانية الإنسان .

وعلى ضوء هذه النظائر يمكن القول بأن سياسة اليهودية التي رسمها موتمر حكماء صهيون عام ١٨٩٧ قد خططت خطواتها العدائية في ظل الحقد على العالم واستغلال كل الدعوات

والجipp أن اليهود قد استطاعوا أن يحملوا كثيراً من المسيحيين على أن يكتبوا مثل هذه الكتب وأن يذيعوها، كما تحول كثير من اليهود عن دينهم فأعلنوا أنهم مسيحيون من أجل حرية الحركة في مهاجة المسيحية.

ومما يحصل بهذا ما تأثر به موسوعات دواوين المعرف الغربية بل ودائرة المعرف الإسلامية التي كان يشرف عليها كتاب اليهود. ومن هنا ظهرت عديد من نظريات تزيف تاريخ الإسلام والعرب، بل إن كثيراً من الكتاب العرب وال المسلمين كانوا يقصدون أو ينجزون قصداً ملائكة اليهودية والذكر اليهودي، وقد حفظت الصحف في مطلع هذا القرن وإلى الأربعينيات ببحوث ضافية عن اضطهاد اليهود وحقهم وعبريتهم في الأهرام والقطم والملال والمقطاف والمجلة الجديدة والمصور.

ومن هذه الأبحاث ما كتبه عمر عنايت عن ما أسماه<sup>(١)</sup> (الدنية اليهودية) يقول «أعتقد أن عبد ما تسمونه الدنية المسيحية — مدينة أوروبا الحالية — على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدينة أخرى اعتقد أنها ستكون أكثر اهتماماً بالمبادئ من المدينة الحالية ولكن على نسق آخر. من السهل ملاحظة التسيطر المالي اليهودي الآخذ بخناق العالم، كذلك يشعر الفرسان أن اليهود قد أزروا في توجيه الرأي العام إلى جهة غير الجهة التي كان يتطلع إليها، وأئمهم قد استفادوا من القلق الاقتصادي الذي نتج عن الحرب وأنك إذا بحثت كل حركة هدامة أو عبودية في الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية. الأمر الذي يمكننا مشاهدته متجلياً في موقعتين: أولاً في (روسيا) ثانياً في (فلسطين).»

وهذين الموقعين هما يحقق مربض المدينة المستقبلة. في روسيا تجد الثورة تركيزها الدعوة اليهودية التي تجد المجال فسيحاً لهاجدة المسيحية — حاملة علم المدينة الحالية — أما في فلسطين فسياسة اليهود تختلف. حيث يريدون أن يشيدوا في فلسطين قطلاً ارتكاز يوجهون منها جهودهم.

وأن روسيا هي معمل البارود البشع الذي يحمل على نصف المدينة المسيحية فإن

والذاهب الحديثة لتحقق سيطرتهم الكاملة على العالم . وانهم الوجوهون لدعوات الإلحاد والاباحه والسيطرة على أنظمة الاقتصاد العالمي على أساس سيطرتهم على الذهب الذي يحتكره اليهود ، وانهم كانوا داعماً وراء الامتاله والشيوعية جميعاً ، يثرون مخاوف كل جناح على الآخر حتى لا يلتقي العالم في مهادنه تقية شر الصراع .

وقد أشار إلى ذلك الحاخام عمانوئيل إيفانوفيتش حين قال : « ان اثاره قرر الحرب بين أمريكا وروسيا أباً تهدف إلى ان يضعف الخصم وتتضعضع قواها ثم تسيطر اليهودية على العالم » ا.ه.

ولاشك أن أغلب الشبهات والشكوك التي حلت لواهها دعوة الغريب والشمويه والغزو الثقافي كانت من صنع الفكر اليهودي الصهيوني ، الذي كان يسيطر قبل عام ١٩٥٢ على الصحافة العربية في مصر ، وكانت دعوات عجيم دارون فرويد ونيتشه وسارتر وغيرها إنما تبعت من خطط مدروسة ، يجري في ظل الفكر الغربي أصلاً ، ولكنه يستهدف شيئاً أبعد مدى هو تعزيز الفكر العربي الإسلامي وتأهله الشبهات والأوهام ونزعاته التشكيكية حتى يسقط .

وبالجملة فإن الفكر اليهودي يسعى إلى السيطرة على الفكر الإنساني وذلك بالقضاء على الفكر النقي والفكر العربي الإسلامي جميعاً .

## الكتاب الثالث

التغريب والشعوبية



## تغريب الشرق

ليس شئ أن حركة «تغريب الشرق» *Westrutism* هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعماً لها ولما فادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الاستعمار ودعمه ، قوامها عمل استعماري فكري بعيد المدى تصد بها القضاء على معلم شخصية هذه الأمة وتحويلها إلى صورة غريبة الملامح لتخلصها من القيم والثلال والترااث الذي يتصل بها والتي كان عاملاً على تكوينها خلال الأجيال الطويلة .

كان الاستعمار يفهم أنه بعده سيطر على «العالم الإسلامي» بجيوشه وقواته العسكرية وقوته السياسية لا بد يوماً أن ينسحب ، فكان لا بد من وضع مخطط دقيق لبقاء نفوذه في المناطق التي احتلها ، وكان لا بد له أن يبق حتى ت تكون له طلائع تحالفه من أهل الاقطار قسمها ، تؤمن بفكرة ، وتسير في اتجاهه ، وتخدم مصالحه ، ت تكون عن طريق التعليم في مدارسه ، ووفق أهدافه ، وت تكون أمانهم له أكثر من أمانهم لأوطانهم .

وليس كل من تثقف بالغرب ، أو اتصل بالمستشرقين ودوائر الفكر الغربي كذلك . وليس كل من اتصل بالغرب وأمن به استمر على إيمانه ، فإن الحقائق لا تثبت أن تكشف عن زيف الاستعمار ومغالتته ، فلا يثبت الأمر أن يظهر أن هناك خداعاً خداعاً قوامه كلام براقة ، وشمارات تقول بتنور الشعوب وعذيبتها وتدعوا إلى الحرية أو الأخاء أو المساواة ، أو ما شابه ذلك ، ثم لا تثبت الأحداث أن ثبتت تنصب الترب وتناقضه ، واتجاه بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار ، هناك تحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد دفع يوماً .

ولستنا في هذا نذهب إلى النض من شأن الفكر الغربي أو نصرف وجوهنا عنه ، ببل على العكس من ذلك ، نحن لا زاه فكراً غريباً وإنما زاه فكراً إنسانياً في الأساس وأن أحترف في بعض مفاهيمه ، ونحن لا نقل أبوابنا أمام الثقافات العالمية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها ، وكان لنا دورنا الكبير في بناء هذه الحضارة ، دورنا غير المفكور عند **اللنصفين من كتاب الغرب وفكرة** .

ولكنا قبل أن نفتح الأبواب لكل الثقافات لا بد أن تكون من مثانة الاستعداد النفسي والذهني والروحي بحيث لا تقللنا ثقافات الأمم ، ولا تحولنا وجهة غير طريقنا ، ولا تقدس معلم شخصيتنا الأساسية الواضحة . فلقد نقلت أوروبا ثقافتنا الغربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم تحول وجهها عربياً أو إسلامياً أو شرقياً .

كذلك نحن أمة ، لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذي الملام الواضح ، فلا بد أن يبقى هذا « الأساس » ثم لتأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافاتها ، ما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام في ركب الحضارة .

ولم « حركة التغريب » لم تكن قاسية إلا بالنسبة لهذا الأمر ، فقد كانت صحيحة على لسان دعاها وابناعها من كتابها ، أن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنه لا بد من أخذها جيماً ، أو تركها جيماً ، وهذا رأى مدخل ، فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه ، فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى ، ولقد عاشت الأمم تتناقض الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تحول عن طوابعها أو مقوماتها الأساسية .

ولقد كان الاستعمار والتغزو الأجنبي يعرقلان أن السيطرة الكلمة على هذه الأمة أمر مستحيل « فإن لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العديدة ، ومن أسس فكرها العربي الإسلامي القرآن ما يحول دون الاستسلام أو الرکوع أو الخضوع لأى قوة خارجية أجنبية ، فكان لا بد من الحلة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسلیم للقوى الخارجية في أن تسود وتعتد وتوسّع » وبذلك يبقى الاستعمار حيا في صورة أخرى من صور التغزو الفكري .

إذن فالغريب أساساً عاولة لـ « تغيير المفاهيم » في العالم العربي والإسلامي والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين والآية والتاريخ ومعلم الفكر ومقاصم الآراء والمتقدّمات جيماً .

ولقد صور لورد كرومر منهج هذا العمل التي اصطنعه فرنسا وأجلتها وغولنده

فـ العالم الإسلامي حين قال : « أن الشبان الذين يتلقون علومهم في إنجلترا وأوروبا يفقدون الثقافية والروحية لوطنيهم ، ولا يستطيعون الانتهاء في نفس الوقت إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ويتتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة » .

وكان هذا بالطبع هو المدف من الارساليات المختلفة التي غزت بلادنا في صورة مدارس وجامعات وفي المبعثات الوجهة إلى أوروبا وإلى عواصم الدول المحتلة بالذات ..

وفي هذا ، قال « جيران » أن الشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي تجرب رشة من العلم يسوعيه صار سفيرا لفرنسا ، وبالشاب الذي ليس قياسا من نسج مدرسة روسية أصبح مثلاً لروسيا ، وكان هذا هو الحق إلى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق . بجحافل من العلماء والبshiren والمستشرقين والأذريين والصحفيين ، وشيدت مؤسسات ضخمة في مختلف عواصم العالم الإسلامي تفتح أبوابها لثقافات بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكري يعمل ويسطير في مجالات المدرسة والجامعة ، والصحافة ، والثقافة والتربيـة والطب والسينما والإذاعة .

وهكذا كان « التغريب » عملا خطرا دفينا قوامة الحرب الناظمة للقيم التي عاشت عليها أمتنا ، في أسلوب مختلف بالضباب ، يحاول أن يثير غاممه كثيفة من التشكيك والتحقيق والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالى الموروث ، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرـين على « الصحافة » في العالم العربي والإسلامي من هؤلاً التـنـكـرـينـ طقـيـمـناـ الـذـهـبـيـنـ معـ التـغـرـيبـ فيـ طـرـيـقـهـ ، وـالـصـحـفـ الـوطـنـيـةـ ذاتـ الـبـادـيـ » كانت تسقط واحدة بعد أخرى ، بينما ظلت الصحف التي تخدم التغريب تقوى وتنعم . وفي مجال « الترجمة » كان المدف هو بـثـ فـكـرـ جـدـيدـ قـوـامـهـ التـصـصـ المـكـشـفـةـ ، وـالـآـرـاءـ السـمـوـمـةـ ، وـفيـ مـجـالـ المـدـرـسـةـ كانت تـقـدـمـ الـكـتـبـ الـتـيـ تـنـقـصـ مـقـدـرـنـاـ وـتـمـ تـارـيـخـنـاـ بـالـضـعـفـ وـمـاضـيـنـاـ بـالـذـلـةـ وـسـيـطـرـ علىـ الجـوـ الفـكـرـيـ كـلـ تـيـارـ جـدـيدـ هـدـامـ قـوـامـهـ الـاستـهـانـةـ بـكـلـ الـقـيمـ وـفـيـ مـقـدـمـتهاـ الـدـينـ وـالـرـوـحـيـةـ ، كـمـ فـرـضـ الـحـضـارـةـ عـلـىـ بـلـادـنـاـ أـسـوـاـ عـرـاـتـهـاـ ، لـمـ تـرـسـلـ لـنـاـ إـلـاـ تـجـارـةـ الـقـيـقـ الـأـيـضـ وـالـكـحـولـ وـمـوـادـ الـزـيـنةـ وـالـلـهـوـ بـنـيـةـ تـحـطـيمـ كـيـانـ الـجـمـعـ ، وـبـدـتـ فـيـ جـوـ مـجـمـعـنـاـ رـيـغـ تـدـعـيـ إـلـىـ الرـخـاوـةـ وـالـنـمـةـ وـالـذـذـةـ وـالـتـخـلـصـ مـنـ كـلـ الـقـيـودـ .

ولم تكن هذه الدعوة تهدف إلا إلى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والهلاك والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتصديق والدفاع في سبيل الحرية ، كان هدف التغريب واضحًا هو محاولة قتل شخصيتها ، ومحو مقوماتها وتدمير فكرها ، وتسميم بناء الثقافة فيها . وفي هذا المجال بزرت الدعوة إلى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين وجرت الشعارات الجديدة في الارتباط بمحضارات البحر الأبيض ، وبأن مصر جزء من أوروبا ، وبرزت دعوات الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق ، وبرزت التمرات القديمة باسم مسيحي ومسلم ، وعربي وبربرى ، وعربي وكردي ، وكان الاستعمار هو الذي يحمل لواء هذه الدعوات وبشرها ويقلب جرها ، وينحرجها من كهوف الماضي لينجحها الحياة ويجمع حولها بعض أعنوانه عن طريق الفكر والكتابية بنية تقسيم الأمة .

ولم يمض طوبل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب وجاءوا يبحثون مدى ما وصلت إليه وما حققته من هدف . وقال جب في كتاب « وجهة الإسلام » : أن حركة التغريب كانت بعيدة المدى في إزالة الإسلام من عرشه في الحياة الاجتماعية .

\* \* \*

وقد عملت « حركة التغريب » في عدة ميادين ، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة ، ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والمسلمين ، حتى يشعوا النور في نفوس المواطنين إلى الصوت الأليف الذي يجد الصدى ، وفي كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبي يجد من يعاونه من أبناء الأوطان ، وإذا كان هجومه على الدين كان قاسيا « فإن من المؤسف أن تجد كثيراً من حمل لواء هذا المجموع من القوى متفقاً أول الأمر ثقافة إسلامية وكانت اللغة والدين في الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى ، وأن كان التغريب لم يترك ميدانا دون أن يوغل فيه ويسممه ويحيط فيه الشك .

وكانت كلمة « حرية السكر » والتقديمة ومقاومة الرجعية ، والتطور من الكلمات البراقة التي لعبت دوراً كبيراً في خداع المجاهير .

وأستطيع التأثير أن يجد المنافقون الملاكمة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالمقائد ، أو يواجه المواقف الحرجية ، وأن كان البشر وبن قد هاجروا القومات صراحة « وقاموا بعلمهم في عنف أول الأمر ، فإنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة ، وانخروا من السرج » واستبطنوا أهدافهم ، وحولوها إلى صورة أخرى أكثر دقة ومكرًا . فبرزت أحاديث صورية فيها تمجيد للدين ولللغة ومقومات الأمة فإذا تحدثت أفكار القراء . ووتقوا بالكاتب وكتاباته ، بدأ عملي التشكيك الخفي ، الدخول الدقيق ، بل أن بعض الكتاب الذين علوا مع التأثير وهاجروا القومات الأساسية في أول الأمر ، لم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظيريا ، وخاضوا الحديث في أقدس مقدسات الأمة ؛ عاملين على كسب القلة الشعبية العامة في هذا المجال ، حتى يتألق لهم من يمد أن يتحققوا في الخفاء ما يهدف إليه دعوة التأثير ، لقد اختفت المعركة من السرج ، ودخلت إلى الكواليس ؛ فكان مجال العمل ، هو مناهج التعليم نفسها ، أو مقالات الصحف أو فرض المذاهب الفكرية التربية ، وتأكيدها والاختفاء ورائها . وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الإسلامية ، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التي تدمر قيم الإنسان وتمرره وتسكشه على نحو يقلل من كرامته ، وفي هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة الذاهبة في كل مجال ، وكان من شأن إذاعة هذه المذاهب والنظريات أحداث بليلة فكرية من شأنها أن تختفي على الإياع بالقومات الأصلية . وتدفع الفكر العربي الإسلامي في مسارات وتجزيات . بل أن الخلطات التي قدرها التربويون إزاء موقف المسيحية الغربية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة ، جرى نقلها إليها مع الفارق البعيد بين موقف الإسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية ، فلقد كان الإسلام قادرًا على مواجهة كل تطور ، وفيه من السماحة والفتح والاستجابة ما جعله صالحًا لكل زمان ومكان » فكان هذا الاتجاه في تقل موقف التأثير من جهود الكنيسة ليس إلا لونا من هذه البليلة الفكرية التي هي قوام دعوة التأثير .

\* \* \*

ولم تكن حلات التأثير على القيم والقومات واللغة والتاريخ والدين في الشرق

قائمة على أساس على على نحو ما يذهب إليه أسلوب البحث العلمي الأصيل ، وإنما كانت حلات يغلب عليها الهروي والتعصب ، وتسسيطر عليها رغب المقد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس <sup>١</sup> مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التي كان لها دورها من قبل في حل أمانة الحضارة ، حين كانت أوروبا تعيش في الوحل والظلام ، فإذا أنيف إلى هذا ذلك الإصرار العجيب على إسكات فضل العرب وال المسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وإنكار لواقع التاريخ نفسه ، تبين إلى أى مدى يذهب دعاة التغريب ، فاسيا هي المترتبة ، وأوروبا هي المتحضرة ، وليس أكذب ولا أبعد عن الحقيقة ما يحاول التربويون أن يقولوه في هذا الحال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما .. ثم اختفت ألف سنة لظهور من جديد في حركة النهضة . أما قبل أثينا فليس شيء ، وأما ما قبل النهضة فلا شيء ، وفي هذا الرأى ما فيه من الخطأ وبعفافة الحقيقة .

والواقع أنه كانت قبل أثينا حضارات النيل والفرات ، وقبل النهضة كان المسلمين والعرب في دورهم الفنخن البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفن ، وترجموا آثار اليونان وذادوا فيها وأضافوا إليها وحققوا الأسس الكبرى التي قامت عليها الحضارة فيما بعد .

— \* —

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطة والتضليل ، ومحاولة مسخ القيم والمقومات العربية والاسلامية وإدخال قيم ومقومات جديدة تهدم شخصيتنا وتصيرنا مسخا لا هو من الشرق ولا هو من الغرب ، ثم هي بعد ذلك تنسك دورنا وتحاول أن تف/pub من شأن لقتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمي الصحيح ، وهو ما سنكشف عنه بتوضيم في مختلف مجالاته وجوانبه .

## حركة التغريب

إن أبرز ما تهدف إليه «حركة التغريب» هي تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصلية للامة ، هذه المفاهيم والقيم التي كونتها وطبعتها مقومات من الأرض والسكان ، والثقافة والعرق والذوق . فليس شك أن مقامنا في هذه للنطقة ذات الطابع المتبدل من الخصب والثمام وزرول الأديان السماوية الثلاث بها والبقاء الأجناس والشعوب منذ أربعة عشر قرنا على ثقافة لها طابع موحد مشترك ، إنما أعطى صورة مكتملة للفكر العربي الإسلامي .

ومن هنا تجيء دعوة التغريب التي تناول أن تلقى بنور الشبهات حول عروبتنا أو أسلافنا أو شرقيتنا فقول بأننا ناجزء من أوروبا « أو من حوض البحر الأبيض » أو تناول أن تفسر الصلات بيننا وبين النزب على النحو الذي يقضى على كياننا وطابعنا أو دعوام بأن الحضارة راث مشترك للإنسانية وعلينا أن نأخذها : خيرها وشرها ما يحمد منها ويعاب .

وفي هذا كله تجيء لحقائق لابد أن تكون واضحة في أذهاننا حول قضايا ثلاثة :

- (١) المعرفة والعقيدة .
- (٢) الشرق والغرب .
- (٣) الحضارة والثقافة .
- (٤) الأساس والبناء على الأساس .

ذلك أن هناك مفاهيم وانحصار حول الفرق بين المعرفة والعقيدة ، فالمعرفه إنسانية والعقيدة مرتقبة بالأمة وثقافتها في الأغلب .

فالشرق له مفاهيمه وعقائده والغرب كذلك « وقد اتسمت ثقافة الشرق بالروحية وعرفت ثقافة الغرب باللادبية » ، أما النطقة العربية الإسلامية فقد عرف فكرها بزاج الروح والمادة والدين والعلم ، والعقل والقلب .

ومن هنا يكون وجه الخلاف في المفاهيم والقيم ، ومن هنا يكون التحفظ من خطة التغريب التي تهدف إلى القضاء على المفاهيم والقيم الإسلامية العربية وإحلال مفاهيم غربية مكانها .

كذلك هناك فارق بين الحضارة والثقافة . فالحضارة علم تجربى وصناعة وما كينات وذرة وأسلحة وهكذا » والثقافة فكر وقيم ودين ولغة وتاريخ . ومن هنا يبدو خطأ القول بأن ثقافة الغرب جزء من حضارته » وإن على الترق أن يأخذها مع الحضارة » ذلك أن الحضارة ملک مشاع للإنسانية شاركت فيه ولها أن تأخذ منه ، أما الثقافة فهي في الأساس مرتبطة بالفنون والأذواق والأمزجة ؛ هذا إنما الملاحظان الأساسيان في النظرة إلى حركة التغريب ودعوته .

ومن هنا كانت نظرتنا إلى أننا نقيم « أساساً » من فكرنا العربي الإسلامي الأصيل بنبي عليه ثقافتنا الحديثة وفكernا الجديد ، ونخن فتح الأبواب والتوافد للنونكرا الوافد في حرية كاملة فتأخذ منه وندع ، وفق قاعدتنا الأساسية ، ومن هنا لا نخى أن يجرفنا الوافد ويقضى على مقوماتنا أو شخصياتنا الأساسية بل يكون الامتصاص والاقتباس مستمدًا على النحو الذي يزيد شخصيتنا قوة وفكernنا انطلاقاً واتساعاً وحركة إيجابية .

• • •

والواقع أننا لسنا في حاجة كبرى إلى هذه المحاولة الضطرية الفاتمة التي تريد أن تكشف عن أن فكرنا العربي الإسلامي يلتقي في كثير من القيم والمفاهيم مع الفكر الغربي . فلا شك أن هناك خلافاً واضحاً ، وكثيراً وجدرياً بين مفاهيم الشرق والغرب ، وبين الفكر العربي الإسلامي بالذات - بين الفكر العربي ( بشقيه ) .

هذا الخلاف يبدو في أساس واحد هام من عدة أسس هو : مادية الفكر الغربي وأمراض المادة والروح في الفكر العربي الإسلامي . ولا شك أن الخلاف في هذا الأساس بالإضافة إلى الخلافات الأخرى من شأنه أن يعطى « طابعاً » تميزاً لفکernنا ويحمل لنا وجهاً

فظر عنتقة مع الترب في مسائل التربية والثقافة والمجتمع والأخلاق . ومن هذه الخلافات يتبين أن لكل فكر قيمه ، ولكل أمة أسمها وقادتها الأصيلة المتقدمة الزمن ذات الجذور الصلبة ، ومن هنا يتبين مدى فشل حركة التغريب في القضاء على هذه الأسس ، وقلعها .

ولا شك أن حركة التغريب لم تبلغ فيها بلغتها حتى الآن في مؤامرتها الضخمة أكبر من إثارة الشبهات وإلقاءها في فكر مجموعات من الشباب نشأت مع الأسف دون أن تفهم القوامات الأساسية للتفكير العربي الإسلامي ولم تؤمن بها . ومن هنا اضطربت وجرت مع البريق وأنحرفت عن الطريق ، ونحن في حاجة إلى أن تفهم أن هناك فارقاً بين استيراد الحضارة واستيراد الثقافة ، وأنه ليس حتماً مقصيناً على من يستورد الحضارة أن يستورد فكرها .

وأدنى ما تواجه به حركة التغريب هو اتخاذ إجراء المشل بالنسبة لقومات السكر الغربي الذي تصادف أنه مليء بالثغرات ، وأكثر اضطراباً وبعداً عن الفاهيم العقلية نفسها .

وحتى في مجال قضياباً : القومية والديقراطية والاشتراكية فإن الفكر العربي الإسلامي ليس مطالباً أبداً أن يأخذ بفاهيم الترب لها ، ومن حقه أن يضع لها مفاهيمها على ضوء مقوماته الأساسية التي هي بعثابة الأساس الذي تبني عليه النهضة وهذا وقع فعلاً فاتاناً قد حددنا مفاهيمنا بالنسبة لهذه القيم بما يختلف مع مفاهيم الترب لها وقد جاء ذلك مستمدأً من جذورنا ومقوماتنا وتراثنا .

ولذا كان الترب قد اعتبر الدين خليلاً عليه لأن المسيحية التي اعتنقتها كانت منابعها في الشرق ، وقد اضطربت علاقته بها ورآها — باعتبارها دنيا — تقف أمام حركة النهضة والكشف فتحاها . فليس معنى هذا أن تقبل رأي الترب في الدين جملة ، أو أن نطبق رأيه فيه على الإسلام بالذات ، وقد كان الإسلام ولا يزال : ديناً وثقافة ونظام مجتمع . وهو في هذا يختلف عن الأديان الأخرى بـ وأبرز أوجه الخلاف أنه لم يقاوم التطور ولا النهضات ولا الحضارات ، واستطاع أن يظل مفتوح الآفاق إزاءها على مدى المصور وفي كل البيئات . ومن هنا فتحن لا تقبل النظرية القرية في القومية أو الديقراطية أو الاشتراكية ولا تستورد المفاهيم ولا تجرى وراء التبعية الفكرية أو نتفق المفاهيم التي يضعها الترب .

ومن هنا يبدو مفهومنا للقومية العربية مرتبطا بالفكرة العربية غالباً في الغرب ذلك أن «الفكر العربي الإسلامي» هو أساس وحدة المفاهيم ونحن ننظر إلى الفكر العربي الإسلامي ككل وليس إلى جزئية منه كاللغة والتاريخ منقولة عن النظيرية الغربية..

وليس أدل على مفهوم الإسلام هنا من عبارات المصنفين من كتاب الغرب المسيحيين الذين اقتنعوا بأن الإسلام ليس عقيدة أخرى فحسب ولا أخلاقاً غيره بل هو «أجل مفهص عن شعور العرب الكوني ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج منها فقط بالشعور والفكير والتأمل بالعمل والنفس بالقدر ، وهو أروع صورة لفهمهم وأدابهم ، وأضخم قطعة في تاريخهم القوي ، وأن علاقة الإسلام بالعروبة ليست علاقة أى ابن بأى قومية » فالإسلام للمسيحيين ثقافة قوية والفكر الإسلامي أعن ماق العروبة » .

\* \* \*

والواقع إن أبرز ما يدعو إليه التغريب هو خلق روح «العلمانية» في الشرق . والعلمانية ترجمة عربية لـ الكلمة الفرنسية (Secular) وهذه الترجمة العربية تحمل طابع التمويه لأنها لا تزيد أن تكشفحقيقة مفهومها الغربي الذي يعني أساساً كلمة «لاديني » .

وكان هدف التغريب في جملته العنيفة هو الوصول إلى قيام حكومات لادينية في الوطن العربي بعد أن قاتلت « التجربة » فعلاً مائة أيام الشرق كله تعطى العبرة في « تركيا » .

ولكن دعوة «القومية» في العالم العربي لم تقبل المفهوم الغربي كاملاً ، وخلقت لها مفهوماً نابعاً من المقومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي ، التي يمثل وحدة فكر الأمة ، وهي لم تخل عن جوهر « الدين » بجزء متصل من مقومات الفكر الإسلامي بجوار اللغة والتاريخ والتراث .

حدث هذا بالرغم من نجاح دعوة التغريب في مجالين هامين : التعليم والصحافة فقد نجح التغريب في إنشاء مدارس غربية الطابع ، تحمل طابعاً تغريبياً مختلفاً لروح الفكر في العالم الإسلامي والوطن العربي .

كما نجح في إدخال مناهج التعليم الغربي التي فصلت الدين عن التربية في جميع المستويات إلى المدارس في العالم الإسلامي والوطن العربي . واستطاع أن يوفد مئات من أبناء العالم الإسلامي والوطن العربي إلى فرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ليحملوا ثقافة وقد استطاع بعضهم أن يوكل مفاهيم التغريب بإعانته وولاته .

وإذا كان عدد كبير من هؤلاء المبعوثين قد فشل التغريب في اتخاذهم أولياء له ، فإن العدد القليل قد عمل ظل تقوذ حكومات الاحتلال وبعوئه التقوذ الغربي الذي مازالت إثارة باقية في كثير من حكومات العالم الإسلامي والوطن العربي على عزل التربية عن الدين . وعزل جوهر الفكر العربي الإسلامي عن التاريخ واللغة والأدب .

وقد آن الأوان تحرير مناهج التعليم في العالم الإسلامي والوطن العربي من هذه الشبهات وتمكين جوهر الفكر العربي الإسلامي في جميع المناهج على التحول الذي يتحقق بالإيمان بروح هذه الأمة وقدرتها على النضال والابتهاج مرة أخرى لنقف في المفهوف القائمة.

وفي مجال الصحافة استطاع التزوير أن يخلق رأياً عاماً للنماهيم الغربية وتنحية النماهيم العربية عن كثيর من القيم . ومن هنا بدت الدعوات التحريرية والتقومية التي ظهرت في العالم العربي والاسلامي بعد الحرب العالمية الأولى وهي ذات طابع غير مقييد بالقيم الروحية والاجتماعية والأخلاقية . . وإلى ما قبل النصف الثاني من هذا القرن كانت الصورة ترسم أمه تعلي من قدر فكرة الحرية والوطنية من غير أن تزعجها عقوم أساسي من الروحية أو الخلق .

وكان لحركة التنريب التي استطاعت بالفعل أن تسيطر على أزمة الصحافة في العالم العربي ← إذ ذاك ← دورها الفعال في هذا المجال.

وقد أشار «جب» إلى هذا المعنى في كتابه *وجهة الإسلام* حين قال: أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأدورية وأعظمها تنوّعاً في العالم الإسلامي «، وأن مدربى الصحف ينتمون في معظمهم إلى التقديرين ، وأن معظم هذه الصحف واقع تحت تأثير الآراء والأساليب التراثية وأن الصحافة المصرية لا دينية في أحاجيها . (هذا النص يشير إلى عام ١٩٣١)

## الفكر العربي

### محاولة تفريغ مقوماته ومفاهيمه

هدف «التفريغ» أساساً هو تحويل الفكر العربي الإسلامي عن مفاهيمه <sup>تم</sup> عن مقوماته ومن هنا يحاول «التفريغ» أثارة قضايا كثيرة متعددة ، هذه القضايا تتطرق جزئية ، منفصلة وتظهر عند ما يراها الرائي كأنها لاصلة لها بالقضايا الأخرى ، هذاف النظرية الظاهرة، أما في الواقع فأن كل جزئية هي قطاع من حقيقة أساسيه هي «التفريغ» ذلك الشبح الضخم المخفي وراء هذه الصور والممارك ، وهدفه هو تقليلنا عن مفاهيمنا الأساسية إلى مفاهيم جديدة . ومن هنا يتمدد «التفريغ» داعماً على جزئية النظرة لدينا ، وعجزنا عن الإلهاط والشمول .

ولك تم الواجهه الحقيقية لمركتنا مع التفريغ يتحتم أن تكون هناك مناهيم وانحصار عن أمور كثيرة تثار من أجل غياب القضية الأساسية ، ذلك أن حركة التفريغ والذين من ورائها وهم على قدر كبير من الرونة - قادرة على تحويل التيار بعيداً عن الهدف الأصلي وصراحته إلى الممارك الجانبيه أو القضايا الجزئية .

فالتفريغ بحركته وخططاته قادر : ( اولا ) على تحويل الاتصالات الكبرى عن أهدافها وذلك بوسائل عديدة ، أما بالإسراع بها أو باجهاضها ، أو بوضع تفسيرات جديدة لفهایمها ، أو بتجسيد الأفكار المجردة ، وقتل القضية من الفكر إلى صاحبه وذلك بقصد نقلها من البحث التقلي إلى الماظنة الشخصية . وكذلك للتفريغ قدره على إيجاد يديل سريع للافكار الحية القادرة على النبو ، وذلك باراز من يتعذرون في نفس الموضوع ولكن بفهایم أخرى . وهناك من الأسماء اللامعة من يمكن تجنيده في الوقت المناسب ليعلو صوته على الأصوات الجادة التي تحمل الرأي الأصيل .

ولقد استطاعت حركة التفريغ أن تواجه كثيراً من النعمات التي قام بها جمال الدين الأفناوي عبد الرحمن الكواكي و محمد عبد الله و عبد الحميد بن باريس .

وسرعان ما كانت تظهر أسماء لامعة من دعاة التغريب تحمل نفس الأفكار من مظاهرها دون مضمونها تحولها عن هدفها الأصلي انخالص إلى هدف يخدم الإستعمار أو الاستبداد.

(ثانياً) النظره الجزئية وهذه من أخطر ما يهدف إليه التغريب ، ويتمثل في تجزئه الفسكرة الواحدة واثارة افكار مجزأة ثانوية لاضماف الفكرة الأساسية . كما يتمثل في عاولة تناول كل جزء منها على حده منفصل عن الجزء الآخر .

وفي هذه التجزئه يتمثل الخطأ ، فإن كل جزئيه عضي وكأنها بطيء مستقل ، ثم تنسى بعد فترة ، لتظهر جزئيه أخرى ، لاتذكر من بطيه بغيرها ، وهنا تكون قدرة التغريب على تفتيت السائل واثارة الشبهات حولها، اعتماداً على ضعف الذاكرة التي لا تستطيع أن تربط الأجزاء كله . والواقع أن كل سفوم التغريب والزهو التقافي جرت في هذا الخطأ ، كانت تلقى الجزئيه ثم ترك ، وتنسى ، ثم تلق جزئيه أخرى وثالثة ورابعة ، ثم يعاد القول في الجزئية الأولى ، وهنا يبدو مدى الخطأ الذي يحتاج إلى الوعي الكامل « فإن كل هذه الجزئيات تمثل في كلها واحده هي القضاء على مقومات السكر العربي الإسلامي وتحويله من مفاهيمه الأصيله إلى مفاهيم مختلف اختلافاً أساسياً .

وفي ظل هذه الخلطة ، يفتح التغريب الباب كل يوم لقضايا جديدة « ويجدد مسائل قديمة بالأسلوب آخر ، ويهدم على فترات ، وهدفه من ذلك أن لا يترك الفرصة للباحث أن يفسر أو يستدرك أو يربط الأجزاء بعضها ببعض .

(ثالثاً) إثبات التغريب بالنظره الثالثة بان اثارة الشبهات تكون بلسان « رسول من أنفسهم ومن بين صنوفهم » على حد تعبير البشر الشهور « زويير » بأن الشجرة على حد قوله يجب أن يقطعنها أحد أبنائهما .

ومن هنا كان ضرورة تكون جيل من دعاة التغريب الذين توطأ لهم شهرة زائمة وفسح لهم الكتابة في الصحف والمجلات الكبرى ، وتجزئ حولهم أبحاث ودراسات وكلها خدت اهتمامهم أعيد الحديث عنها ، حتى تظل في مستوى النظر .

وقد ظهر في الثلاثين عاماً الأخيرة عدد ضخم من دعاة التغريب والشمعيين من المسلمين والمربين: وهم أحياناً من السكر والمرؤون واللباقة بحيث يستطعون إخفاء توايدهم وأغراضهم، وكثير منهم اكتشف أمره، ونعت كتاباته عن خصوصاته وأحقاده.

وموقفنا من هؤلاء الكتاب واضح هو تطبيق مذهب نقد الرجال عليهم، فعانياً أن يجمع النصوص التي يمثل فيها التغريب والشمعية ل بكل كاتب ونعرضها للبحث ونكشف ما تنسطوى عليه من سوء.

(رابعاً) في ظل هذا كله علينا أن نفرق بين القيم والمفاهيم. فالقيم إنسانية عامة كالحرية والدين والتربية أخلاق. وقد اختلف الرأي في مفهومها بين الفكر العربي الإسلامي وبين الفكر الغربي وبين الفكر الماركسي. ومن هنا كان علينا أن نحتفظ بمفاهيمنا للقيم فهى التي تمثل وجه نظرنا أساساً. ذلك أن مهمة التغريب هي:

«أولاً» محاولة إخضاع الأمم لثقافته ومفاهيمه للقيم وذلك بتحويلها عن مفاهيمها الأساسية وتسويف الحضارة الغربية على حضارات الأمم ولا سيما الفكر العربي الإسلامي.

«ثانياً» إنتزاع الطابع المميز للفكر العربي، ولما كان فكر كل أمة يكسبها طابعاً خاصاً، فإن التغريب يهدف إلى إنتزاع هذا اللون المميز والقضاء عليه لتذوب في الثقافات العالمية.

«ثالثاً» لما كان التغريب (والتبشير جزء سابق منه) عاجزاً عن هدم المقاديد والقيم في نفس أمه من الأمم فإنه قادر على إثارة الشكوك والشبهات في هذه المقاديد حتى تصبح موضوع النقد والسخرية. ومن هنا كانت محاولة التغريب في فرض مفاهيم جديدة للقومية والوطنية والدين والحرية تختلف مع مفاهيمنا أساساً.

وقد وجّه التغريب عشرات من الشبهات في هذا المجال، وربما استطاعت هذه الشبهات أن تثير في بعض العقول والذفون الشكوك والأوهام ومن هذه الشبهات:

### أولاً : « الفَكَرُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ فَكَرٌ تَجْرِيدِيٌّ » .

أتهم الفَكَرُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ بأنه فَكَرٌ تَجْرِيدِيٌّ ، والواقع أنَّ عِرَاتَ النَّفَهِ وَالْتَّشْرِيفِ الْإِسْلَامِيِّ تَكَذِّبُ هَذَا الرَّأْيِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَصْوَلَ تَرِينَا وَاقْيَةً لِلْفَكَرِ الْإِسْلَامِيِّ وَكَيْفَ أَمَّا كَانَ يَتَنَوَّلُ كُلَّ حَادِثٍ يَقْعُدُ فِي حِينِهِ ثُمَّ يَسْتَعْرِضُهُ وَيَضْعُهُ لِلْحَلُولِ .

بِلَّ أَنَّ الْفَكَرُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلَامِيُّ أَكْثَرُ إِغَالَا فِي الْوَاقِعِيَّاتِ مِنَ الْفَكَرِ الْفَرْبِيِّ .  
حِيثُ تَنَوَّلُ الْحَيَاةُ الْيَوْمَيَّةُ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى مَسَائِلِ الْإِلَاهَوَتِ كَمَا فِي الشَّرَائِعِ الْأُخْرَى .

### ثَانِيَا : « الْإِسْلَامُ لِلْمَاضِيِّ » :

الْوَاقِعُ أَنَا لَا نَسْتَدِلُّ لِلْمَاضِيِّ وَلَمْ يَكُنْ تَقْدِيرُنَا لِجَدِنَا الْفَابِرَ حَائِلًا دُونَ التَّطْوِيرِ يَوْمًا أَوْ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ تَكُنْ عَقَائِدُنَا وَلَا رَأْيُنَا وَلَا قِيمَتُنَا الْأَسَاسِيَّةُ عَائِلًا لَنَا عَنِ الْحَرْكَةِ وَالْتَّطْوِيرِ ،  
بَلْ كَانَتْ عَامِلًا إِيجَابِيًّا يَفْتَحُ لَنَا الطَّرِيقَ الْأَصِيلَ الْوَاضِعَ ، وَلَا سَبِيلٌ إِلَّا أَنْ نَدْعُ أَسَاسَنَا وَنَبْنِي فِي أَرْضِ رَخْوَةٍ ، فَانْ بَنَائِنَا إِذَا ذَلِكَ لَنْ يَرْتَعِمَ بِلِ سِينَهَارٍ ، وَنَحْنُ تَوْمَنُ بِأَنْ شَجَرَةُ  
الْعِرْفَةِ يَجِبُ أَنْ تَطْلُمُ عَلَى أَسَسِنَا مِنْ مَاضِنَا فَتَنَصُّلُ اتِّصَالًا طَبِيعِيًّا بِعَنَائِعِ ثَقَافَتِنَا . إِنَّ كُلَّ  
أُولَئِكَ الْعِرْفَةِ وَالْمَحَضَارَةِ تَابِعَةٌ مِنْ فَكَرِنَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَيَحْاولُ التَّغْرِيبُ أَنْ يَثْبِرَ دَائِعَاهُ  
مَسَأَلَةَ الْفَكَرِ الْإِغْرِيقِيِّ وَالْلَّغَةِ الْلَّاتِينِيَّةِ كَفَيَالْلَّهُمَّ لِنَتَابِعْ فَكَرِنَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ وَالْلَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ،  
وَإِذَا كَانَ لَنَا أَنْ تَقُولَ شَيْئًا عَلَى وَجْهِ الْمَقَارِنَةِ فِي هَذَا الْمَحَالِ ، فَهُوَ أَنَّ الْإِغْرِيقَ اتَّهَمُوا وَلَكِنَّ  
الْرَّبُّ وَالْمُسْلِمِينَ لَمْ يَتَهَوَّا ، وَأَنَّ اللَّغَةِ الْلَّاتِينِيَّةَ مَاتَتْ وَلَكِنَّ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةَ مَا تَرَالُ حَيَّهُ  
مِتَّفَاعِلَةً . وَلَذِكَّرْ يَعْكُنُ أَنْ يَقَالُ بِالنَّسَبَةِ لِلْمَاضِيِّ الْإِغْرِيقِيِّ وَلِنَتَهِيَ الْلَّاتِينِيَّةُ أَنَّهُ « تَرَاثٌ » وَلَيْسَ  
كَذَّالِكَ بِالنَّسَبَةِ لِلْلَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفَكَرِنَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ .

( ثَالِثًا ) النَّظَرَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّهُ « دِينٌ » .

يَبْدُو خَطَأً هَذِهِ النَّظَرَةِ فِي التَّعْرِفِ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَجَوْهِرِهِ ، وَقَدْ اقْتَنَعَ كَثِيرٌ  
مِنْ كِتَابِ الْفَرْبِ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ وَحْصَارَةٌ وَفَكَرٌ وَمُجَمِّعٌ وَفِي مَقْدِمَتِهِمْ جَوْسَتَافُ  
لُوبُونْ وَجَبَ « فَالْمُحاوَلَةُ الَّتِي يَجْرِيْهَا التَّغْرِيبُ فِي عَشَرَاتِ مِنَ الْقَضَائِيَّاتِ كَجَاهَةِ الْإِسْلَامِ »  
عَلَى نَفْسِ الْأَسَسِ الَّتِي حَوَّكَتْ عَلَيْهَا « الْمَسِيحِيَّةُ الْفَرِيقِيَّةُ » وَهِيَ الْمَسِيحِيَّةُ الْمُسَمَّحةُ الْأُصِيلَةُ ،  
خَطَأً فَادِحَ وَمِنَالَةً كَيْدَةً . فَلِيْسَ الْإِسْلَامُ تَرَاثًا ، وَلَيْسَ تَرَكِيَا الْمُهَنَّادَةُ هِيَ الْإِسْلَامُ .  
( م - ٧ الْفَكَرُ الْعَرَبِيُّ الْمُعَاصِرُ )

وليس الإسلام عبادات وعلاقات بين الإنسان والله فحسب ، وليس في الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين لهم في علاقتهم بالإسلام حقوق أو نفوذ ليس لغيرهم ، وإنما يوجد في الإسلام علماء متخصصون والإسلام في صورته الحالية محظوظ بال المسلمين ، فليست حياة المسلمين الآن تقتل الإسلام ، وليس هناك انتقال بين الإسلام والعروبة ، وقد اعترف بذلك مورويرجو (أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برستون) في كتابه العالم العربي اليموم حين قال «إن العروبة تعني الإسلام ، وأن الإبتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انتقال البناء عن أساسه . وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعني قوة الإسلام .

وقد دعا الإسلام أقدس دعوة «الإخوة العالمية والإنسانية» .

والإسلام منذ ظهر إلى اليوم وهو عامل مؤثر في جميع أحداث التاريخ ولم يكن الإسلام خادماً للمجتمعات والدعوات بل كان متميزاً بطبيعة الواقع ومقوماته الأساسية ، ولقد كان ولا يزال مصدراً لكل حركات الحرية والتخلص من العبودية وتجربته في المدارج وفي وسط أفريقيا تؤكد هذا المعنى .

رابعاً : القول بأن نقل الحضارة يستدعي نقل الثقافة ، وهذا خطأً وغبيه فليس نقل الحضارة يستدعي مطلاقاً نقل الثقافة وفي رأي إيجاع الباحثين - مادعا دعاء التغريب والشمويين - أن الحضارة بطبيعتها قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى ، أما الثقافة فهي خاصة بكل أمة على حده .

ثالثاً : فكر أمة مرتبط بروحها وضميرها ، أما الحضارة فذات طابع مادي وهي ملك مشارع للأمم . وهناك خلاف واضح بين «قيم» الفكر العربي الإسلامي وقيم الفكر العربي ، أساس الأولى تراوح الروح والمادة ، بينما يعتمد الفكر العربي أساساً على النظرة المادية ، فضلاً عن أن الفكر العربي بشقيه يقيم أساس مقوماته وفيه ومقالميه على مادية النظرة إلى السكون والحياة والإنسان ، وهناك خطأ واضح هو القول بأن الفكر العربي الإسلامي فكر روحي لاهوتي خالص ، وأن قوتنا في إغناء الجانب الروحي وحده ، والحق أن فكرنا العربي الإسلامي يمثل امتزاج الروح بالمادة » والمقل بالقلب ، بينما عضى ثقافة الشرق روحية دخلصه وثقافة التزرب مادية خالصة .

وهناك فرق أيضاً بين العلم والثقافة ، فالثقافة مستقرة في الشمود راسخة في الفطرة ،

والقطرة في الفرد كا هي في الأمم لها ميزات خاصة في التوقيع ولها استمداد خاص لنهم الحياة .  
والتقط بها ، أما العمل فشاع لكل الأمم وكل الأفراد .

الواقع أن مقومات فكرنا العربي الإسلامي الأساسية تدفعنا إلى أمرين يسيطران  
جنبًا إلى جنب .

( ١ ) أن نفتح نوافذنا للفكر الإنساني الوافد فلا تتجاهله ولا تتفق منه  
حوقف الخصومة .

( ٢ ) أن نأخذ منه وندع على قاعدة الرشد التكري .  
ول يكن موقفنا موقف النزب من الفكر العربي الإسلامي عند ما ترجمه ونقله  
في أول النهضة ، فقد أخذ منه ما يتفق مع شخصيته ومقوماته الأساسية ؛ أخذه مجردة  
وحوله إلى كيانه ، ولم يأخذ « طابع » الفكر العربي الإسلامي ولا شخصيته ، وممروض  
أن توماس الأكوياني عمل على غربلة الثقافة الإسلامية وهو يترجمها وثار ضد نظرية ابن رشد  
بوضد التقديس أوغسطين حتى يستطيع تصفية ثقافة الترب مما يراه فكرًا عربيًا إسلاميًا .

وقد أخذنا موقفنا من الفكر الإسلامي العربي أن يواجه المؤشرات الأجنبية على قاعدته فهو لا يقبلها  
محظلة ولا يدعها تسيطر عليه أو تزيز ملامعه ، ولكنها يقبلها على قاعدة المرفة المفتوحة  
الآفاق ، لا على قاعدة أنها عقائد أو ثقافات ، وعنده أن التوقف عن قبول المؤشرات  
الأجنبية مظهر للعجز ، وقبوها بدون تحفظ مظهر للنقص ، وفكرا لا يريد أن يسقط  
في إحدى رذيلياتي : العجز أو النقص .

ونحن ننظر إلى تجارب الآخرين وعيوننا على بلادنا وظروفها الخاصة ، ونستفيد  
من التجارب الإنسانية مع تفريغ بين النظريات وواقع الحياة .

ومن هنا يبدو تفسير واضح لازمة القلق التي يانها التفتون اليوم في العالم العربي  
والإسلامي ، والتي مصدرها الجنوح عن القاعدة الأصلية للفكر العربي الإسلامي ومم  
يواجهون النظريات والمذاهب العالمية ، إنهم يسيرون بعيداً عن الشامل دون أن يكون  
معهم طرق النجاة ومن هنا يصابون بالدوران . إن الخطأ هنا في إقامة فكرنا على أساس  
النظرة الجزئية أو المفهوم التربي .

أن سر القلق هو انفصال العقل عن الروح وهو لب لباب فكرنا العربي الإسلامي .  
(خامساً) لا بد من إعادة النظر في بصمات التغريب في الفكر العربي قبل أن تحوله إلى جنور ، يكون من شأنها أن تدمر القيم الأساسية أو تحمل مفاهيم جديدة بدلًا من المفاهيم الأصلية ، فقد تصادف أن سيطر النفوذ الغربي على العالم الإسلامي والعربي في فترة ضعف ثقافي وسياسي وعسكري ، وفي ظل هذا الضعف استطاع الترب أن يفرض بعض مفاهيمه أو يترك بعض بصماته .

ولا شك أن هذه البصمات ستتحول دون كمال الشخصية الأساسية وامتدادها وقدرتها على الإيمان وتكون بثابة ثمرة يستطيع التفاؤل الغربي التأثير والتندد .  
فن ذلك أنها نسمى عصارات فكرنا ومنابعها تراثاً *Legacy* وما زلنا نسمى الإسلام *Religion* مع خطأ هذه التسميات الستوردة ، أما عصارات فكرنا ومنابعها من أدب وتشريع وفلسفة فأنها مستترة التأثير في فكرنا المتطور حتى ، فلا يمكن أن يوصفه بكلمة تراث إلا من توقف عن الحياة والحركة ، وهذا التعبير مأخوذ من الفكر الغربي في نظره إلى الفكر اليوناني والروماني القديم المكتوب باللغة اللاتينية التي دخلت المتحف وفصل بينها وبين الفكر الغربي الحديث أفال عام ، أما فكرنا العربي الإسلامي فيليس *Legacy* فليس *Religion* .  
بين مراحله فضلاً عن أن لغة هذا الفكر ما زالت حية متصلة نامية .  
أما الكلمة *Religion* فليست تعبير في الفكر الغربي كلة دين التي تعنيها الكلمة المرية وإنما تعني مفهوماً قريباً من أعمال الخير والبر .

(سادساً) خطأ حاكمتنا إلى فترة الضعف في دورة التاريخ للأمة المرية والمسلمي ، فالنحو العربي الإسلامي محجوب بأهله ، بعد أن انفصلت القيم عن الواقع ، وكل ما يرى من وجوه الضعف في شخصية الإنسان العربي الإسلامي ليس مصدره مقومات فكره الذي يزوج القيم بالواقع والذى استطاع أن يبني حضارة ضخمة حية خلت لواء الحرية والمساواة والمعدل والأخاء إلى العالم كله سبعة قرون كاملة كانت أوربا خلالها تعيش في الظلمات ، وكانت حضارة تطبيقية عملية للفكر العربي الإسلامي إلى الثاني ، وإنما تتمثل الصورة التي قامت المجتمع في العالم العربي والإسلامي في فترة الضعف على أساس الانفصال بين هذه المقومات وسقوط بعضها والبالغة في بعضها الآخر .

ومن هنا يمكن القول بأن مرحلة الضعف في العالم الإسلامي لا تخل جوهر الفكر العربي الإسلامي كا هو في الحقيقة .

ففي خلال القرون الثلاثة الأخيرة انفصل العالم العربي الإسلامي عن مقومات فكره وواقتنا الاليوم \* فلم يعد يمكّن حقيقة هذا الفكر أو جوهره ، فقد كانت حقيقته مضيئة وكانت تجربته متطرفة ولو لم تقت في وجه المواريث لحقق تباعي ايجابية عدلت من اتجاه الفكر الانساني .

ومع أن الدولة انهارت فقد ظل هذا الفكر حياً قوياً قادرًا على الحياة والبقاء . ولقد كشف عن قدرة كاملة على الحركة والتطور ، وعلى الناء والتوليد ، وعلى الأخذ والمعطاء وعلى امتصاص ثقافات الشرق والغرب وتحويل عصاراتها إلى كيانه الملي المستمر النمو . وما زال الثقافة العربية الإسلامية عنصراً أساسياً من أهم عناصر الثقافة الإنسانية لها طابعها الواضح المميز بين ثقافات اليونان والرومان والهنود والفرس والغرب .

وليس في فكرنا طابع الانهزامية واليأس والضعف والاستسلام ، أو التجرد عن الدنيا والتزهيد فيها والخلاص منها أو الدعوة إلى الرهبة والذلة وليس في فكرنا طابع الجنس والذلة وبعبارة الشهوة ، وكلها عليه دخيل ، أما طابع فكرنا الأصيل فهو الإيجابية والمقاومة واليقظة مما يتمثل في قول أقبال : « أهض فقد آن لآدم أن ينهض » .

(سابعاً) خطأ حاكمة فكرنا إلى مفاهيم الغرب في كليات تجربى كالصطلاحات منها كلمة « الملال » التي تطلق على العالم الإسلامي أو الإسلام . والواقع أن هذا الاصطلاح مردود ، فقد كان الملال أساساً شعار من المذهب أو المدن أخذها الرومان البيزنطيون شعاراً لدولتهم وأخذه عنهم الاتراك فهو شعار دولة وليس شعار أمة أو دين .

وخطأ المجموع على « آسيا » واتهامها بالتأخر ، وهو قول لا يثبت للنظرية العلمية فقد قدمت آسيا للعالم سلسلة من الحضارات الرقيقة في الجد ، كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية والأشورية والجینية والمندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية الدعوات البوذية والبرهمية والأديان : اليهودية والنصرانية والإسلام وخطأ الاصطلاح الذي يقول : شرق أدنى أو شرق الأوسط ، فإنما ذلك اصطلاح قائم على أن مركز الكون هو الغرب وذلك موقعنا بالنسبة إليهم ، لذلك نحن نرفض هذا الاصطلاح ونفضل عليه « الشرق العربي الإسلامي » .

## بين الثقافة والمعروفة

ومازالت أعتقد أنتا في حاجة إلى كشف الفرق بين المعرفة والثقافة ، فإن التفريغ يحرض على أن تحمل أحدآها محل الأخرى ، وكل الذين تعلموا في مدارسه وبعثاته أحسوا بمحاولة إحلال مفاهيم غربية بدلاً من مفاهيمهم بالنسبة لكل القيم .

وأمانتنا عديد من هذه التجارب ، فأحمد سكوتوري في قلب إفريقيا يقول : لقد تعلمنا من التفريغين الإفريقيين في مدارس الإستعمار تاريخ فرنسا وحروب الفال وحياة جان دارك وتايليون وقرأنا أشعار لامريتين ومسرح مولير ، ودرسنا التنظيم الإداري لفرنسا كما لو كانت بلادنا إفريقيا دون تاريخ دون واقع جغرافي « ودون ثقافة دون قيم دون أخلاق . »

وقد قدم الإستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منها الآت ترتبط مصالحها بعلم الإستعمار ، لقد أراد المستعمرون للعلم الإفريقي أن يطل في سوية ثقافته منحطة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد الخطاطا ، ولقد أراد المستعمرون للتفريغين أن يفكروا بدبكارت برغسون ، ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقي ، لهذا يعرف كثير من شبابنا فلسفة الفكرن الأفريقيين ، وإذا استمر الأمر بما على هذا النحو فلن نستطيع أن نبني شخصيتنا الأفريقية التي هي الطريق الوحيد للنهضة في إفريقيا »

٢ - وفي الهند يقول « هابون كير » : كثيراً ما يقال إن اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزى هما خير هبة وهبها إنجلترا للهند ، ولاشك إن ذلك صحيح إلى حد بعيد ، فالتأثير الإنجليزى في أزيائنا وعاداتنا وتقاليتنا الاجنبية ، كان تأثيراً كبيراً ، ولكن التأثير الذى حدث في تكويننا الفكرى والروحي كان تأثيراً بعيداً الآخر ، إنما نظر إلى الغرب بانتظار إنجليزى ، ولا تصل الحياة الفكرية في أوروبا إلا عن طريق إنكلترا ، ولا شدوق الأدب الأجنبية إلا كما يتذوقها الإنجليز . بل إنما نظر إلى الأدب الشرقي بمعظمه إنجليزى »

٣ - وفي لبنان يقول أمين اليعانى « إن في أكثر المدارس السورية اليوم روطاً

اجنبياً من شأنه أن يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان »  
لو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان لقتل فيهم حب اللغة العربية » وفي البلاد اليوم سياسة  
تعضد المدارس في خطتها فتوسيع ائلته بينما وبين المرب وبلادهم ، والمدارس تنشر  
في لبنان : ان فرنسه أعظم ام الأرض ، هي أشرفها وأغناها وأرقاها ، بل هي قطب  
المدينة وعاصمة النور ، كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم في كأس التهويه ، هي  
كأس الجهل . ونسرت فرنسا إلأى في أدابها . تلك الأداب التي زادتني ضيقاً وتردداً في مضمار  
الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية .

٤ - وفي الجزائر يقول بمقاسم التعليمي : لقد تخلصنا من الاستعمار الأوربي ولكننا  
لم تخلص من القيود المادية ، فتأثير الحضارة الأوربية من الناحية الروحية والثقافية  
ما زال موجوداً ، فنحن لا زال مستعملون لغة مستعمرينا الأقدمين وعاداتهم وأخلاقهم  
وطريقهم في التفكير والعيش » وهذه الممارسات قد تغلقت في تكوينا الروحي إلى حد  
بعيد بحكم التقليد وطول المعايشة . ولا يبدو أن هناك آنحاءاً جدياً لتصحيح هذا الوضع  
ووسم الخطط للتحرر الروحي والعقائدي بعد التحرر الاقتصادي والسياسي .

والسبب الرئيسي في أزمتنا يكمن في التصادم الحاصل بين قوتين متعاكستين تجذبنا  
كل منهما إلى جهة معايرة ، وإن شدة التناقض بين هاتين القوتين هي من الفاعلية  
وتأثير بدرجة تكاد تتشكل معها عواولات التوفيق والتلاقي التي وقعت منذ عشرات  
السنين بين الحضارة الغربية الإسلامية وبين الحضارة الأوربية ، ويؤدي هذا التصادم  
إلى الرجوع إلى الماضي لنعرف كيف جرى الاتقاء ولماذا لم يفعل التعايش بينهما .

الحضارة الأوربية منذ نشأتها عند اليونان والروماني يلاحظ أن الطابع الأساسي  
لأنسان هذه الحضارة أنه ملتصق بالأرض وتنكمش صلاته بالسماء واهية ، ذلك  
لأن البيئة الطبيعية الأولى التي نشأ فيها وكونها كبيرة من مقوماته النفسية والعقالية  
وطبعت حضارته بطبعها خلاص كأن بيته قاسية المناخ والتربيه يسودها البرد والصقيباب  
معظم أيام السنة » وتنكمشها النباتات القائمة والثروة المترآكة . كان هـ الإنسان في هذه  
البيئة التغلب على الطبيعة القاسية ، وحين احتاج إلى عنون روحى مساعدة في كفاحه المرير ،  
خلق ألمة تحمل القوى الطبيعية التي تحيفه وترهيه وقدم لها القراءين والفحايا ليتعلماها

ويستدر عطفها » وَمَنْ يَخْطُطُ الْأُورُبِيُّونَ خَطْوَةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَمَامِ عَنْ طَرِيقِ التَّوْحِيدِ كَمَا فَعَلَ الشَّرْقُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرُو مَانِعًا مِنْ اعْتِقَادِ الْبَيَانِ الْمُسِيَّحِيِّ الَّتِي وَفَدَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الشَّرْقِ بَعْدَ أَنْ حَوَّلَهَا مِنْ عِقِيدَةِ تَرَاقِبِ ضَيْبِ الْإِنْسَانِ وَسَلْوَكِهِ إِلَى عَجَدِ طَقوسِ تَعْبُدِهِ يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ لِيَكْفُرَ عَنْ خَطَايَاهُ أَوْ يَسْتَدِرَ عَطْفَ الْأَمَاهَةِ وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلَّدِينِ تَلْكَ الْفَعَالِيَّةَ الْيَقِظَةَ الَّتِي تَسْيِيرُ عَمَلَ الْإِنْسَانِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الْإِسْلَامِ » .

٥ — ومن المغرب يبدو جانب آخر من الصورة يقول : أديس الكتافى « أن التفكك انطليقى الذى يحيى اتجاه التفكير الوطنى فى بلادنا اليوم هو بداية عمار التعليم الفرنسي الالادينى الطعم بالسموم المدسوسة الذى حضر ببنية القضاء على طاقاتنا الروحية والخلقية والذكى الذى هي عناصر استقلالنا وقوتنا ووحدتنا .

لقد مررت ثلاثة أعوام على استقلالنا لم يتغير فيها وضع اللغة العربية الدليل الأقليل بينما حصنت اللغة الفرنسية في مراكزها أشد من تحصن الجيوش الفرنسية في مسكناتها . فلم تتخل عن شبر واحد من امتيازاتها ونفوذها ، لا في المدرسة الابتدائية والثانوية الإسلامية ولا في إدارات الدولة وصالحها ولا في الشركات والمؤسسات العمومية ولا في أسماء الشوارع والأحياء الغربية ، فالارشال ليوطى لا يزال قائماً على فرسة وسط المدينة » وعندالهزيمة الغربية مازال متتصباً أمام تشارل ليوطى فضلاً عن احتلال ألف وثلاثمائة من الأعلام الفرنسيين لشوارع عاصمة المغرب يقضى بالموت على ألف وثلاثمائة علم مغربي عربي .

وشارع هكتور هيوجو في الدار البيضاء يسكن فيه مائة منزل ( ٧٠٠ من المغاربة ) يذكرون هذا الاسم كل يوم ، في خطاباتهم ، والطلبة في مدارسهم ، في أوراق وملفات الحكومة وسماعة البريد ويجد تلاميذنا أنفسهم مدفوعين للاهتمام بدراسة شخصية فكتور هيوجو باعتباره أحد معارفهم في الحي .

أن الشاعر الفرنسي فكتور هيوجو لم يعت في فرنسا ولم يعت في تونس ، ولم يعت في الجزائر ، ولم يعت في المغرب ، إنه حى في أوربا وأفريقيا وفي كل مكان توجد فيه

قرننا ، مسكن أبو العلا المجرى لا يعرفه أحد من سكان حيناً ولا النبي ، ألف وثلاثمائة من مواطنين أفرنسين على واجهات شوارعنا وتنصب لهم التماثيل ، أدباء وعسكريون ورواد الاستثمار الأوائل .

وفي المغرب ١٨٠ ألف من اليهود المغاربة عمل الاستثمار على عزّلهم عن الشعب المغربي وفرنسهم لغة وعاظنة ، وإنضمّ تعليمهم لإشراف مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وهي مدارس تابعة للاتحاد العالمي لجمعيات OR الذي يوجد له فروع في ٣١ دولة ليس بينها أي دولة عربية باستثناء تونس والجزائر والمغرب .

ونظم التعليم في بلادنا (١٩١٢ - ١٩٥٣) جعلتنا نعيش داخل قبة بلغتها لا يكفي مجرد إلقاء نظرة واحدة على ما يجري في العالم والتبعية الفنية تستلزم تلقائياً التبعية الفكرية طالما أن الإنسان يفكّر بواسطة اللغة » .

\* \* \*

ولاشك أن هذه الصور المختلفة للتغريب الثقافي تعطي صورة الخطر التي يهدد الفكر العربي الإسلامي من ناحية قصور التفرقة بين المعرفة والثقافة وفي مدى الأثر الذي تحققه سيطرة التغريب بعد سيطرة التفود الاستثماري باعتبارها امتداد له .

وليس معنى التنصيص على هذا أثر التغريب يعني الانفصال عن الفكر الإنساني أو إغلاق الفكر العربي الإسلامي . ولكننا ندعو إلى أمر واحد هو بناء شخصيتنا مستقلة أساساً ومقومات فكرنا قائمة أصلاً ومفاهيمنا سليمة ، دون انعزالية في التفكير ودون ذوبان في الفكر الأجنبي . وصدق ساطع الحصري في قوله « أن الدين حاربوا بشدة السيطرات الثقافية التي فرضتها القوى الأجنبية على البلاد ، كانوا بمقدار جدّاً عن الانعزال ، ورغمهم في الاستقلالية من ثقافات العالم لم تكن أقل من طموحهم إلى رؤية العالم العربي متممّاً باستقلال يضمن ثقافة قومية عصرية موحدة » .

وغاية الأمر في هذا كله : (أولا) هو أن تفكك بلقتنا أساساً ولا تفكك بلقنة غيرنا  
والاستهان الفكري يتسرّب عن الاستهانة اللغوية ، باعتبار اللهمة هي نافذة السكر .

(ثانياً) أن ترتبط بعقولنا أساساً وفي ظل هذه المقومات نواجه الفكر  
الإنساني ونأخذ منه ونترك .

(ثالثاً) أن نحتفظ بالذور والتراص قاعدة لنا ، أن التطور لا يتم إلا على شرط ممتد  
من الماضي إلى المستقبل ، أن بناء الحاضر والمستقبل يقوم على قاعدة من الماضي وأن الدين  
ينسّكرون للماضي هؤلاء الذين ليس لهم تاريخ ، أن بعض الأمم الكبرى بدأت من القرن  
السادس عشر أما العالم العربي والإسلامي فله تراث ثلاثة عشر قرناً ولا يمكن أن  
يبدأ من القرن العشرين .

## بين التسامح والتتعصب

إن للقيم الإنسانية في كل ثقافة مفهوماً أساسياً مختلفاً عن مفهومها في الثقافة الأخرى. ففي مجال الحرية مثلاً تجد المفهوم الغربي مختلفاً اختلافاً واضحاً عن مفهوم الفكر العربي الإسلامي. فالغرب يؤمن أساساً في جذور فكره بنظرية قديمة منذ أيام الحضارة الرومانية تقول «إن العالم هو روما وكل ما عداه عبيد». وقد تطورت هذه النظرية في ظل الحضارة الغربية على نحو متدرج في نظريات متعددة.

(١) الرجل الأبيض : فالإنسان الأبيض لا الإنسان عامة هو وحدة تاج الخلقة وأن النصر له في كل صراع ينهي وين عدمة من الأجناس الملوثة، وعبارة الساكن الأمريكي الأشهر شتايغفال في هذا هي «الرجل الأبيض لا ينبل»، وهم حين يكتبون تاريخ الحضارة ينقلونها بين الشعوب البيضاء ابتداءً من شعب اليونان إلى الرومان والطليان والبرمن ثم ينكرنون فضل الفراعنة والبابليين والعرب والمسلمين، وعندئم أن أي شعب ملون يسيطر على قيادة العالم لابد أن ينهاه، لأن أصحابه ليسوا من الجنس الأبيض. وقد كان ذلك موقفهم من العرب والمسلمين والصين.

(٢) السامية والإدارية : وقد استخدم الاستعمار الغربي هذه النظرية على نحو متقتل. وقد كانت أساساً نظرية لتوية ولتكنه تماهاً وأعطافها القوة ونشرها بوسائله ليثبت أن الجنس الأدري الذي منه الغرب أرق من الجنس السامي الذي يستعمره الغرب.

أما الحرية في الفكر العربي الإسلامي فتتمثل في تساوى النظرة إلى الأبيض والأسود والعربي والأعجمي. وكون المفاضلة إما تكون بالعمل.

وأبرز مظاهر الحضارة التربوية أنها تجعل نعها لأهلها وتفاقها لأهلها وقد أكد كثيرون من الباحثين على أن الثقافة الغربية في عتها العلمي والأدبي والفنى والصناعى لا ترى إلى خدمة «الإنسان» من حيث هو بشر بل إلى خدمة الإنسان التربى قبل غيره وعلى حساب غيره .

ومن غرور الإيمان بسيطرة الفكر الغربى على الفكر الإنسانى كله والفكر العربى الإسلامى بوجه خاص أن يعتقد الغربيون بأن نظرية أى منهم ومذاهبه حقائق زاهية يجب على العالم أن يتقبلها ، بينما هى أنفسهم مضطربون بين قبولها ورفضها وبين التحول من نظرية إلى نظرية دون إقرار شىء .

ومن نظرة الغربيين إلى العالم وتقسيمه إلى رومان وبرابرة ظهرت فكرة التمصب الغربى والمداء للفكر العربى الإسلامى والدعوة إلى التغريب والتبشر والتغزو الثقافى فى عاولة لخارج العالم الإسلامى والعربى من مفاهيمه الأساسية لكل القيم الإنسانية .

ولقد يتحدث الفكر الغربى كثيراً عن التسامح والتمصب . فالتسامح دعوة جليلة يدعونا إليها داعماً ، والتمصب اتجاه ذميم ولكن متى كان الفكر الغربى متسامحاً غير متمصب .

إن تمصب الغرب ييدو في عشرات من المسائل . ييدو في إخراج العرب والمسلمين من أوربا ، ومعارك تصفية الأندلس ومعارك تصفية أوربا من الأزرار معروفة لكل باحث ، وإيمان الغرب تمصباً منه بأن لا يكون في أوربا فكر عربى ولا عرب ولا مسلمين أمر لم يعرفه العرب والمسلمون في بلادهم وكان في مقدورهم أن يعلوا ذلك بالنسبة لنير الأذرب والمسلمين .

وتمصب الغرب في إنكار دور العرب في الحضارة وأثرهم فيها ومحاربة العرب من العلم العربى عند نقله إلى الغرب بدل دلالة واحدة على ما يتميز به الفكر الغربى من تسامح .

وليس الحديث عن المساواة والأخاء والحرية والتسامح في الفكر الغربي إلا باعتبار واحد ، هو أن هذه القيم خاصة بالجنس الأبيض وجده ، هؤلاء الصفة الذين و كانت إليهم قيادة العالم .

وسورة التمعصب والتسامح تبدو واضحة في النظرة إلى الخلاف بين المذاهب ، فقد اختلفت المذاهب في العالم العربي الإسلامي دون أن يكون ذلك مدعاه لأى صراع ، أما في الغرب فقد كان الصراع بين المذاهب يصل إلى ذرعة التمعصب ، وقتل الكاثوليك والبروتستانت الذي امتد سنوات في هولندا لامداد الحركة البروتستانية معروفة ، وقد قتل ٢٥ ألف بروتستانتي في فرنسا ، وكذلك حرب الامبراطور فردینان لخو البروتستانية من ألمانيا ، وما أدى إليه من تدمير خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية وقتل ١٢ مليون نسمة ، هذا بالإضافة إلى الصوره البشعه التي سجلها التاريخ لحاكم التفتیش ، كل هذا من شأنه أن يعطي صورة التسامح والتمعصب بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي .

وتبدو صورة التمعصب الغربي واضحة في قول مونتسيكو :

« إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا الكتب لأخذ الزوج عبيدا فإني أقول أن شعوب أوروبا بعد أن أفت سكان أمريكا الأصلين ، لم ير بما من أن تستبعد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة » وهذه الشعوب ما هي الاجماعات سوداء البشرة لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله وهو ذو الحكمة السامية قد خلق روحًا طيبة في جسم حاكم السواد » .

وقد صرور هذا التمعصب « جوستاف لوبيون » حين عرض لدور العرب والمسلمين في المغاربة الإنسانية وقال : أن حرية الفكر في الغرب تتحقق لدى الأوروبي عندما يعتقد فكرة إلى بحث فكر العالم الإسلامي » فالفهم الصليبي المعمق الآخر في النفس التراثية يحول دون حرية الرأي في الإسلام ويحول دون قيام أي محاولة حرة لاعطاء الإسلام والفكر العربي الإسلامي ما يستحق من التاريخ والحياة .

وقال : أن الدراسات الإسلامية التي تناولها الأوروبيون منحرفة ومشوهة بما ينافي  
منهج العلم من الذانة والتصصب .

ويبدو منهوم التصصب والتسامح في موقف الفكر العربي الإسلامي من الفكر  
الغربي وبالعكس . ففي الوقت الذي يواجه الإسلام والعروبة واللغة العربية بالأذداء والنقد  
والتشكيك على ما فيه من صلاوة وعまさك وقوفة لا يوجه الفكر العربي الإسلامي مثل هذا الأذداء  
والاحتقار إلى الفكر الغربي ولا إلى أوروبا ولا إلى المسيحية الغربية . وفي الوقت الذي  
يعمل الغرب على عزيق القيم العربية الإسلامية وإثارة الشبهات حولها لا يجرئ فكرنا  
في نفس التيار ألا يقدر ما يحاول الرد على ما يهاجم به .

نعم ؟ لم يقف الفكر العربي الإسلامي مسوقاً للتصصب والبحث عن التنازات  
بل أبدى التكريم للمسيحية والتقدير لرثاء الفكر العربي واختلف مع جواب معيته وهذه  
آية التسامح الحق .

وتبدو صورة التصصب والتسامح واحدة في موقف الغرب من العالم الإسلامي منذ  
الظروف الصالبية إلى اليوم ، يبدو ذلك في إقصاء روح الفكر العربي الإسلامي عن الفكر  
الغربي مع الانتفاع بكل ما أضنه الفكر العربي وإنكاره فضل العرب والسلميين «  
وتحويل منهج الفكر العربي الإسلامي في البحث العلمي إلى منهج غربي مع عدم الاعتراف  
بفضل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية . وبطريقون كلة القرون الوسطى المظلمة على فترة ازدهار  
الحضارة العربية الإسلامية » مع إنكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية الوسطى بين  
الحضارة الرومانية والحضارة الغربية » هذا إلى تبع التقاضي الفكرية الغربية الإسلامية  
والتشكيك والاتهام والاستنقاص . وإثارة حالة من الشبهات حول الإسلام » واللغة  
العربية ، والتشريع الإسلامي والوحدة الفكرية بين العالم العربي ، والدعوة إلى عدم  
الأخلاق والقيم ، إثارة دعوة الأقلية والأمية والآحاد والسلبية والاباحة .

تم محاولة الحكم على الاسلام بأنه دين لا هوئي ، وإنكار كونه حضارة وثقافة ومجتمع .  
تم محاولة فصل الفكر العربي الاسلامي في جوهره عن الحياة في مجال القانون والمجتمع  
والاقتصاد واتهام الفكر العربي الاسلامي بالتجريد والقيبيات ، وتحريف تاريخنا وتحطيم  
أعلامنا وتحويل تيار الترجمة . من الإيجابية إلى الإنحراف .

ومن أساليب التعبس والتسامح في الفكر الغربي قولهم أن الفلسفة العربية ليست  
إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وعشرات أخرى من الاتهامات الجديرة  
بالكشف عن وجه الحق فيها . . .

## محاولات التغريب

لماذا حرص النزب على غزو الفكر العربي الإسلامي وإخضاعه لسيطرة « بوسائله الثلاث : التيشير والتغريب والشمعوية »

للإجابة على هذا لا بد من المودة إلى عام ١٩١٨ م عندما وقف اللورد النبي في « القدس » بعد أن دخلتها جيوش الحلفاء وأعلن كلامه التغريبية التي أثارت الدهشة : قال : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

وكان الحروب الصليبية قد انتهت عام ١٢٩١ م ومضى عليها أكثر من سبعة قرون غير أن النزب لم ينس أنه مطالب في يوم من الأيام بإعادة السيطرة على العالم الإسلامي مرة أخرى ، فإذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت في ذلك من قبل ، فإنها استطاعت أن تتحقق ذلك عام ١٩١٨ أحينها أمنت قوى الاستعمار الغربي : الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والمولندي سيطرتها على العالم الإسلامي .

والواقع أن هذه السيطرة العسكرية كانت الخطوة النهائية لحالة ضخمة قام بها الغرب في سبيل تأكيد نفوذه منذ أوائل القرن التاسع عشر بغزو بريطانيا للمهند و هو لاندا لا أندونيسيا ، وفي العالم العربي عام ١٨٣٠ حين دخلت فرنسا والجزائر . ثم كيف أحضرت الدولة العثمانية بفقدان خفي وسلطان دخيل في مختلف أقطارها و حول مقر الخلافة نفسه .

ولقد كان النزب منذ بدأ نهضته الصناعية قد ربط بين الحضارة والاستعمار وولى وجهه نحو العالم الإسلامي ك مجال حيوي للسيطرة على موارد الخامات وسوقاً لبيع منتجاته . ومن هنا كان من الضروري عليه أن يسيطر سيطرة كاملة على هذه المنطقة التي تقوم فيها الثقافة العربية الإسلامية بجذورها المتصلة بالاسلام واللغة العربية والقرآن ، وحيث كانت هذه المنطقة مهيمنة الأديان السماوية الثلاث وكان الإسلام بطابعه الواضح

في المزج بين المادية والروحية على نحو لم يعرفه الغرب الذي تقوم ثقافته وحضارته على المفهوم المادي الخالص ، وحيث تبدو صورة الشرق ( وهو ما يسمى الأقصى ) وثقافته تقوم على أساس المفهوم الروحي الخالص .

ولقد كانت ثقافة العالم الاسلامي المستمدّة من مفاهيم الأساسية تقوم أساساً على روح الحرية والعزّة والقوّة والجهاد ومقاومة كل من يحاول السيطرة عليها أو اغتصاب مقدراتها . ولذلك فقد كان النفوذ الغربي حفياً لأن يقضي على هذه القوميات الأساسية بافسادها وإدخال الشبهات والشكوك والزيوف إليها على نحو على نحو على دقيق منظم .

ومن هنا بدأت حركة « التغريب » تنمو في ظل التبشير والاستشراق ، وتجري محاولتها الأساسية في إفساد مفاهيم الاسلام واللغة العربية والقرآن وترتيف التاريخ . وإدخال مناهج ومفاهيم مفترضة مختلفة متناقضه ودعوات متعارضة تحمل ألوية الألحاد والإباحة والتحلل والشمعوية ، وتدعوا إلى الاقليمية والقومية الضيقية والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية وتخلي دعوات الفرعونية والبابلية والأشورية والفينيقية والبربرية على نحو مثير غريب لاحد لاندفاعة وتحوله .

ومن خلال حركة « التغريب » برزت دعوة « الشمعوية » التي تقوم أساساً على احتقار التراث العربي الاسلامي ، وبث الشكوك في التاريخ والأدب واتهام الاسلام بالقصور ، والعروبة بالنقص .

ومن هنا تداخلت حركة التغريب والشمعوية تداخلاً خطيراً . وفيها يحمل اللواء كتاب غربيون ومستشرقون ويتبعهم كتاب من العالم العربي والاسلامي ، وتقوم عليها صحف واسعة الانتشار ودور نشر ضخمة في بعض العواصم العربية تصدر مؤلفات أنيقة و مجلات رائجة ، وتطاولها هيئات ثقافية ودور تعليم ومعاهد وجامعات .

وأبرز ما تهدف إليه حركة التغريب والشمعوية تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصلية للامة ، وإلقاء بنور الشبهات حول كل قيمة ومفهوم ، في مجال الفكر والدين والمجتمع والتاريخ .

وهي تُحاول أمرين خطيرين :

الأول : إدخال مفاهيم الترب للقيم الأساسية .

الثاني : إحلال قيم الفكر الغربي محل قيم الفكر العربي الإسلامي في مجال المجتمع والمرأة والدين والنظم السياسية والاقتصادية .

وليس شك أن محاولة فرض مفهوم واحد من مفاهيم الغرب لقيمة واحدة من قيمنا كالدين مثلاً ، من شأنه أن يخلق أنثاراً بعيدة المدى في كل مجال الفكر والمجتمع والحياة . فالدين في المفهوم الغربي مختلفاً وانحياً عن مفهوم الفكر الإسلامي » فضلاً عن أن الإسلام ليس ديناً خحسب ولكنه دين وفكرة وحضارة .

وليس شك أن كل قضايا الإنسان والحياة والمجتمع في نظر الفكر العربي الإسلامي الذي يقوم على أساس المزج بين الروح والمادة مختلف عن وجهة نظر الفكر الغربي الذي يقوم أساساً على المادية ، هذا الاختلاف الجذري من شأنه أن يجعل لنا وجهة نظر مختلفة عن الترب في كل مسائل الثقافة والتربية والمجتمع والأخلاق .

ومن هنا يبدو مدى خطأ قبول مفاهيم الفكر الغربي للقيم الأساسية .

وقد امتدت حركة التغريب في ظل حركات التبشير والاستشراق ، واستطاعت أن تكون لها مراكز قوية ودعاة وأعواانا في ظل قيام النفوذ الاستعماري » فلما بدأ ينحسر هذا النفوذ باستقلال أغلب دول العالم الإسلامي اليوم بدأ نفوذ التغريب أشد قوة في ظل الدعوة إلى التجديد والتطور والعلمانية والحضارة » وقد وجد فيها منافذ إلى فرض وجهة نظره وتأكيد هدفه في مقاومة يقان القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي بما يُعكّنه التشكيك فيها وتدميرها . وإفساح الطريق لفرض قيم جديدة . وهذا ما أطلق عليه التزو الثقافي أو الاستعمار الفكري ولا شك أن محاولات التغريب وجدت طريقها في ظل بعض الأفلام السينمائية الأجنبية المتحللة والكتب التربية المترجمة

والروايات والصحف والمجلات وأن تجد من كثير من ذوى التفوذ في بعض أقطار العالم العربى من أدباء وশرعيين واقتصاديين وأساتذة في الجامعات ورؤساء تحرير الصحف ركائز لها وأدوات للاطلاق والبث .

وقد استطاعت حركة « التغريب » في مرحلة السيطرة العسكرية والسياسية على العالم العربى الاسلامى أن تحقق كثيرا من التأثير . وإذا كانت قد بدأت أول أمرها بالتبشير الذى أثار كثير من الاضطراب ، وواجهه العالم الاسلامى والأمة العربية بالمقاومة والتحدي ، فإن التغريب لم يلبث أن غير خطأه وأخفى هدفه وراء مظاهر البحث العلمى وأضمر محاولته في ظل مخطط ضخم قوامه الفكر والأدب ، وفي هذه المرحلة حرص على أن يتقادى الاصطدام بالواجهة أو المارضة . وإنما أخذ أسلوبا من الخداع دقيق الدخل ، ومن هنا تحول كتابات المستشرقين والبshiren إلى ابراز مظاهر الاعجاب والتقدير للغة العربية والاسلام والشرق والتغريب ، في مقدمات تستطيع أن تخندع البسطاء ، ثم لا تلبث هذه الدراسات أن تتسلل إلى المهد بالتشكيك في القوميات الأساسية وإثارة الشبهات والريب في المقاديد والقيم .

وقد استعانت حركة التغريب في هدفها هذا بعثات من المخطوطات والمؤلفات والكتب القديمة التي اغتصبت وسرقت من بلادنا على فترات طويلة في ظل التفوذ الغربى وأرسلت إلى مكتبات لندن وباريس وغيرها ووضعت تحت تصرف الباحثين الذين كانوا يعلمون وفق خطة مرسومة في زيارات الاستهبار الغربية . فقد استغلت كثيرا من الأبحاث والمؤلفات التي كتبها الشعوبيون القدماء في حملتهم على الفكر العربى الاسلامى ، وهي مؤلفات بادت في الأغلب ، ورد عليها الباحثون العرب كالملاحظ وأبو حيان التوحيدى وغيرهم وفندوا ما فيها من اتهامات وأخطاء وزيف ، ومن هنا يبدو مدى تأmer بعض المستشرقين وكتاب الغرب في استغلال هذه الاتهامات وإعادة توجيهها إلى الفكر العربى الاسلامى وإثارةها في أسلوب جديد على أنها قضايا أساسية . وإنأخذها سلاحا للتشكيك وإثارة الريبة بين المعاصرين عن ماضيهم وتاريخهم وقيمهم .

هذا فضلاً عن ماقصد إليه دعاء التغريب من إبراز جوانب معينة من الثقافة العربية الإسلامية والدعوة لها . وأية ذلك الاهتمام بكتاب الأغاني (للاصفهاني) ومحاولة اعتباره مرجعاً أساسياً للأدب العربي القديم بل للتاريخ الإسلامي، مع أنه واحد من كتب الترف والترفيه . ولم يقصد كاتبه فقط إلى أن يجعله مرجعاً للبحث العلمي ، ولكن التغريب استطاع أن يجد باحثاً كالدكتور طه حاول أن يرسم من خلاله صورة للعصرين الثاني والثالث المجري فيقرر على ضوء دراساته بعض الشعراء الماجنيين كأبي نواس والضحاك . . . . أن هذا العصر كان كله عصر شك وتجون .

ومن هذا يبدو الاهتمام بالأساطير المتعلقة بالسيرة النبوية وإعادة بعثها وأحيائها خلقاً، الاضطراب والشهادات حول حياة النبي وموئلاته .

وكذلك ما أولى التغريب من اهتمام برباعيات الخيام وكتاب ألف ليلة وليلة وخرابات، أبي نواس الذي كتب عنه أكثر من عشر دراسات تحليله وصدر عنه أكثر من عدد خاص من مجلات كبيرة وكان فيه هو أبرز موضوعات مؤتمر المستشرقين بروما عام ١٩٦٤ وكذلك الشاعر بشار ، وفي مجال «التصوف» أولى التغريب اهتمامه بالشخصيات المضطربة المثيرة ، البعيدة عن حقيقة التصوف ومفهوم الإسلام كالجلوح وابن عربي والشهوردي . ثم ما انتصـل بذلك من هدم شخصيات ضخمة في الفكر العربي الإسلامي كهاجة المرى وابن خلدون والتبني ، فقد وضـت دراسات «عـلمـية» حـاـولـتـ التـشـكـيـكـ فيـ عـظـمـةـ هذهـ الشـخـصـيـاتـ الـثـلـاثـ وإـهـمـ بـضـفـهاـ بـالـاضـطـرـابـ . وـقـدـ عـنـ الدـكـتـورـ طـهـ حـسـينـ بـأـنـ يـهـدـمـ المـتـبـنيـ منـ نـاحـيـةـ الشـكـ فـأـبـوـتـهـ وـاعـتـبـارـهـ لـقـيـطـاـ ،ـ كـاـ حـاـولـ مـنـ التـهـيـنـ مـنـ قـدـرـ ابنـ خـلـدونـ وـمـكـانـهـ فـيـ التـحـلـيلـ التـارـيـخـيـ وـرـيـادـتـهـ فـيـ عـلـمـ الـاجـمـاعـ .

\*\*\*

ثم جـرتـ المـحاـولاتـ إـلـىـ التـفـرـيقـ بـيـنـ الـعـربـ وـالـسـلـمـيـنـ فـيـ مـجـالـ الـخـضـارـةـ الـاسـلـامـيـةـ وإـثـارـةـ تـزـعـاتـ الـعـصـبـيـةـ الـجـنـسـيـةـ الـتـيـ لمـ يـعـرـفـهاـ الـاسـلـامـ .ـ ثـمـ مـحاـولةـ ردـ التـرـاثـ الـعـلـمـيـ الـاسـلـامـيـ الـعـربـيـ إـلـىـ أـصـوـلـ بـعـيـدـةـ كـالـفـرـسـ وـالـهـنـودـ وـالـيـونـانـ وـالـبـيـزـنـطـيـنـ وـإـثـارـةـ نـظـرـيـةـ السـامـيـةـ وـالـأـرـيـةـ وـالـتـرـكـيـزـ عـلـيـهـاـ وـتـوجـهـهـاـ إـلـىـ الـرـبـ وـعـقـلـيـتـهـ وـفـكـرـهـ .ـ ثـمـ إـثـارـةـ عـلـيـاتـ الـكـشـفـ الـأـرـىـ وـاستـنـالـهـاـ فـيـ تـعـزـيقـ وـحـدـةـ الـعـالـمـ

الإسلامى والأمة العربى فى محاولة لتصوير تاريخ كل قطر وكأنه مستقل عن القطر الآخر أصلًا ، له مميزاته وتاريخه ومخاله وحقائقه . مع أن هذه الأمة كلها ذات تاريخ واحد له طابع واحد أساسه فكرها العربى الإسلامى الموحد ، وأن ما يبدو من خلافات إقليمية ليس إلا ظواهر طبيعية فى تبادل البيئات لارتقى إلى درجة الفوارق العميقية الجذرية . ثم اتجهت دعوة التغريب إلى الماضي القديم السابق للتاريخ الإسلامى فى كل قطر ، فأولت المغاربة الاهتمام بالماضى الفينيقي والروماني ومصر بالماضى الفرعونى ولبنان بالماضى الفينيقي \* وال العراق بالماضى الأشوري .

ثم كانت محاولة ربط عبقرية أعلام كل وطن بالأرض لابن الثقافة الإسلامية العربية الموحدة فالفردوسى والفازى فارسیان الفارابى تركى ، وهكذا .

ثم جرى التغريب على خطبة الاهتمام الواسع بدراسات عن العالم الإسلامى قبل الإسلام وإبراز مخلفاته التاريخية ومذاهبه وأدیانه وفرقه ونحله والاهتمام بالحركات المدamaة فى تاريخ الإسلام كالباطنية والقرامطة والخزامية والبابكية والتوسع فى دراستها . ثم الاهتمام بالتراث الذى لا تتصل بجوهر الإسلام لإثارة الشكوك والاضطرابات ، ومن هذا الترکيز على تراثات التصوف والتطرفة والفلسفه المفرقة ودعاة الإلحاد والحاول والفرق المنحرفة النسوية إلى التشيع اهتماما بالغًا .

ثم نجد من المحاولات التغريبية ما يذهب إلى أبعد مدى ، فهناك من يسقط المدنية العربية الإسلامية بسقاطها كاملا ، ويرى أن العالم لم يشهد بعد حضارة الرومان غير حضارة أوروبا وأن الفترة بين الحضارتين ما هي إلا (القرن الوسطى الظلمة) ثم هناك أسكار وتجاهل لأوليات الفكر العربى الإسلامى في مجال الجغرافيا والطب والفلك ، ثم إنسكار فضل الفكر العربى الإسلامى في الفلسفه والعلم . وكل ما يتصل بالفکر ، وإبراز النظريه التي تقول أن اليونان هم أصحاب الفضل على الفكر العربى \* ثم آثاره تراثات الفلاكلور ، وإقليمية الأدب والهججات العالمية والكتابه بالحرروف اللاتينية . والدعوة إلى الأممية والعالمية وإنسداد خطبة الترجمة بتحويلها عن الجانب العلمى إلى جانب القصص المكشوف .

وأثاره دعوات جديدة كالبهائية والروحية الحديثة ، وتمزيق وحدة الفكر العربى

الإسلامى بعزل الأخلاق عن التربية ، والدين عن الأدب ، وإثارة عشرات من الدعاوى ، الإلحادية والإباحية ، ومحاولة ترتيب نهضة العالم الإسلامي والعربي على الغزو والتربى .

\*\*\*

وهكذا جرت حركة التغريب وفق خطط منظم لتدمیر القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي بمحاولات متعددة مستهدفة أن يكون التغريب هو حل العالم الإسلامي على قبول ذهنية الترب و مذاهبه وقيمه ، بدلاً من ذهنيته ومذاهبه الأساسية وذلك بتزيف التاريخ وتشويه مبادئ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية وانتقاد الدور الذي قام به في تاريخ الحضارة الإنسانية وخلق الشعور بالنقض والشك في النفس العربية الإسلامية ومحاولة حملهم من هذا الطريق على التضييع لوجهة النظر الغربية ، وذلك بالعمل على إسکار القومات التاريخية والثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة مع الاستخفاف بها ومحاولة ذمها ، وكذلك توهين القيم الإسلامية واللغص من اللغة العربية الفصحى وتزويق الروابط بين أجزاء العالم العربي الإسلامي . ومحاولة غرس مبادئ التربية الغربية حتى تشب الأجيال الجديدة مستغربة في حياتها وتفكيرها وحتى تخف من نقوسها موازين القيم العربية الإسلامية .

\*\*\*

وقد عنيت حركة التغريب بأن تصور مرحلة بعدها مرحلة مدى ما وصلت إليه من نتائج ، ومنذ ذلك حين عاً مصدر كتاب «وجهة الإسلام» الذي كتبه المستشرق هاميلتون جب وجموعة من زملائه فتححدث عما وصلت إليه حركة التغريب من إبدال النظم والقوانين وطراوئ العيش » وأشار الدكتور هيكل – إذ ذاك – إلى « أن تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بحاضره جهد المستطاع في كل ناحية من التواحي ، تعزق صلة التفكير والعقيدة بين الماضي والحاضر » وصيغ ماضي الشرق بلون قائم مظلم يرحب عنه أهله ويرون فيه عاراً لهم ومن هنا يرون أنهم عيال على الترب يتطلعون إليه في إعجاب وتقدير وعبادة وبروز في حضورهم له شرفاً كبيراً » .

وقال الدكتور هيكل « أحسب أن كتاب الترب قد نجحوا إلى حد كبير في تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم ، وجعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم

الوفا من السنين تقتضي كانوا أثناً ثلثاً خاضعين لألوان من اللة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا بشعوراً حقيقاً بمعنى الحرية أو يعني الرازة القومية وأن هذا التصور زائف في نظر التاريخ المنصف .

وأشار الدكتور هيكل إلى محاولة حركة التغريب في تزييف تاريخ الشرق وإحلال النظم الغربية والتفسّكير الغربي في الشرق وإففاء شخصيته ، وقطع صلة حاضره بحاضره في التاريخ والعلم والتفسّكير ، وكذلك تزييف العقيدة حيث وكل إلى المشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة . وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأن هذه العقيدة هي سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب في حضارته .

وأشار إلى ما ذكره «شيخ المشرين» زوير في مؤتمر المشرين الذي عقد في فلسطين عام ١٩٢٧ عندما أشار إلى أن التبشر قد وصل إلى أسمى غلاته في مهاجنة الاسلام ، وأنه أدى المهمة على أكملها ، وانتهى إلى تأرجح لم يكن أحد يحمل بها منذ الحروب الصليبية . وقال زوير : أنه ليس غرض التبشير المسيحي هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين « فالسلم لا يمكن أن يكون مسيحيًا مطلقاً ، والتجارب دلت على استحالة ذلك » ولكن النهاية التي ترمي إليها هي إخراج المسلم من الاسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه ، وعندها لا يكون مسلماً أى لا تكون له عقيدة يدين بها فلا يمكن للسلم من الاسلام إلا اسمه « والملحد هو أول من يختصر الاسلام والمسلمين » وقال أن هذه هي أسمى مراتب الانتقام من الاسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زوير : لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الاسلامية منذ خمسين عاماً فآخر جنا منها القرآن وتاريخ الاسلام ، ومن ثم آخر جنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائل التي تخلق فيهم العقيدة الوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق .

وقال : الواقع أن القضاء على الاسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبيهير وقد جئينا منه أعظم التهارات المرجوة » ١ . هـ .

وهكذا تمثل دعوة التغريب في مرحلتها الأولى بعد أن اتفصلت عن «التبشير» وهي تحطط

عن طريق (١) تزييف التاريخ وتزييف العقيدة وتزييف الفكر العربي الاسلامي بإثارة الشكوك في القوميات الأساسية كاللغة والدين والتاريخ .

(٢) القضاء على مقومات الفكر العربي الاسلامي والقضاء على الدين بالذات كمفهوم أساسي منها ، وانزلاع الاسلام من مكانه كقوة ذات فعالية في الثقافة والمجتمع .

(٣) إفساد وتحويم أنظمة التربية والتعليم والقضاء على اللغة العربية والفصحي وعاصم الشعر ، والتركيز على الاقليميات الضيقية والميئات المحلية ومحاولة تصويرها بأنها ذات طابع خاص في كل وطن وقطر وإقليم (٤) الفصل بين القيم الأساسية للفكر وتزييف وحدة الاجتماع والأخلاق والأدب والدين والتربية .

وقد استطاعت حركة التغريب أن تركز على إقصاء كلايت «الإسلام» والدين والروحية ، كما استطاعت أن تزعزع عشرات من الدعوات والمذاهب كالوجودية ، والشيوعية والقومية الضيقية والعلمانية ، والبهائية ، والفرعونية والفينيقية والشرقية والطورانية وظهور من مفكري العرب والسلفيين من يدعوا إلى وضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمجازات والحياة الآخرة موسم البحث وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديث (آسف على فيضي) أو الدعوة إلى أن الدينية الأوروبية كل لا يتجزأ ومن المفترض قبول الحضارة والفكر الغربي مما «أحمد غايف (تركيا) وطه حسين (مصر)» .

ويبدو هدف التغريب أساساً متمثلاً في القضاء على كيان وشخصية الإنسان في العالم العربي والاسلامي بالقضاء على مقومات فكرة العربي الاسلامي الأساسية . ذلك أن دعوة التغريب كانت تقوم على أساس (١) التشكيل في القيم (٢) تحويل المفاهيم (٣) الدعوة إلى الاندماج الكامل في الحضارة الغربية (٤) القضاء على التاريخ والدين والتراث واللغة .

والواقع أن الفكر العربي الاسلامي في جوهره ومتابعه الأولى فكر طالق متتحرك قابل للتطور ، مفتوح للحضارات البشرية والثقافات الإنسانية ، يأخذ منها ويعطي . ولو أنه واجه الحضارة والثقافة الغربيتين بصرية لأخذ منها وأعطي دون أن يحدث الانحراف الذي كان نتيجة النفوذ الأجنبي الذي فرض عليه تقديم وجهات نظر تعارض مع مناهجه وعقائده عن طريق التعليم الأجنبي والصحافة الخاضعة للاستعمار وهو ما تحررت منه مصر وبعض الأقطار العربية وما تزال بعضها الآخرى خاصة له .

وأساس الخلاف بيننا وبين فكر الغرب أننا لا زلنا دينا وحسب كما يرى الغرب «السيحية» وإنما الاسلام دين وفكير ومجتمع . وأننا لا زلنا خلافاً بين المروبة والاسلام فهموا جهين لحقيقة واحدة . ونحن لا زلنا الحضارة كاثقافة ، فالحضارة ملك للإنسانية كلهما ولكن الثقافة مُرة روح الأمة ، والثقافة هنا تختلف عن المعرفة ، فالمعرفة عامة إنسانية والثقافة خاصة ونحن لا نؤمن بأن نقل الحضارة يعني نقل الثقافة . ولستنا نؤمن بأن ننقل أو نقتبس ، إلا على قاعدة فكرنا الأساسية وعلى ضوء مقومات شخصيتنا وفكرنا فناًخذ ما يزيدنا قوة وحياة ورفض ما سواه .

ويذكر الفكر العربي الإسلامي «الأعمية»، والجرى مع التيار مما يمسح شخصيتنا، كما يذكر المجدود، وعنه داعمًا من الرونة والجيوه ما يعكسه من التطور والتجدد دون تبعية أو اندماج «دون أن نكون خلاً أو علاء لثقافة ما من الثقافات ، فلنا مهافتنا بمقوماتها وقيمها الإنسانية العالمية . وليس فكرنا تراث قديم ولكنه ثقافة حية متطرفة مستمرة التأثير والفعالية . وليست لغتنا راكرة ولكنها حية فادة على الاستجابة » وقد قام فكرنا أساساً على وحده شاملة لـكل مقوماته ، فهو مرتبط بالتوحيد مؤمن بالانسان سيداً لـلـلـلـكـون في ظل الله ، وقد انتـقـ فـكـرـنـاـ عـلـيـ أـسـاسـ مـزـيجـ رـائـعـ منـ العـقـلـ وـالـقـلـبـ وـالـعـلـمـ وـالـدـينـ والـرـوـحـ وـالـمـادـةـ فـلـيـسـ هوـ روـحـيـةـ صـرـفـهـ وـلـاـ مـادـيـةـ غالـصـةـ .

ومن هنا كان موضع الخلاف بينه وبين الفكر العربي القائم في كل مناهجه ومفاهيمه على المادية وبالغم من أن معركة التغريب واجهت الفكر العربي الإسلامي في مرحلة النزو السياسي والمسكري وفرضت عليه التارة فرضاً، وأعطت المعركة وسائلها الضخمة في مجال التعليم والصحافة والكتابة وغيرها، فإن فكرنا لم يستسلم وقادم بكل قوة واستطاع أن يثبت وجوده ويؤكّد شخصيته وقد اعترف دعاة «التغريب» بأن المخلط الذي تقومه لم يتحقق هدفه كاملاً، وقال الفرد كاتنول سميث في كتاب (الإسلام) في التاريخ الحديث:

« لقد فشلت تجربة الغرب في الاحتفاظ بتقدير الشرق ، فشله في أن ينشر مثله العليا وقيمه الفكرية وطريقة حياته فشله في تغريب الشرق . وقد كانت الطارق ممهدة حين ابتدأ المسلمون في إصلاح أحوالهم فكروا أولاً مثل كل أمة لها تاريخ وليس لها حاضر في العودة إلى التاريخ ، فبرزت الاتجاهات السلفية إلى العصر الذهبي في الإسلام فظهرت دعوتان سلفيتان هما محمد بن عبد الوهاب والشامولي الله في المند ثم ظهرت الدعوة الثالثة التي هزت أرجاء العالم وهي دعوة جمال الدين (الأفغاني) في منتصف القرن التاسع عشر نجح حيلا ضخماً من المفكرين المسلمين كانوا يعيشون بقلوبهم مع الإسلام وعقولهم مع الغرب . غير أن الغرب قضى على نفسه بنفسه ، وتحول الشعور بالاعجاب بالغرب إلى نقشه حين تسمم جرح الكبراء بالأحداث » .

## الشعوبية الفاسكورية الحديثة

تتمثل الشعوبية الحديثة في الفكر العربي الإسلامي في صورة تختلف عن الشعوبية التاريخية . فهي تحمل معارضه صريحة لقيم الأساسية للفكر النا تمثل في الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، وهي من أكبر ركائز التزريب والنفوذ الأجنبي ودعامتها ومن هنا تتشابه الشعوبية الحديثة مع القديمة في المدف فقد كانت تلك تهدف أداب العرب وفكermen بالاتهامات والشكوك ونشر حوله الأحقاد ، وهي اليوم تمثل في بعض الم هيئات والمؤسسات والنظمات المنشورة في العالم الإسلامي والتي تحاول هدم الدين أو الله عن عقيدة أو تعمل في خدمة النفوذ الأجنبي والاستعمار .

وقد ظلت آثار كتاب الشعوبية القديمة مصدراً للحملة التي توقد على الفكر العربي الإسلامي إذ تثار اليوم نفس القضايا وتناق نفس الشبهات والشكوك وتعلن نفس الجوابات والاتهامات والإسرائيليات المدخلة إلى التاريخ أو السيرة .

وقد واجه الملاحظ ابن قتيبة وابن دريد وابن عبد ربه وغيرهم هذه الاتهامات وردوا عليها بما يكشف الحقيقة ، ولكن الشعوبية الحديثة تتجاهل الحقائق وتحجبها وتعيد إثارة الشبهات وحدها . فالشعوبية اليوم هي « غرة » التزريب وأداته ، وهي ليست صراعاً بين ثقافتين وسلطانين كما كانت الشعوبية القديمة بين العرب والفرس .

وإذا قيل أنها تتمثل صراعاً بين ثقافتين وسلطانين فإنما تتمثل الشعوبية حلة ألوية التزريب ومحاولة فرض المفاهيم الغربية على القيم العربية الإسلامية ، وفي كل ماتعرض الشعوبية من .

أبحاث إنما تقصد به إلى التشكيك وإثارة البلبلة والنفع من قدر التاريخ واللغة العربية والإسلام والإغضاء عن فضل العرب والمسامين على الحضارة ، والانتقاد من بطولة الأبطال وعظمة الأعلام في مجال السكر أو الحكم أو الحرب والإعلاء من شأن القيم الفريدة والمفاهيم الفريدة ، وفرض النظريات والمذاهب والدعوات الفريدة التي تقضيها الغرب عن نفسه ، و العمل على تجزئة السكر العربي الإسلامي والقضاء على روح وحدته والفصل بين الدين والتاريخ والأدب والتاريخ ، والفصل بين الماضي والحاضر » وفرض المفاهيم الفريدة في مجال الدين والقومية والديقراطية والاشتراكية وإذاعة قدر كبير من الفاسفات والنظريات والمذاهب الفريدة المتعددة المتضاربة ، وخاصة ما يتصل منها بالتشكيك في القيم الروحية والمثل الإنسانية ، والتي تحاول أن تفرض : المادية ، والجنس » والفربرة » وفريدة الإنسان وتأكيد حيوانيته .

وعندنا أن حلة لواء هذه الدعوات هم شعوبيون ، وأن هذا العمل الذي يقوم به مستشرقون وكتاب من العرب وغيرهم منشون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي إنما هي الشعوبية ولidea التغريب التي تتمثل المرحلة الثالثة للفوز الثقافي وكان التبشير حلقتها الأولى . فالمحلمة على راتانا ، والتشكيك في تاريخنا ، والدعوة إلى العالمية ، كلها حلقات من مخطط الشعوبية ما دامت تحمل طابع ( ١ ) الانتقاد ( ٢ ) الحقد ( ٣ ) التشكيك ، وكل كلة لا تتوافق فيها صدق النظرة وإخلاص الرأي ووضوح المدف ، تصدر عن قلم يخرج له ماضيه أو اتصالاته المشبوهة فهي دعوة شعوبية واقعية المدف .

وفي هذا المجال يكشف علم « الجرح والتعديل » عن الكتاب والمفكرين ومن تاريخهم وماضيهم يحكم عليهم ، فنـ كان تاريخه مرتبـاً بالـ تـغـريبـ علىـ أنـ يكونـ ذلكـ مؤـيـداـ بالـ دـلـيلـ والـ سـنـدـ فـ هـوـ مـنـ دـعـةـ التـغـريبـ .

وقد جرت محاولات الشعوبية وهي متقدمة في مجال الدراسات المختلفة في الماهد والكليات والجامعات في الوطن العربي والإسلامي إلى ما أسماه طه حسين « انتراع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن » وإلى الترويع للهيجات المحلية وفرضها ودراستها في الجامعات والمجامع اللغوية ، ومن شأن الشعوبية إثارة الخصومات كلاما فتر ، وإحياء الخلافات والشبهات كلاما أسقطت بالرد عليهما . وهي عاملة على التفريق بين أصحاب الأديان في الوطن الواحد ، وبين أصحاب المذهب في الدين الواحد ، وبين الأفظار والأوطان والأقاليم « بإثارة المارك والخلافات ، كما تتميل على إبراز دعوات الإلحاد والإباحة والتفرقة بالرأي » وخلق وسائل الخلاف وإثارة الخلافات المذهبية والمنصرية والدينية وهدفها من ذلك كله تزويق وحدة الأمة ، والقضاء على وحدة الفكر .

وتفق الشعوبية الحديثة مع الشعوبية القديمة في أنها تريد أن تحول الفكر العربي الإسلامي عن طابعه وشخصيته وبساطته وأصالته ووضوحه ووحدة مقوماته .

وقد عملت الشعوبية على التشكيك في الدين عامة والإسلام خاصة وذلك بالتجريف ونشر الآراء الأعمى وإثارة الشبهات وقليل الدعوات المترفة والمذهب المضللة . والتشكيك في الحضارة العربية الإسلامية وإنكار فضلها على حضارة الغرب الحديثة ، والتشكيك في قيمة كل نتاج فكري عربى إسلامى وتفضيل النتاج الأجنبى ، ومحاولة التماس الوسائل لنسبة كل قول عظيم أو رأى حكيم أو نظرية إيجابية في مجال التأكير أو التاريخ أو العلم لغير العرب والمسلمين ، وكذلك التشكيك في الأخلاق والقيم ، وفي اللغة العربية وقدرتها على التعبير ، وفي قدرة العرب والمسلمين على القيادة والتوجيه ومحاولة تشويه التاريخ العربي الإسلامي .

\* \* \*

وقد تناول كثيرون معركة الشعوبية الحديثة في العديد من الدراسات <sup>(١)</sup> ويرى محمد المبارك

---

(١) عبد العزيز الدروى: « جذور الشعوبية الحديثة » . محمد جليل يهم: « العرب والشعوبيات المذهبية » . محمد للبارك: « الأمة العربية في معركة تحقيق التراتب » . الدكتور عبدالغفار حاتم: « الشعوبية العربية الحديثة » .

أن الشعوبية في مراحلها الحاضرة تتمثل في ثلاث تيارات (١) تجزئة البلاد العربية (٢) إذابة العرب في بوتقة كبيرة لخوض البحر الأبيض أو الشيوعية (٣) تجزئة الشخصية العربية بدلاً من تجزئة الأرض .

ونحن هنا في مجال دراسة الشعوبية الفكرية يهمنا هذا الجانب فتجزئة الشخصية العربية تهدف إلى « فصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم وتجريدهم من مثلمهم ومبادئهم بصياغة فلسفة خاصة لقومتهم تجافي روحهم وقطع الصلة بعاصيهم وتقيم بين حاضرهم وماضيهم حواجز لا تخترق ، فتفصل شخصيهم الحاضرة فصلاً تماماً عن شخصيهم التاريخية حتى في أشكالها الصافية وصورها الظاهرة . وتقيم من فلسفة فيختة ونيتشة ومازيني أو فلسفة الوجوديين فلسفة يقدموها للأمة العربية ل تستبدل لها بفلسفتها الأصلية وأتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية »<sup>(١)</sup> .

• • •

وفي خلال مرحلة نهاية الاحتلال للعالم العربي وقيام دعوة القومية العربية ومحاولات الوحدة بين أجزاء معلم العربي ،أخذ مخطط الشعوبية الفكرية يبرز على صورة أشد وضوحاً وقوة ومضى يركز عمله على قضايا سبعة من أبرز قضايا فكرنا العربي الإسلامي .

(١) اللغة العربية: وذلك بالدعوة إلى تحريرها من الإعراب ، ومحاولات إحلال عامية الجاهير محل العربية . وفي هذا ظهرت دعوة سعيد عقل إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . ودعوة غيره إلى أن تأخذ المهمات العربية طريقها لتصبح لغات وإلقاء الإعراب في اللغة العربية وصيغتهم هي « هشموا الجملة العربية واستعملوا الأساليب الضعيفة عربياً » .

(١) محمد المبارك : معركة تحقيق الذات .

(٢) القرآن: وقد ترددت أقوال الشعوبية في وصفه بأنه «خلاصة تركيبة مختلف الثقافات التي نشأت قبله».

(٢) الإسلام: و قالوا عنه أنه أصحاب النطقة العربية بالعم ل أنه دين صحراء أقليبي.

(٤) العرب: وهو موضع أهتم الشعوبية بالاحتفاظ واعتبار حضارتهم حضارة رمال.

(٥) التراث : وقد جرت في شأنه نظرتان : محاربة التراث الاسلامي والاعتراف بالتراث العربي الجاهلي وكل تراث قبل الاسلام وإلقاء الشكوك والشبهات حول التراث العربي الاسلامي القدم وتحطيم القمم العالية فيه كأن العلاء وان خلدون .

(٦) الدين: وقد دعت الشعوبية إلى رفض الدين ومشتقاته من الآلهة والقيم والأخلاق.

(٧) الشعر: الدعوة إلى هدم عمود الشعر ونبذ القصيدة العمودية لاتصالها بالتراث العربي.

(٨) التاريخ : محاولة تزيف التاريخ وإضافة صفحة بطلات إلى بعض المؤمنة وتزيف لات بعض المجاهدين .

(٩) روز ظاهره «الرموز الغربية».

ولالشعبوية شق آخر ، هذا الشق هو رفض الحضارة الإنسانية ومحاولة فرض مفاهيم قائمة على التعصب في المجال الاجتماعي والسياسي بينما يقوم الفكر العربي الإسلامي في جوهره على التسامح والافتاء المنطقي ، وهو كا يشجب التحلل واللحاد ، فهو يشجب أيضاً التعصب وفرض أي نظرية أو مفهوم بالقوة والمنف .

فالفكر العربي الاسلامي المفتوح لقبول كل النظريات والمذاهب لا يحترم الفكر الانساني ولا يخالصه ، ولكنه يأخذ منه ويعطيه على قاعدة الرشد الفكري ، ويقدر له الثروة الفنية التي أتت بها البشرية ، كالايرضن الحضارة بل يعتبرها حضارة عالمية ويزاها ملوكا لكل الأمم والشعوب ، ولست الديقراطية والاشراكية والقومية نظرات جديدة عليه بل إن لها جذوراً عميقة في فكره وله فيها مفهوم تقدى مستمد من جوهر فكره ومرتبط بيئته وروح مصر .

وقد ظهرت هذه النعوة مؤيدة بمحاجات ومحفظ وكتب أنيقة ضخمة تصدر في بعض  
العواصم العربية استكانت بعض الكتاب من العالم العربي كله . و تقوم علىها منظمات

ترتبط بالتفوز الفربى والصهيونية. وقد أخذت هذه الدعوة من كلة ليف أشكول قاعدة لعملها، هذه الكلمة تقول :

« إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد في الشرق الأوسط »  
وفي ظل هذه الدعوة ظهرت عديد من المؤلفات والدواوين الشعرية تحمل على الإسلام  
والعروبة واللغة العربية .

وقد واجهت القاهرة هذه الحلة مقاومة علمية منهجية تثل فيها الإيungan الصادق  
بقومات الفسق العربي الإسلامي والأمة العربية الواحدة ، وكان لها الدور الأكبر في رد كل  
دعوة شعوبية أو تغريبية وإلقاء قيم القومية العربية ومقاومة الشعوبية والتغريب المتغلبان  
في التعصب والجحود من ناحية أو التحلل والالغرارق في مهاجنة التراث والقيم من ناحية  
أخرى ، هذه المقاومة تجري وفق مفهوم واضح لا يغيب ولا ينحرف مستمد من ميزان يؤكد  
أننا نعيش بفاسد مفتوح ولكننا لانستورد ولا ننحرف .

وقد ركزت كتابات الشعوبية المجمع على الجوانب الأخلاقية والفكريه والروحية ،  
على نحو يحمل طابع السخرية والتشكيك في مجال الشعر والقصة والنقد والدراسة الأدبية .

ومن كثير من المذاجر والكتابات بدا طابع المجمع على فكرة « الله » والسخرية  
من الأديان ، وإبراز الموز الوثنية والكنسية من أجل تشويه القيم الأساسية للفسق العربي  
الإسلامي والأدب العربي .

ويقول الشاعر أنس الحاج في ديوانه « لن » : أنا منذ ألف عام ونحن عبيد وجهلاء  
وسيطرون ، والخلاص في العمل الثوري هو ( قبيحة النثر ) التي تقوم في جوهرها على رفض  
كل المقدّسات والبناءات المتعارف عليها وفي مقدمتها « الأخلاق » فالأخلاق تحد من ممارسة  
الإنسان لانسانيته وتعنّه من تفتح ذاته وغواها .

وتحتمل هذه الحلة على عبارة إسرائيل « أن القومية الحقيقة في الشرق الأوسط هي القومية  
الأقليمية وليس القومية العربية » وقد أعلن سعيد عقل في مقدمة قصيدة « جلنار » التي

كتبها بالعامية اللبنانية ، أن الله الشاعر ليست هي صور الألفاظ وإنما هي موسيقيتها . ومن ثم يسهل استبدال الدرجة بالمرية ، وإستبدال رسم الحرف الالاتيني برسم الحرف الذي وردتنا ، ومن خلال كتاباته يبدو اتجاهه الواضح إلى الأقليمة الفينيقية ، حتى أنه يقول أن دمشق كانت عاصمة فينقيا اللبنانية . ويجرى في تبار اسماء « ميثولوجية لبنان » وتعطى كل هذه الكتابات التي تناولها هذه الجملة ( سعيد عقل . نزار قباني . على أحمد سعيد ( ادونيس ) ، يوسف الخال ) طابع « القومية السورية » التي حلّ لوأها انس الحاج وهي بهذه الصورة تحول من ميدان السياسة إلى ميدان الفكر ، وتقود على رفض الفكر العربي الإسلامي ومقاوماته الأساسية : المرية والمرب والإسلام ، التشكيك في التراث العربي الإسلامي والتوكّر على القول بالمحاطل المرء وتشجيع الرفض لجواهر الدين ، والحملة على الإسلام باسم الفرعونية والوثنية ورموز المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية والفينيقية .

وقد أدى « جاك برل » في مقدمة كتابه « اختارات من الأدب المعاصر » إلى هذا التيار التربوي الشعوي وقال أنه توجد في بيروت مدرسة تعمل على التخلص من الفصحي وتطارد أي نوع من الروية تشم منه رائحة التراث ، وهي تقبل التراث الجاهلي والمسيحي وترفض التراث العربي الإسلامي .

• • •

وتحمل الشعوبية الحديثة الدعوة إلى وصل ما يقطع بين العرب واليونان وقبل اليونان عبر المسيحية ، على اعتبار أن هذا التراث « المتوسطي » هو خيرية الحضارة الإنسانية ومهدها .

• • •

ولا شك أن هذه الصورة تكشف هدف « الشعوبية » الفكري الحديث التي لا تخرج عن مفاهيم التربوي ودعويه في كل ما يتعلق بالدين واللغة والتراث . وهي تعطى في مجموعها صورة الخصوص المحددة لكل قيم الفكر العربي الإسلامي سواء كانت هذه الخصوص مستمدة من فهم أو من تبعيه ، وهي على كل حال خصوصه ليست ذات طابع على ولا تقوم على منهج واضح في مواجهة الحقائق أو تقدّها . وهذا ما يجعلها غير جديرة بالنظر إليها أو احترامها .

( م — ٩ الفنون العربي للماصر )



الكتاب الرابع

نحن والحضارة الغربية



## نحن والحضارة الغربية

لكي نفهم الحضارة الغربية المعاصرة علينا أن نسأل :

ما هو هدف الحضارات في حياة الإنسانية . والجواب معروف ، هو إتاحة أكبر فرصة للإنسان ورفاقه ورفاقه وتوسيع نطاق أفق الخير والإيمان والسلام والحرية ونقاء من البشرية إلى الإنسانية ، ومن هنا تختلف الحضارة قياماً عالياً في عاولة تكوين الإنسان الكامل أو الإنسان الأعلى «السوبرمان» فإذا كان هذا صحيحاً – وهو صحيح – فالآن حد بلغت الحضارة الغربية في تحقيق هذا المدى .

إن الحضارة الغربية قد بدأت دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حيث كانت الحضارة الإسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها . ونحن لا نذكر خصل الحضارة الغربية ولا معطياتها الباهرة لاسعاد الإنسان ورفاقه ولم يرفض الحضارة الغربية باحث منصف أو متدين عصرى ، ولكننا ندرس هنا مطراً من أخراجها عن خدمة الإنسان إلى تدميره ، وراجع أوجه الخلاف بين عوها المادي وضمورها الروحي ، وما وافق نتيجة هذا الاتصال من أزمة كبيرة يدرسها اليوم أباطين الفكروها «أزمة الإنسان أزمة الحضارة» .

ومنذ القرن الخامس عشر إلى اليوم ( ١٤٠٠ – ١٩٦٥ ) يمكن أن يسمى ذلك عصر الحضارة الغربية التي لم تثبت أن أصبحت الحضارة العالمية لارتباطها بالاستعمار وفرض سلطانها وقوتها على العالم كله . ولنا إلى الحضارة الغربية نظر ثان : هل أسعدت أهلها ، وهل أسمدت الإنسانية .

ولكي نستطيع أن نعرف ذلك ، علينا أن نستعرض تاريخ هذه المراحل وتطوراتها . فقد بدأت الحضارة الغربية وهي تجمم بين الدين والعلم ، ثم لم تثبت أن إنفصال عن الدين إلى المقل إلى التجربة ومن المادية الداروينية إلى المادية التجريبية ، كادية هيجل وماركس ، وبرزت دعوهما إلى ديانة الإنسانية ، فقيادة الطبيعية فقيادة الإنسان في تحولات مستمرة لم تتوقف .

وقد كان لنجاح العلم التجاري وظهور كثوفه الضخمة مدفع العقل الغربي الذي يقوم

على أساس وراثيات الونية الاغريقية والحضارة الرومانية والروح المسيحية أن ينبع مفاهيمه الاغريقية في عبادة الآنسان والرومانية في اعتبار كل ما غير روما عبيد وهنا غابت روح المسيحية السمححة تحت تأثير قيود الكنيسة وقصور مفاهيمها عن الانفتاح على العلم وتطوره ووقفها إزاء موقف الحصومة .

ولم تكن الحضارة الغربية في جذورها إلا غريرة للحضارات الإنسانية التي مرت بالبشرية منذ في التاريخ، وهنا يصدق القول بأن الحضارة كالتى يحتفظ باسمه على طول مجرى ولكن أمواهه وشوائطه هي التي تتغير وتبدل ، بتغير محطات الطريق التي تتمثل في المصرية الفرعونية والبابلية والفينيقية والهندية والصينية والأشورية والتارسية واليونانية والرومانية والاسلامية العربية .

وقد كان قوم الحضارة الغربية أساساً تلك الأوليات والكشف التي حققها الحضارة الاسلامية العربية ، ومن هنا كان اتصال الحضارة الغربية بالحضارات التي سبقتها والتي تصادف أنها بدأت في الشرق ( مصرية وفينيقية ) ثم وصلت إلى الاغريق والرومان ( الغربية الاسلامية ) ثم عادت إلى الشرق ككرة أخرى متمثلة في الحضارة الغربية : ومن هنا كان هذا الاتصال مؤكداً أن هذه الحضارة قد شاركت فيها الأجناس والأمم المختلفة .

وقد كان من الطبيعي أن تكون الحضارة إنباتية الزعنة ، وأن تعمل على نشر لوازيمحقق الارتفاع بالحياة الإنسانية ويعطي أكبر قدر من عوامل الرق في مختلف مجالات الحياة المادية والاجتماعية بما يزيد قدرة الإنسان من السيطرة على الطبيعة مع ترقية النفس والغراير ومنح الإنسان إنسانيته وروحيته إلى جانب ماديته وبذلك يتحقق عطاء الحضارة للعقل والروح والجسد معاً .

غير أن الحضارة الغربية لم تكن كذلك فقد ارتبطت منذ يومها الأول بالاستعمار فكانت قوتها الجديدة وسائلها للسيطرة على الأجزاء غير — الغربية — وأوروبا من العالم واتخاذها مفاطق قوتها ، وبذلك أمنت السيطرة على أفريقيا وأسيا و كان العالم الاسلامي والعربي هو مجال التركيز الضخم والأقوى .

وهنا، ثارت الحضارة في السيطرة العسكرية والسياسية على هذه الناطق وتجريد هذه الأجزاء — التي تمثل الشعوب الملونة من حريتها ومن مواردها . فأصبح العالم الإسلامي العربية جزء منه والأمة مصدرًا للموارد الخام والتواجد وال碧ول والمعدن والمطاط وكل الخامات التي تتجذبها وسيلة لادارة مصالحها .

ثم تصبح هذه الناطق بعد ذلك أسوأًا لتصدير منتجاتها إليها ، وكان الاستهار حفيًا بأن لا ينفل إلى هذه الناطق المحتلة والتي أطلق عليها اسم « المستعمرات » إلا قشور الحضارة ، التي تركت على المخمور والزينة ووسائل إثارة الفرائض المختلفة كجزء من مخطط تغريبى مدروس يرمى إلى تدمير قوى هذه الأمم وقتل معنوياتها والسيطرة على ثرواتها في مجال المجتمع ، وقد حققت هذه المحاولات فعلاً سقوط معظم رؤوس الأمم في أيدي المرابين وأصحاب الخامات الذين كانوا في الأغاب من الأجانب .

وبذلك توسيع نطاق السيطرة الاقتصادية ، فإذا أضيف إليه الفزو الفكري والسيطرة القليلة عن طريق تحويل برامج التعليم والصحافة وبث قصص الجنس والذاهب والنظيرات الأدبية والاجتماعية والسياسية المضطربة تبين إلى أى حد كان هدف الاستهار باسم الحضارة خلق قيادات جديدة خاضعة للاستهار مزبطة به ؟ وتبين كيف كانت الحضارة ذات أثر بعيد في استغلال الشعوب والأمم باسم الإنسانية وحرية عدن الشعوب .

وقد جرى اتجاه الحضارة على هذا النحو في ظل مفاهيم أساسية هي أن « الجنس الأبيض » هو الذي يحمل أمانة الحضارة وعدهن بين الشعوب وأنه لا بد أن يحتفظ بسلطانه وسيطرته ، وأنه لن تفوقه المقل وسلطانه المفروض بالقوى العسكرية والاحتراكات لا بد أن يعيش في ذروة الشرف والرفاية وأن تكون مختلف الشعوب الملونة في صفو العبيد ، وأن تظل بلادها مصادر لخامات وأسواقاً للاتاج .

وقد صورت هذا الاتجاه الكاتبة الفرنسية « مدام سفت بوات » حيث يقول : إن أتمهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بال مهمة إلى ترجم أنها أنت على عاتقها في الأجيال الأخيرة ، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعيمها على وجه

الأرض بحيث تؤدى إلى الاتحاد ، ويع垦 للانسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسائلين لا غير ، وهم وسيلة حب الذات ووسيلة حب النير ، أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى : وسيلة الأنانية وحب الذات » وكان اختياره لها جريعة ، وكان ذلك سبب ضياعه وانتحال نعوذ ، لأن الوسيلة التي جا إليها ملحونة : إن الأنانية تقضى على الحرية وتأهم كل بر ، ولقد أراد الغرب أن يوحد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالمدل وبالحب وبالإخاء وبرد الحقوق إلى أهلهما ، ولكن الغرب جا إلى القوة الفاشية ، واعتمد على القوة وحدها ، وعبث بالشراطين الدينية » وخالف تعاليم المسيح عيسى الذى أمر بمحبة الناس أجمعين . لقد أضاء « الشرق » دياجير أوروبا بنور تعاليمه ، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق وليس الذى يمحج النور عن الأنوار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب . لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة وأنه بالتجاهله إلى الوسائل التي لا تعرفها الإنسانية قد أثبت أن مدینته أفلست » .

\*\*\*

ولقد ظلت حضارة الغرب تعامل البشرية الإنسانية على نحو مختلف مما تعامل به أهلهما . فهى تتجزى الحرية والكرامة والرفاهية لأهلهما . وبينما هي تتحقق مزداماً من الترف والرق لأهلهما تفرض على الأمم اللوونة - وخاصة العالم العربي الإسلامي - أبغض صنوف الأذلال ، فتقتصر نتاج أوطانهم وثرواتهم ، وتقاوم بالتمادي أي حركة من حركات الدعوة إلى الحرية . والحضارة الغربية تتقول بالحرية ولكن لأوروبا والغرب والرجل الأبيض » أما في آسيا وأفريقيا فإن أهلهما ليسوا إلا عبيداً وليس لغير الرجل الأبيض الحق في حمل أمانة تحدى هذه الشعوب التخلفة .

أما موقف الحضارة من إسعاد أهلهما ورفقاهم ورفاقهم فقد بلغت في ذلك غاية المدى ولكنها عجزت عن الحفاظة على القيم الإنسانية للحضارات » فهى قد قاتلت أساساً على المادية ومن ثم تطورت مفاهيمها في خلل عوامل ذات فاعلية إلى تقليل مفاهيم إطلاق الغرائز وتعزيز « حيوانية » الإنسان ، ثم اندرفت في تحريف الحرية على النحو الذى لم يبق لها حد توقف عنده .

ولعل « الدوس هكسل » حين يصور هذه الزاوية يكشف حقيقها بوضوح حين يقول : أن الحضارة قد دفعت الناس إلى الترد من حياة الروح والاندفاع وراء المادة وقصر جهودهم على المتع والرغبات وإعراضهم عن المثل العليا ، وأن اندفاع العالم إلى الاستمتاع قد شاع في أقوال المؤلفين والشراط وانطلقاً والمشائين المتأدي في سبيل الدعاية للحياة للسهرة والأباهة ، وقد بالغوا في مدح الحرية والتتوسع فيها حتى أصبحت مزرولاً مبغوضة كالمسمى الذي ينقلب داء بعد أن كان دواء . وإن المثل العليا حقيقة زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم وهي الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة المللات والباحثون عن مسرات الحياة بانواعها ، وإن النفوس البشرية تتضيّع في سبيل هذه المللات وتفقد الثقة بالفضائل » . وقد أجمعت أرق المقول في سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الإنسانية هي السلام والحبة والعدل ، ومن الحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية وهي فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان » . ويقول لاسكي : « لقد فقدت الحضارة ثقتها في نفسها ويعانها العيق بمحىوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل في كتابات الانسانين وبين حقيقة هذا الواقع الحالى ياهوأه وأطماعه وخصوماته ، إن الحضارة غير محظوظة من عن الشك والخوف والآلام وطبع المعاير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تذرع بشر مستطير في حياة الفرد وحياة الجماعة » .

وقد عرض لهذا المنهى كثير من الباحثين ، يقول ألبرت شفايتر في كتابه : « فلسفة الحضارة » : بعد تجربة طويلة تبين أن الحضارة في جوهرها قضية أخلاق وإننا لن ننجح في بناء حضارتنا على أساس سليمي إذا لم نرجع إلى المفاهيم الأخلاقية .

ويرى ألبرت شفايتر أن غلبة الجانب المادي في الحضارة على الجانب الروحي هو مصدر أزمة الحضارة والانسان في هذا العصر ؛ يقول : أن تقدم الحضارة المادي أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحي ، لقد اختل توازنها ، فلاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرّفها على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات والدول ، الواقع أن معارفنا قد أثرت ، وأن قوتنا قد أزدادت إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله ، نحن نغالي في تقدير إنجازاتها المادية

ولا تقدر أهمية المنصر الروحي في الحياة حق قدره . إن الحضارة التي لا تنمو إلا في النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نحو متساكي في ميدان الروح ، هي أشبه ما تكون بسفينة إختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضى عليها ، ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتتجدد يما يحيط بها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لشكل الإنسان وتحسين الأحوال المادية والسياسية للشعوب وللإنسانية في جموعها ، وليس المنصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أحيزته من أعمال مادية بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر . والأمر في هذا شبيه بما يحدث في السفر ، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ فليلا بل على كونها تسير في الاتجاه الصحيح وأن قيادتها في يد أمينة » .

وهذا الذي يقوله ألبرت شفيتسر في كتابه (فلسفة الحضارة) ليس جديدا فقد رددوه من قبله «أوزفالد شبنجلر» في كتابه سقوط الغرب (The Decline of the west) حيث قال : إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انتطاط وتدھور وأنها تعانى أعراض الشيخوخة وأن الخلال الفناء .

وقد عارض نظاريه شبنجلر التطور وأثبت أن الانقلابات الهامة في تطور الكائنات والمجتمعات والأنظمة والفنون والعلوم بل والعقائد إنما كانت فجائية أملأها القضاء المحتوم وأن الناس والمجتمعات مسوقة بدوره محتممة لا تدير فيها للارادة الذاتية .

وإن كل حضارة خاصة لقانون لليلاد والنضج والتدھور والفناء ، وأن كل حضارة تقى وتنذل بعد أن تكشف عن خصائصها مثل القوميات وصور الحكم وأن الاشتراكية هي آخر مراحل هذه الحضارة .

وقال شبنجلر : إن أوروبا ستقضى على حضارتها التي هي بثابة عسالق يتربع (Alattering giant) بفعل الخطر والمرض والانحلال .

ويتبنا رومان رولان لآسيا بالحضارة القادمة » وستتبنا آسيا كاغلبتنا رومية وأئتها قدیما » ويقول راتتو : أن الليل ينحى على أوروبا ونحن نولى وجهنا شطر الشرق . ويرى الدكتور باكيه أن أعمدة الحضارة الجرمانية اللاتينية تتداعى وأن الشرق أخذ يستيقظ

وَمِنْهُدُ نَظَامًا أَخْلَاقِيَّاً رُوحِيًّا . وَأَعْنَى « بِرْتَانِدَرْسِلْ » أَنَّ أُورَبَا مُحْتَاجَةً إِلَى حِضَارَةٍ جَدِيدَةٍ أَوْ حِضَارَةٍ تَخْتَافُ عَنْ حِضَارَتِهَا الْحَالِيَّةِ وَأَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَهَى بِدِرْسِ الْطَّرِيقَةِ الَّتِي يَحْلُّ بِهَا الْشَّرْقُ مَثَاكِهِ .

وَقَالَ « جُودَ » : لَقَدْ وَهَبَنَا الْمَلْكُ قَوِيٌّ لَمْ يَسْكُنْ تَحْلُمَ بِهَا أَجَدَادُنَا الْأَسَافِلُونَ ، وَلَكِنَّنَا نَسْتَخْدِمُهَا بِعَقْوَلِ الْأَطْفَالِ وَالْمُتَوَحِشِينَ ، وَأَنَّ لَامِشَيْ « يَسِدَّ التَّفَرَّةَ الَّتِي قَدَرْتَنَا عَنْ حِكْمَتِنَا غَيْرِ إِحْيَا الْقِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْعُلِيَا وَذَلِكَ يَاحِيَا الْعِقِيدَةِ الْدِينِيَّةِ فِي النَّفُوسِ . وَأَنَّ الْمَطْلُوبُ هُوَ سَدُّ التَّفَرَّةِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْأَخْلَاقِ » .

وَقَالَ « مَالِكُ بْنُ نَبِيٍّ » : أَنَّ إِعْتَادَ الْحِضَارَةِ عَلَى الْعِقْلِ وَحْدَهُ آثَارٌ بَعِيدَةُ الْمَدِّ فِي الْحِضَارَةِ ، فَالْمَقْلُولُ لَا يَمْلِكُ سِيَطَرَةَ الرُّوْحِ عَلَى الْفَرَأَزِ وَمِنْ هَنَا تَشْرُعُ الْفَرَأَزُ فِي التَّحْرُرِ مِنْ قِيَودِهَا ، وَتَنْطَلِقُ الْفَرَأَزُ بِقَدْرِ مَا تَنْفَعُ سُلْطَةُ الرُّوْحِ .

• • •

وَبِالْجَمِيلِهِ فَإِنَّ أَزْمَةَ الْحِضَارَةِ تَتَمَثَّلُ فِي ذَلِكَ الْإِغْرَاقِ الَّتِي وَصَلَّتْ إِلَيْهِ فِي الْمَادِيَّةِ وَالْإِبَاحَةِ ، وَيَحْمَلُ هَكُسْلِيًّا أَنْ يَصُورُ هَذِهِ الْأَزْمَةَ فَيَقُولُ : إِنَّ الْعَالَمَ الْآتَى يَشْبِهُ قَبْيَةَ تَبَدِّدِ الشَّيْطَانِ ، وَتَبِعِيشُ فِي ظَلِلِ قَوَانِينَ جَدِيدَةٍ فَاعِلَّةٍ عَلَى الشَّرِّ وَالْخَلْقِ وَالْمَادِيَّةِ الْبَحْثَةِ الَّتِي تَجْرِدُ الْإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ مُشَاعِرِ الْإِنْسَانِ بِلَا حُبٍّ وَلَا تَعْاطُفٍ . وَأَنَّهَا تَبَادِلُ الْاِلْتَصَالَ الْجَنْسِيَّ عَلَى لَحْوِهِ مَا تَقْعُلُ السَّائِمَةُ . وَأَنَّ الْعَالَمَ يَمْارِسُ الْحَيَاةَ بِطَرِيقَةٍ غَرِيْزِيَّةٍ لَا تَقْوِيُّ عَلَى مَنْطِقَةٍ أَوْ تَفْسِيْرَ ، وَعِنْدَهُ أَنَّ الْمَجَمِعَ الَّذِي تَحْلُمُ مِنْ قِيَودِ الْأَزْوَاجِ وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِالْأُمُومَةِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ تَصْنِعَهُ الْآلاتُ ، إِنَّمَا يَسْتَهْلِكُ مَائَةُ سَنَةٍ فِي خَمْسِينَ سَنَةٍ » بِالْمَقَافِيرِ وَالْإِجَاهَاتِ الْمُصْبِيِّ وَالْخَرُوجِ عَلَى الْطَّبِيعَةِ وَخَاصَّةً حِينَ يَكْبِتُ اَقْعَالَهُ الْمُحْقِيقَيَّةَ وَيَتَظَاهِرُ بِالْكَذْبِ وَالْتَّفَاقِ .

وَعِنْدَهُ أَنَّ طَرِيقَ الْخَلاصِ هُوَ الْمَوْدَةُ إِلَى عَالَمِ الْرُّوحَانِيَّاتِ ، وَأَنَّ عَلَى الْغَربِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْكَثِيرُ مِنْ عَزْوَفِ حَكَمَاءِ الشَّرْقِ عَنِ الدُّنْيَا وَزَهْدِهِمُ فِي الْمَادِيَّةِ ، وَفَهْمِهِمُ الْعُمَيقُ لِتَلْكَ التَّجْرِيَّةِ الصَّوْفِيَّةِ الَّتِي تَتَبَعِّجُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَمْحُدَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ » .

وَدَمَا « كِيرْ لَنْجَ » أُورَبَا إِلَى حِضَارَةٍ جَدِيدَةٍ يَسْقُدُ مِنْهَا رُوحَانِيَّةَ الشَّرْقِ .

وقد أشار كثيرون إلى طفيان المادة على الإنسان الحديث بحيث لم تعد أمامه قيم روحية يرمي عليها سلوكه وممارنته، وأن جيم القيم قد أخذت تتأرجح.

ويرى «أرنولد توبي» أن الدين هو علاج المجتمعات وبه تقوم الحضارات وأنه العامل الوحيد لإنقاذ الحضارة الغربية من السقوط، وعنده أن الحضارة الروسية الحديثة هي جزء من الحضارة الغربية واحتياجها في ذات الوقت وأنها ليست طريق الخلاص للحضارة الغربية وأنها مرحلة وليس خاتمة، وأن الخلاص هو العودة إلى الدين.

1 2 3

ويستعرض مستر سوروكن (أستاذ الاجتماع بجامعة هارفارد) أزمة المدينة الغربية في بحث مستفيض<sup>(١)</sup> يقول إن الأزمة العنيفة التي تمتازها الحضارة الغربية الحديثة هي أمر غير عادي ، وهي نتيجة لتفكك الأسس التي قامت عليها الحضارة . وقال أن هناك نقاط ضعف تهدد الحضارة لأن استهدافنا للذلة واللثمة يؤدي إلى اخلال القيم الاجتماعية والحضارية و يجعلها مجرد وسيلة للذلة في المستوى الوضيع واللوع الخسيس ، كما أن محاولتها تصوير الواقع كا يظهر لحسانا يؤدي إلى الركاك والاهتمام بالظاهر بدل التعمق في البواطن . ثم أن الفنون الحسية تهتم بالظواهر والأعراض فتميل الجواهر والأعماق وتكون سطحية ليست لها أفكار أو مثل تستند إليها من وراء الصور التي ترضها . واللبيب أنها تركز اهتمامها على الأنواع العليا من الأشخاص والحوادث سواء المصوّر أو المخرجين أو المحتالين أو النساء الساقطات أو ما يصور أوضاع الظاهر وأسوأها .

ومن دلائل الأخلال في الفنون الحديثة الاهتمام بالكمية قبل النوعية والمعناية بالوسائل قبل النبوغ والإبداع، فتحنّق قيس عظمة البناء بكتيره ، وجودة الكتاب بكثرة مما يباع منه والجريدة تسمّعه انتشارها .

وقد ضعفت روابط الأسرة فكثرت حوادث الطلاق والافتراق وتضاءلت الروابط العائلية

(١) ترجم البحث الدكتور صالح أحد المعلم (بغداد) مجلة الكتاب المصرية يناير ١٩٥٢ .

ترتبط الأطفال بالأباء، وذلك لازدياد نسبة الزواج الذي لا يرافقه أولاد، وأصبحت الأسرة لا تقوم بتربية الأطفال، كل هذا أدى إلى زيادة الجرائم بين الأطفال وحط من الأخلاق، وأضفت الشعور بالواجب الاجتماعي والمسئولة.

وكان حرية النشر والرأي دعوة إنسانية نبيلة، ولكن لما احتجت الأخلاق انتشرت الدعاية المتطورة وزادت الصحافة الصفراء والروايات المكشوفة وأصبحت سبباً اجتماعياً من حرمان الحرية، وإذا لم يكن للفرد اعتقاد قوي بالله وبالحق والعدل وإذا سيطرت على أعماله الرغبة في اللذة بدل احترام الالتزامات التعاقدية، فإن أعماله تصبح مبغضاً الشهوة ولن يعيقه عنها أو يوقفه عن الإضرار بالآخرين سوى القوة.

والمجتمعات التي تكثر فيها أمثل هؤلاء تصبح عرضة لصراع داخلي عنيف وثورات وتنكك، والسمى وراء اللذة يحطم التوازن العقلي والأخلاقي لدرجة أن الجهاز العصبي لم يتمكن الناس لا يتحمل الضغط الرهيب الذي يتعرض له فيتفنّك، ولما يمكن للإنسان في مثل هذه الحضارة مثل عليا وكانت حياته يكتنفها صراع مضطرب فإنه يقع فريسة للأوهام والدعاوى ويكون كالريشة في مهب الريح، فيفقد اتزانه ويزداد تفككه ويترسّع لرجات غنفية يحطم أعصابه، والانطراب العقلي في الناتل يرافقه الإتيجار لأن أسبابه واحدة وهي الأضطرابات الاجتماعية، وقد تزايدت رغبات الناس التي لا يمكن إشباعها إلا بالاستبداد بالآخرين الأمر الذي يحملهم يعيشون في جزء ملء بالخصوصيات والمداء.

ولما كانت الحضارة حسية فقد قالت على التقدير المادي واستخدمت كل طاقتها للحصول على أكبر ما يمكن من الماديات وتوسّلت بالعلوم والفنون إلى زيادة الإنتاج والتجارة وأسّطاعت ذلك بتنمية الشعوب الضئيفة امكانيتها.

ولما شر إلى تناقض الحضارة فقال إنها تهادى بالمساواة بين البشر ولكنها تخلق كثيرو من عدم المساواة العسكرية والخليوية والعقالية والإقصادية والمسيافية، وهي تدعى إلى

مساواة الفرص بين الناس ولكنها لا تتحقق من ذلك شيئاً ، وهي تفادي بحكم الشعب بنفسه بنفسه ولكنها عملياً تطبق النظام الدكتاتوري وهي تثير الحاجات والرغبات ولكنها تعمي إشباعها .

ومعور التناقض قائم على كون حضارتنا تسمى بالإنسان وعجده ، ولكنها في الوقت نفسه تحطم من القيم الإنسانية وتحققها » وقال ابن الدليل على ذلك إن حضارتنا الحسية قد تصاوم انتاجها للمبدعين منذ أواخر القرن التاسع عشر فإنه لم يظهر في السنوات الأخيرة في الموسيقى أمثال باخ وبتهوفن وفي الأدب أمثال توستو ودستوفسكي وبرون وديكترن وجورته وبلاك جوف الفن أمثال رامبراندت وفي الفلسفة أمثال هيجو وشلبي وشوبنهاور وسنبر ونيتشه » .

وقد أطاحت النقل من الكتاب الأمريكي « بالإضافة إلى ماقاله غيره من الباحثين لأضع تحت يد الثقاف العربي الإسلامي مفاهيم مفكري الغرب بالنسبة لحضارتهم التي تلقى إعجاباً وتقديرًا كبيراً بين دعاة التغريب والشمويين حيث يتولى دعوتهم إلى الارتباط بالحضارة الفرعية ارتباطاً كاملاً .

\* \* \*

ولستا نحن من خصوم الحضارة الفرعية المعاصرة ، ولكننا من خصوم مفاهيمها وأعتقد أن قد استطعنا أن ننقلها على قاعدنا ومفاهيمنا نحن ، وأن تتحقق بذلك ما يتطلع إليه نوابغ الترب وفلسفتها فقد كانت قاعدة فكرنا داعماً هي ذلك الزرع من الروح الماده والعقل والقلب والدين والمل .

وقد كانت قضية الحضارة الفرعية موضع البحث منذ وقت بعيد في الفكر العربي الإسلامي . وكانت هناك المغعة الخاطئة المضللة المستمدة من جنور التغريب والشموية التي تدعونا إلى أن نسير سيرة التربين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً وشركاء ، ولقد كانت قيمتنا ومفاهيمنا الأساسية تعارض أبرز مقتلين من مقاتل الحضارة الفرعية وهما : فصل القيم الأخلاقية عن الحضارة والتفرق بين الأجناس وتعيز الرجل الأبيض بالسيطرة وبقاء

غيره خدماً وعيبياً . فنحن نؤمن بوحدة الإنسانية والمساواة والأخاء ونعمل القيم الأخلاقية ظاهرة للقيم الحضارية .

ولما كان هدف الحضارة هو تقديم الرقي والسعادة والفاقيه للإنسان فان تدمير هذا الإنسان باطلاق غرائزه وشهواته على النحو الذي تدفع إليه الحضارة الغربية هو ليس وسيلة لترقيه وإنما يهدف إلى القضاء عليه وقد أصبحت أزمة الحضارة الآن هي التلقى والفراغ والضياع وتوسيع نطاق الأمراض النفسية والجرائم وتقليل الأسرة وتدمير الروابط الاجتماعية.

وقد أشار إلى هذا المعنى عباس العقاد حين قال : إن هناك خطر على الحضارة أحذار من التناقض والآلات الجهنمية هو إفساد الطبائع ومسخ المقول وتلويث الأخلاق وتمويه الناس أن يسخروا من كل نبيل جليل ، مع تهالك على المتع الزائل وتهافت على الشهوات الجنسية . وفي رأى عبد الوهاب عزام أن الناس قاسوا الأخلاق والأداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والمقاعد والمذاهب على السيارات والطائرات وإن علينا أننا أفسرنا أنفسنا وحقينا ما عندنا وعظمنا ما عندنا وجزئنا الهندسة العربية في الآلات ثم حاكيماً في الإيجاب بها فأخذناها بعد أن سينيناها (أربسكا) .

ويرى محمد المبارك أن الحضارة لم تبذل أى عناءة لتهذيب النفس البشرية ولم تخفف ما في الإنسان من أثرة وحب للذات وطمع في كل لذة وشهوة ، في الجاه والمنصب وأن الضمير البشري لم يزد حساسية للحق ، وقد أخفقت عاطفة الإيثار والرحمة وقد غلت الناحية المادية ولم توجد التوازن بين السكر والحضارة .

ويرى سير جون وودلوف في كتابه دفاع عن ثقافة المند : أن الدولاب الآلي الدائب الدوران في حضارة الغرب بفعل البخار أو الكهرباء أو النزرة قد غدا في ذاته قيمة أساسية تفاص بها كل القيم في مجتمع الغرب .

لقد سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عبياء بلاء لا هدف ولا ناموس إلا عبرد التطور ، هذا التطور الذي يسق نفسه قانون حركته مستقلاً عن روح الإنسان ومعنى واته كلهما مع أنها تراث الآلاف من السنين .

ويقول توفيق الحكيم : لقد قدمت الحضارة للناس بعض الراحة في أمور معاشهم ولكنها أخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشعريتها وصفاء روحها . نعم كتبنا السرعة وخر ناروة الفن التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، كل شيء في المدينة الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا وصفاتها الأدبية السامية ، ولا ننس أن أوروبا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم ما علماً منها حرفاً واتهمتهم بالسحر والجنون وخففت حرية الرأي حتى في شئون الأدب والفن وجعلت من المسيحية التي تبشر بالحبة سلاحاً لقتلك أئمـاـمـ حـاـكـمـ التفتيش ، ولكن أوروبا اليوم أربع قليلاً من ذي قبل ، فهي تجند إخفاء حيواناتها تحت ريش مناعي يمثل أجنحة ملائكة سماوي . أما اليوم فهي تمر بأخطر أزماتها ، لقد ظهرت من تحت الريش ثياب الخوازيـرـ الـيـرـيـةـ . وقد فهمـ الـشـرـقـ أنـ فـتـانـهـ لـيـسـ إـلـاـ غـانـيـةـ خـلـيـعـةـ لـاـ قـلـبـ لهاـ ولا ضـيـرـ وـأـنـ مـاـلـمـاـ السـقـطـ مـرـقـةـ الجـسـدـ تـحـتـ موـاـدـ المـرـبـدـينـ .

\* \* \*

وفي اعتقادى أن اليقظة التي يعيشها العالم العربى في ظل قاعدة أساسية من قيمه ومفاهيمه واتصالها على الحضارة العالمية في اختراعها وعلومها التكنولوجية وميادين الصناعة والذرة والقذائف الموجة ، سيتحقق ظهور ( نمذج جديد ) قائم على مفاهيم الفكر العربى الإسلامى الذى يأخذ الحضارة ويعقّلها على أساس ثقافته الأصيلة ، دون أن يذوب في الاممية أو يكون تابعاً للتفكير التربى .

الكتاب الخمس

نحن والفكر الغربي



تمثل مقومات العربي الإسلامي المعاصر في : «اللغة» «والأدب» «والدين» «والتاريخ» و «الثقافة» و «التراث» فهي في مجموعها ترسم وحدة السكر في أمتنا «الغربية» و «العربية» و «الإسلامي» وقد انصبت حلات التغريب والتزويف المركزي والشمولي عليها جيماً محاولة تغيير مفاهيمها ، و تحرير مفاصيلها ، بوصف هذه المفاهيم ممثلة أساسية لدعائم عقيناً و مثلنا و روح أمتنا و طابع شخصيتنا .

وقد ثارت من حول «اللغة والدين والتاريخ والثقافة والتراث» معارك ضخمة تستهدف تحيزه المفاهيم المتلاصقة وحدة كاملة . كما ثارت شبهات متعددة حول القومية ونظرية الأجناس وقد انصبت هذه الحالات على عزل الإسلام عن العروبة ، والدين عن التربية ، والعامية عن الفصحى والعلم عن الدين ، والروح عن المادة ، في محاولات تزييف ضخمة تصل بالقضاء على التراث و تعميق دعوة مضللة تدعو للاتصال عن الماضي أو إثارة الشكوك حول بعض الواقع أو الأحداث في التاريخ العربي مستهدفة إسقاط قيمه الأساسية و بطلانه و مواجهة المخالفة .

ولقد كان أبرز محاولة إلى مقومات فكرنا من دعوات التدمير ، ما أطلق عليه «نظرية التجزئة» هذه النظرية التي يحمل لها دعاه ، يستهدفون بها عزل الدين عن المجتمع و عزل الأدب عن الأخلاق ، و عزل التراث عن الثقافة وهكذا .

وقد غاب عن الذين جروا وراء هذه النظارات مدى المدى البعيد الذي رمى إليه ، ظناً منهم أن التجزئة تخصيص وأنها عامل من عوامل ازدهار السكر و ترقته — وهو كذلك فعلاً — ولكن ليس على الوجه الذي يحملنا على تحيزه كل قضية فكرية إنسانية بين علوم الإلجاج والنفس والأخلاق والدين . دون أن ينظر إليها نظرة شاملة تردها إلى مصادرها الحقيقة في بناء الشخصية الإنسانية أو علاج أزماتها .

## الثقافة

لكي نعرف مفهوم الثقافة التي تمثل المفهوم العربي لكلمة (Culture) الغربية يجب أن نضع في تقديرنا عدة أمور :

(الأول) أن الثقافة تختلف عن التعليم والتربية وتمثل الدرجة العليا للتربية كأن المعرفة هي الدرجة العليا للتعليم .

(الثاني) أنها أقرب إلى المقادير منها إلى المعرف .

(الثالث) عدم الارتباط بينها وبين الحضارة في مفهوم الاقتباس أو النقل .

• • •

وقد اختلفت أراء الباحثين حول مفهوم كلمة الثقافة وضمونها ، فمن ناحية مفهوم الكلمة ومدلولها في الفكر العربي نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم « قاتلواهم حيث ثقنتهم » وهي تدل على معنى المثور بعد البحث والتصدى ، وفي المصباح المنير :

تفتت الحديث فرمته بسرعة ، وتفتفته أفت الموج منه ، وفي أساس البلاغة يعني طلب المعلوم والمعرف ، وفي القاموس المحيط للطيري وزبادى : تفت ككرم وفرح ، ثقا وثقافة صار حذقا خفينا فطننا ، وتفقه تفينا سواه .

وأول من استعمل كلمة الثقافة ابن خلدون ، وفي المعرج الحديث حسن توفيق العدل في كتابه (سياسة الفيصل في تقييف المقول) .

كما اتفقت الآراء على أن الثقافة هي الوجه المقابل للحضارة .

حيث تشمل الحضارة الماديات والصناعات والتجارة والصناعة الآلية تمثل الثقافة<sup>(١)</sup> في الأخلاق والمبادئ والأمور الذهنية والمعنوية .

الحضارة<sup>(٢)</sup> تنتقل من أمة إلى أمة وهي قابلة للانتشار بين الأمم بسرعة ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حده ، وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً .

أما من ناحية المضمنون فإن الآراء كلها تجمع على أن ثقافة أية أمة تشمل دينها وأدبها ونظامها وأخلاقها وتقاليدها وأساطيرها . وأنها تثلج طريقة الحياة إجلالاً . وأن التربية<sup>(٣)</sup> والتعليم هي واسطة من وسائل الحفاظ على الثقافة وميراثها من السلف إلى الخلف ، أي أن الثقافة ملك للأمة والتعليم ملك فردي .

ومن عشرات التعرifات للثقافة يبدو صلة الثقافة بالآمة هي أساسها الأول ، وأنها تتصل بالعقل<sup>(٤)</sup> والروح ، وأن لكل مجتمع ثقافة خاصة التي يتسم بها ويعيش فيها ، كما أن لكل<sup>(٥)</sup> ثقافة مقومات مادية ومعنوية ، أما المادية فتتألف من طرائق المعيشة . والمعنوية هي العادات والتقاليد التي تسود المجتمع وأن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها .

\* \* \*

وبالجملة فإن الثقافة في أمة من الأمم تتصل بقيمها وشخصيتها ومقوماتها الأساسية ومن هنا تكاد تجمع الآراء على أنها لا تستورد « وإن كانت تناق وتعص من الثقافات الأخرى ما يضيف إليها القوة والحياة .

ومن هنا يبدو الفارق بين « المعرفة » والثقافة في كل ما تناق الأمم من فكر الأمم الأخرى وثقافاتها ، ومن هنا يصدق الرأي الذي يربط بين الثقافة والمثل الأعلى للإنسان في بيته وفكره .

(١) في مراجعة شاملة لآراء ( سلامه موسي ) . (٢) ساطع المصري .

(٣) في مراجعات لآراء تايلور وعبد الله الطباوي وأعاف جهه وستيوارت وسامي المصري وأثر أربى وهارى شايبو .

فالملعرفة تضم المناهج والنظريات المتصلة بعلوم النفس والاجماع والاقتصاد وهي مجموعة من الاراء تتطور وتتغير وتعارض ، ولما كان النظر فيها خصوصى لتابعة خطو الفكر الإنسانى فإن ذلك يتبع النظير منها خالل باب المعرفة الرب الواسع ولا يمكن أن تحول هذه المعرفة إلى « الثقافة » إلا فيما يتلاقى منها مع الأسس والمشخصات الأصلية ، ذلك أن ثقافة كل أمة لها طابعها الخاص في الحياة ونظرتها إلى المشاكل الأساسية ولكن الثقافات تلاقى وتأخذ وتدع ومن هنا أيضا يبدو صدق النظيرة التي تفرق بين نقل الحضارة ونقل الثقافة باعتبار أن الحضارة مادية والثقافة ذهنية ، وعلى ضوء هذا الفهم لا يمكن « الدين » من عناصر الحضارة بل من عناصر الثقافة .

نصل من هذا إلى القول بأن هناك « ثقافة عربية إسلامية » تختلف في جذورها ومفاهيمها عن الثقافات الشرقية والغربية المتعددة .

وإن هذه الثقافة تتميز بشخصيتها وأسلوبها وأن هناك خلافات جذرية بين ثقافتنا وبين ثقافة الغرب التي كانت أشد اتصالاً بنا بحكم سقوط العالم الإسلامي العربي تحت سيطرة الاستعمار الغربي ( الفرنسي والبريطاني ) على وجه الخصوص .

ويكفي القول بأن الثقافة العربية الإسلامية ( في العالم العربي ) هي وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والأشورية والبابلية ، وأن بلاده كانت مهبط الأديان الثلاثة وأن الفكر العربي الإسلامي قد قام على أساس الإسلام ( وهو دين وفكرة وحضارة ) والله العربية بعد امتصاصه لثقافات الفارسية والمندية والإغريقية وقد بدأ طابعه مثلاً للأنوثة ، واعتبار الدين جزء من المجتمع وتمثل قيم الأخاء والمعدل والسلام والحرمة .

وقد ثبتت انتقامه العربية الإسلامية في تجربة شتات دورة كاملة من التاريخ ، وأثبتت في عصور ازدهارها قدرتها وفاعليتها على تحقيق أهدافها وتمثل قيمها ، أما في فترة ضعفها فليست على قيمها يقع الحساب ، إنما يقع على العوامل التي أدت إلى تحالفها . هذه التحالف التي لم يثبت أن تحول إلى يقظة جديدة حتى ليكفي القول بأن الثقافة العربية الإسلامية

لم تمت وأن تولها الضعف والاضطراب ، وأنها استطاعت أن تواصل الحياة بغير سناد من سلطان الحكم وteam الدولة التي تحمل مبادئها ، وقد استطاعت أن تقاوم النزو النزبي « هذا النزو الذي حاول القضاء على مقوماتها أو تحويلها واقتاصها على قاعدتها وتحويل ملامح شخصيتها وأبرز الخلافات الجذرية بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الغربية :

- (١) أن الفكر الغربي يحمل مشاكله على قاعدة القوة بينما يحمل الفكر العربي الإسلامي مشاكله ومشكلاته على القاعدة الأخلاقية .
- (٢) انفصال الفن عن العلم .
- (٣) سيطرة المادة على الفن .

وفارق آخر بين الثقافة الغربية وثقافة العربية الإسلامية ، فالثقافة الغربية تطلق الغرائز والحراء إلى أقصى مدى بينما الثقافة الغربية الإسلامية تؤمن بالزاج بين الروح والمادة واعتبار الخلق قوام الحرية .

وفارق ثالث هو قيام السياسة في الفكر الغربي على أساس الانتهازية ، بينما يقوم في الفكر العربي الإسلامي على أساس الخلق والضمير .

وفارق رابع : هو أن الفكر الإسلامي العربي يرى الناس سواسية ولا فضل لأي من على أسود ، بينما يرى الفكر الغربي سيادة الأبيض والأسود وأن كل ما سوى الغرب عبده ، مع افتئاته بشرعية فرض سيطرته على الشعوب والممل على تسخير جنس من البشر خدمة جنس آخر وآثره وعدم إيمانه بالقانون الأخلاق في معاملة غير أبناء جنسه .

\* \* \*

ويقول قسطنطين رزق : أن الثقافة الحديثة في الغرب تقوم على أساس الإيمان بالانسان حيث كانت الثقافة في المصور الوسطى المطبوعة بال المسيحية أو الاسلام تدفع البشر إلى التعلم إلى العالم الآخر وتردهم في هذا العالم الآخر . وانقلب الإيمان بالله والعلم

الساوى إلى إعانه بالطبيعة والانسان قادر بعقله على السيطرة عليها واستغلالها . . . .  
وأن هذه الثقافة لم تتمكن من إبراز تقدم محسوس في حل مشاكل الانسان الأصلية بل أنه  
يماربه نتيجة لهذه الثقافة ذاتها إيجاراً أشد هولاً وقطعاً من أخطار المرضي وذلك بالاتساع  
المادى « وما ولدته الحضارة في الانسان من تكبر وتجبر واعتقاده بأنه سيد مصيره » .  
و الواقع أن هذا الرأى يمثل الفارق الواضح والعميق الجذور بين الثقافة العربية  
الاسلامية والثقافة الغربية .

أما من ناحية الفكر العربي الاسلامي فقد عرف بالجمع بين الدين والدنيا وأنه لم يكن  
مطلقاً داعياً إلى الترهيد في العالم الأرضي على النحو الذى صوره الساتب ، فلم يكن الفكر  
العربي الاسلامي داعية زهاده « وأن ما دخل عليه في عصور الضمف من بعض هذه  
المفاهيم لا يمثل قيمه الأساسية وأصوله الأصلية .

وقد كشف البحث عن فشل هذا الاتجاه الذى جرى عليه الفكر الغربى غير أن  
الفكر العربي الاسلامي يجمع بين القيم المادية والروحية وينجز بينهما في مختلف نظراته  
إلى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس .

وإذا كانت الفلسفة تهدف إلى البحث عن السعادة فإن الثقافة الغربية لم تستطع أن  
تحقق منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم مفهوم السعادة « بينما استطاع الفكر العربي  
الاسلامي أن يعطي هذه السعادة في مفهوم واضح هو إيجاد وفاق طبىعى بين الروح والعقل  
والجسد ينعكس على الزمان والمكان .

وإذا كانت ثقافة الاغريق والرومان في صبغتها عقلية وأن ثقافة الهند والشرق  
الأقصى في صبغتها روحية وأن ثقافة الغرب ( بشقيها ) في صبغتها مادية المصدر « فإن الثقافة  
الغربية الاسلامية وحدها دون ثقافات الإنسانية جمعاً هي التي تحمل ذلك المزاج المتفاعل  
التكامل التوازن : بين الروح والمادة والعقل والقلب والجسم « والدين والعلم .  
وأن الثقافة الغربية الاسلامية هي إنسانية الأساس والقيم والأهداف .

ولعل هذا هو السر في امتدادها بهذه السرعة الغريبة التي عدها الورخون خارقة لقوانين الكون وتطور الحضارات ، ولعل ذلك يرجع إلى بروز روح الوحدة بين قيمها المختلفة وعدم انتقامتها إلى مفاهيم مستقلة تتصارب وتختلف ، كما يحدث في الفكر الغربي حين تختلف مفاهيم علوم النفس والاجتماع والأدب والدين والاقتصاد التربية والعلم التجربة \* فكل كل علم مفاهيمه التي قد يتعارض مع مفاهيم العلم الآخر بينما المفروض أنها جميعها تائقة في خدمة الإنسان أساساً وتدور في فلكه باعتباره ميزان الأشياء .

\* \* \*

وقد كان من نتيجة ذلك أن احتل التوازن في المدينة الحاضرة بين نمو القوى المادية ونمو القوى الروحية ، فقد بلغت الحضارة قمتها في العلوم التجريبية بينما بقيت القوى الروحية ضعيفة متخلفة .

وقد ألقى جوستاف لوبيون هذا السؤال : ماذا يحدث إذا استمر العقل في النمو وظللت المواقف ثابتة لا يتغير ، لقد درسوا كل شيء في العالم ، ما خلا الرجل فلم يدرسواه ، كشفوا النقاط عن أسرار السماء ولم يكشفوا عن أسرار القلب ، لأن أمكننا أن نقول أننا ممدونون فإنه ينقصنا الجوهر » .

\* \* \*

وعلى ضوء هذه المفاهيم تبدو فكرة الجوهر والعرض في الثقافة ، فإن القيم الأساسية للثقافة وهي جوهر كل ثقافة تظل أساساً لـ كل قابلية جديدة في مجال التحول ، ومن هنا تسقط نظرية التطور الدائم لـ كل قيم الثقافات . والغريبون أنفسهم لم يسقطوا جوهر ثقافتهم عندما اتصلوا بالثقافة العربية الإسلامية وتقلوا منها .

ومن هنا تبدو أهمية تقدير هذه النظرة في الاقتباس أو الافتراض أو النقل أو الاستماراة من الثقافات الأخرى ، فلابد للاقتباس أو الافتراض أن يكون فائعاً في نطاق العرض لا الجوهر ، ولابد أن تكون هناك قدرة كاملة على الامتصاص ، والفهم أو التلerner .

فإذا لم تكن هناك هذه القدرة ضفت شخصية الأمة وملامح ثقافتها الأصلية وأخرفت .

وليس ضير على الثقافات أن تقرض أو تختص من ثقافات الأمم الأخرى ، ولكن العبرة تقدير الثقافة المختصة على التمثل وتحويل المستعار إلى كيانها لعملية هضم سليمة دون أن يظل قائماً كأنه شيء مستعار ، وهذا يرجع إلى قوة الثقافة الآخنة وقدرتها على الهضم وقد كانت الثقافة العربية الإسلامية من بين الثقافات الشرقية والغربية من القدرة والقدرة على الإستماراة والامتصاص ، غير أنه في فترة قيام التفاؤذ العربي عجز فكرنا طويلاً عن عملية المضم .

فقد كان موقعنا إذ ذاك غاية في الضعف إزاء العلوم والأفكار المختلفة التي حلتها ثقافة التراث والتي كانت أولياتها أساساً من منبينا فقد ظلت سنوات طوالاً وهي لا ترتبط بجذورها الأولى وكانت مسجدة ثفات فكر التراث حتى أصاب شبابنا إذ ذاك الإحساس بالقصور والعجز وكان لابد لنا أن نربط تطورات علم الاجتماع والاقتصاد والفنون والسياسة وغيرها بجذورها الأولى المستمددة من فكرنا أساساً وهذا ما استطعنا أن نصححه مفهومه . بعد المقطة .

ومن ناحية أخرى فنحن قد افترضنا في الماضي في مجال لدينا فيه تراث ضخم .

ووأقع أن الافتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو مراقبة يحدث في الثقافة المفترضة حالة « عسر هضم » مما يؤدي إلى التصور عن بورة العناصر الداخلية أو المستعارة وتحويلها إلى كيان الأمة ونقلها إلى القوالب القومية .

ونا كانت الثقافة التربوية ( بشفيها ) تستمد جوهرها من المادية فإنها تنكر الروحية التي هي عنصر أصيل في الثقافة العربية الإسلامية هذا بالإضافة إلى أن نظرية الفلسفة البرجاتية في الفضاء على الصنفاء يتعارض مع نظرية التكامل الاجتماعي التي يؤمن بها الفكر العربي الإسلامي<sup>(١)</sup> .

## الدين

إن النظرة إلى « الدين » تختلف اختلافاً جذرياً بين الفكر العربي الإسلامي والفكر العربي بشقيه . فهـى أساس وقاعدة متصلة ومتـرجمـة بـقـوـمـات فـكـرـنـا ، عـلـى نـحـو لا سـيـلـ إـلـى اـنـقـصـالـهـأـو تـجـزـئـهـ ، بـيـنـهـ فـيـفـكـرـالـعـرـبـ أـمـرـمـفـصـلـ ، عـلـى قـاعـدـةـهـذـاـفـكـرـفـالـتـجـزـئـهـ . وـالـفـصـلـ بـيـنـعـلـومـنـفـسـوـالـإـجـاعـوـالـاقـتصـادـوـالـنـفـسـوـالـدـيـنـ .

وـفـيـفـكـرـالـعـرـبـ يـبـدـوـالـدـيـنـ مـتـصـلـاـ أـسـاسـاـ فـيـنـظـرـةـالـسـكـاـيـاـ الشـامـلـةـ إـلـىـالـحـيـاـ وـفـيـالـرـابـطـهـ بـيـنـالـإـنـسـانـوـالـلـهـ ، وـالـإـنـسـانـوـالـإـنـسـانـيـ ، وـلـيـسـ اـمـتـرـاجـالـدـيـنـ عـوـاـمـلـ الـضـعـفـ أـوـالـتـخـافـ بلـهـ عـاـمـلـ مـنـعـوـمـةـوـالـإـيجـاـيـةـ .

ولـاـ كـانـفـكـرـالـعـرـبـإـلـاسـلـاـيـ يـقـوـمـ أـسـاسـاـ عـلـىـ اـمـتـرـاجـالـدـيـنـوـالـدـيـنـيـ وـالـعـقـلـوـالـرـوـحـ فـإـنـالـدـيـنـلـيـسـ إـلـأـحـدـ وـجـهـيـالـحـقـيـقـةـ الـواـحـدـةـ فـكـرـنـاـلـيـسـ رـوـحـيـةـ صـرـفـ، وـلـنـتـكـوـنـ عـقـلـيـةـ صـرـفـ، وـإـنـاـهـ نـظـرـةـشـامـلـةـ قـوـامـهـالـعـقـلـوـالـرـوـحـ .

ذـلـكـ أـنـفـكـرـالـعـرـبـإـلـاسـلـاـيـ مـسـتـمـدـ مـنـالـإـلـاسـلـاـمـ ، إـنـاـيـقـوـمـ عـلـىـأـسـاسـأـنـالـإـلـاسـلـاـمـ لـيـسـ دـيـنـخـبـ وـلـكـنـهـ دـيـنـ وـفـكـرـ وـحـضـارـةـ وـعـجـمـ . وـلـذـكـ فـهـوـ لـاـ يـتـبـلـ الجـوـابـ الـرـوـحـيـ وـحـدـهـ وـلـاـ يـرـتـبـطـ خـبـسـ بـالـعـلـاقـاتـ الـتـيـ رـبـطـ بـيـنـالـإـنـسـانـوـالـلـهـ . وـلـكـنـهاـ تـمـثـلـ فـيـشـوـهـاـجـنـاـيـ عـلـاقـةـالـإـنـسـانـبـالـلـهـوـالـإـنـسـانـيـ فـيـ تـفـتـحـ وـمـرـونـهـ .

وـمـنـهـ سـقـطـ أـمـامـ فـكـرـنـاـ قـضـاـيـاـخـلـافـ بـيـنـالـعـلـمـوـالـدـيـنـ ، فـقـدـ كـانـفـكـرـالـعـرـبـإـلـاسـلـاـيـ قـادـرـاـ عـلـىـالـاـفـتـاحـ عـلـىـالـخـضـارـةـوـالـعـلـمـوـالـفـكـرـالـإـنـسـانـيـ مـتـقـبـلـاـ لـكـلـ تـطـورـاتـ الـمـرـفـةـ قـادـرـاـ عـلـىـمـوـاجـهـهـاـ ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـقـرـتـهـ فـيـالـاـنـقـاعـ بـخـضـارـةـالـأـمـمـ الـمـخـلـفـةـ فـيـعـصـورـالـمـخـلـفـةـ .

(١) أـلـرـأـ فـصـلـاـ مـعـاـلـاـعـنـالـدـيـنـ فـيـ كـتـابـنـاـ «ـفـكـرـالـعـرـبـالـمـاضـيـ فـيـ مـرـكـةـالـتـغـيـرـ وـالـتـبـعـيـةـ وـالـنـقـافـيـةـ» .

أما الفكر الغربي فقد استبعد « الدين » استبعاداً كاملاً من مفاهيمه وأصول ثقافته وجنودها بعد أن اصطدم بالسيجية الغربية التي لم تكن من غرس بيته الوثنية أصلاً . والتي كانت أماتها لجنودها الإغريقية والرومانية قوية ، إلى الحد الذي حال دون تعمقها المسيحية الوافدة من الشرق ، ومن هنا تكانت صورة جديدة للمسيحية ، هي مسيحية بولس بكينيتها وطقوسها وكنيتها وما كان لها من دور في حماية قطاع وفروعها عن طريق صكوك الفرقان ، في ظل هذه الصورة من المسيحية — التي هي ليست المسيحية الحقيقة في ساحتها وإشرافها — كون الفكر الغربي مفهومه عن الدين واقتنص عنه وأقام قاعدة فكره على المادية المخالصة ، وقد تابعه الفكر الماركسي في نظرته إلى الدين ، على اعتبار أن قاعدة الماركسيّة هي المادية أيضاً .

ومرر هذا عندنا أن المسيحية الغربية كانت ديناروجيا خالصاً ، لا يرتبط بنظام مجتمع ومن هنا استكملت حاجتها هذه من فلسفة الرومان ، ووثنية اليونان ، وكذلك فإن الفكر الدينى الذى عرفه أوروبا بكينيته وقيوده ، لم يكن قادرًا على تقبل النهضة والحضارة ، والالتفاء معها ، بل على العكس من ذلك كان معارضًا عنيف المعارض لها مخافطة على تفowذه وسلطانه أساساً وعجزًا عن احرازه خصوصية الأفق المفتوح التي عرف بها الفكر العربي الإسلامي الذى كان قادرًا على الالتفاء مع كل حضارة وفكرة والذى لم يكن لديه كيانة أو نفوذ .

• • •

وقد واجه « الدين » هجوماً عنيفاً لا حد له من الفكر الغربي والفكر الماركسي على السواء . متابعاً في ذلك الفكر الإغريقي الذى عرف بازدراهه للدين وهجوم أفلاطون عليه في قوله : « أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور في البيئات غير الملحقة ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات وكل حرام ومحظوظ ، وإن الأديان أخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد » .

والمروف أن الإغريق هم أول من قالوا بتحديد سلطة « الإله » ومنعها من الدخول إلى البحث

العلى أو الأدبي ، ومن ذلك قول أرسسطو أن « الإله » لا تستطيع أن يبدل نواميس الكون وقد انتقلت هذه النظرة إلى الفكر الغربي فقد وجد كثيرون من المفكرين الغربيين حالات عنيفة إلى « الدين » ممثلاً في المسيحية الغربية في مقدمتهم : دينان وينتشه وبرتراندرسل ، وغيرهم من الكتاب وهي حالات كانت تمثل فيها روح الإلحاد .

كما وجد كثيرون من المفكرين طعنات قاتلة إلى الدين على نحو على ، لا يتجه إلى مهاجمة المسيحية الغربية أو الدين أساساً وإنما يبرز من خلال دراسات علوم النفس والاقتصاد والاجتماع وفي مقدمه هؤلاء فرويد وماركس ودور كايم .

وتقوم هذه النظارات على أساس لا دينية الحياة ، وتحرير الإنسان من قيود الخلق والقيم .

وهذه عبارة سالمه موسى في تصوير مفهوم الغرب للدين : يقول « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق الصحيح إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الفكر ، وتكللبت من استبداد رجال الدين الذين جبسو المقاومة الفردية داخل نطاق تعاليم المسيحية الروحية التي تختلف تماماً عن المفاهيم الغرب التي تميل إلى المادية فكانت حركة النهضة التي قامت على أساس بث ثقافة اليونان واستغلال مقوماتها في خلق حضارة جديدة » .

• • •

أما الفكر الماركسي فإن موقفه من الدين واضح في عبارة ماركس الصرىحة « لا إله والحياة مادة » واعتباره أن الدين أفيون الشعوب معللاً انتشار الأديان بالظروف المادية التي عاشها الإنسان الأول ، الذي كان عاجزاً أمام الظواهر الطبيعية مما أداه قصوره عن فهم أسباب هذه الظواهر إلى ردتها لإرادة عالياً ، فضلاً عن أن النظام الإقطاعي قد حل الناس على الخصوص لقوة عجمولة لا كمال السيطرة عليها .

وقد كان في نظرية ماركس وهو يهاجم الدين نفس مفاهيم الفكر الغربي ونظرته إلى المسيحية الغربية وتصيرفات الكنيسة وسيطرة الكرادة والباباوات .

وعنه أن ليس هناك روحية، وأن الروحية مصدرها المجهول والضعف، وأن الأخلاق والقيم إنما هي وسائل لحفظ المجتمع وهي مجرد انعكاس الوضع الاقتصادي وهي قيم مقتضورة متحيرة، ويقول ماركس أن «حقيقة العالم تمحض في ماديتها» ويدل ذلك تناقض الفلسفة الماركسيّة الأولى وهي والأديان والرسالات.

وبذلك يؤمن الفيلسوف الغربي ( بشقيقه ) باللحاد الذي يعتبر جزءاً أساسياً منه فضلاً عما دعت إليه الشيوعية من الحرب ضد الدين .

• • •

غير أن الفيلسوف الغربي بشقيقه لم يقف عند حد محاربة الدين ، بل حاول إيجاد بديل له يتمثل في دعوات كثيرة منها البشرية ( *Humanism* ) والتي تحمل الآداب مرداً للنفس البشرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسانية بدليلاً من الإيمان بالله حيث تعتبر « البشرية » الإنسان غاية لا تعرف غاية وراءها *man is incurably religious* .

وأنكرت البشرية الإيمان بالله أو الخلود أو العبادة ، وقالت أنه ليس من شرط الدين أن يكون للمؤمنين رب ، والبشرية تقول أن الفضائل ليست مراسيم المحبة وإنما هي اختبارات إنسانية وهي في تطور لا ينقطع ، وعندما أن أساس « الأخلاق » الاختبارات الإنسانية التي تدلنا بتوالى الزمن وتكرار التجربة — على المفهود والمفتر من أساليب العاملة . وتلتجأ البشرية إلى النفسيات الحديثة والتحليل النفسي في حل مشاكلها .

ومن هذه الدعوات ماحل لواه « برجسون » في نظرية التطور الخلائق ، كما اعتبر الفيلسوف الماركسي « الماركسيّة » بدليلاً للمسيحية :

وقد ظهرت عشرات من الدعوات والأديان التي اخندت من المادية أساساً والتي غلبتها على النظرة الروحية الخالصة ، أو النظرة التي تجمع بين الروحية والمادية وهي في مجال الأخلاق تحمل نفس النظرة التي دعا إليها فرويد .

ولاشك أن تطور الفيلسوف الغربي واعتماده على المادية كجذور أساسية لنظراته

في فلسفات الأخلاق والتربيّة والسياسة والإجماع قد حال دون أن تعود النّظرّة إلى الدين إلى مفهومها الأسّاسي .

فقد فصل الفكر الغربي الدين والأخلاق عن مفاهيمها وفلسفتها السياسيّة حين قال ميكافيلى «إذا كان الدين سيطلب الأمانة والصدق والرحمة فللسّياسة باعتبارها عالماً أوفنا الحق في أن تستخدم التّدرّج والخيانة والرّباء» .

وفي مجال التربية فصل ديوى نظريّته عن الدين أساساً واعتبر الأساس المادي هو العامل الرئيسي في إقامة مناهج التربية .

وفي مجال علم النفس فصل «فرويد» «النفس الإنسانية عن الدين» .

وفي مجال علم الاجتماع قامت نظرية دور كايم على فصل الدين عن المجتمع .

\* \* \*

بل إن الإصطلاح الذي يستعمله الفكر الغربي في التعبير عن الدين لا يمثل مفهومنا للدين فـ كامنة **Religion** مشتقة أساساً من الكلمة **Religare** اللاتينية ومتناها الماشية الاجتماعية . وكل ما يتحدث به علماء أوروبا اليوم عن الدين لا يصل إلى الإيمان بالله أو الأديان السماوية أو اعتبار الدين عالماً أساسياً في الفكر والحياة وإنما هي دعوة إلى التّماس عقيدة فكريّة لا تكاليف لها ولا مسؤولية ، أما الدين بمفهومه فهو — في نظرهم — مرحلة تاريخية مررت بها البشرية قبل أن يستقرّ عقلها وأنها انتهت بظهور فكر الحضارة .

\* \* \*

أما نحن في الشرق للإسلام وفي الفكر العربي بالذات فالدين لدينا ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها ، وهي جماع بين السلوك الأخلاقي والفهم العقلي المستثير وشعور بالتوافق بين الإنسان والله والإنسان الكون والإنسان الإنسانية .

وللدين مظاهران : عبادات ومعاملات . وتمثل العاملات في الشّرائع التي تنظم علاقات الناس :

ومن هذا المفهوم تنبع من آفاق فكرنا دعوات الشك والقلق والفراغ والضياع ولقد كان امتصاص الروحية والمادية المقل والقلب والدين والعلم الفكر العربي الإسلامي مصدرًا من مصادر القوة والإيجابية فقد رفض الفكر العربي الإسلامي «المادية المفرقة» كارفض «الزهد المفرقة». وهذا ما عجز الفكر الغربي عن تحقيقه حين تحول من الروحية إلى المادية وعجز أن يجمع بينهما في مزاج متبدل وقد هاجم هكذا المادية الفريبية من هذه الناحية ورأى إنها لا تصالح مطلقاً لأنها تكون عاملًا مدنياً ورد جميع نظرياتها. وارتكتبت فلسفة سبنسر على قاعدي المادية واللامادية وكذلك فعل ولاس ودارون من قبل سبنسر وهكذا . وكان رينان حرباً على المادية التاريخية ، وكانت نظرته إلى الكتاب المقدس على أنه أثر من تكامل الخرافات والأساطير وكذلك وضع الفكر الغربي التوراة والكتب المقدسة على بساط النقد المادي الخالص . وهاجم نيتشيه أخلاق المسيحية ، وصارعت المسيحية أصحاب الرأي الحر وفي مقدمتهم جاليلو دارون وظل الفكر الغربي يمعن في هذا الطريق حتى تغلبت طاقاته المادية على الطاقات الروحية وأصبحت عضلات العالم أقوى من عقله .

\* \* \*

أما الفكر العربي الإسلامي فقد كان غير ذلك تماماً . فقد أعلن برتراند رسل في كتابه الثقافة والنظام الاجتماعي أن الإسلام دين سياسى « موجه إلى الجماعة متوجل في حياة الفرد والمجتمع توغلًا كلياً على حين اعتبار الأديان الأخرى ديانات أفراد أي ديانات غير سياسية .

وأعلن جورج سارطون بأن الإسلام حرب المقل وحث على النظر في الكون ورفع قدر العلم وأن حيوية الإسلام كانت في مرونته . وأن هزائم المسلمين السياسية لم تزعزع ثقافة المسلمين بأنفسهم .

ولقد كانت أصلة الدين في فكرنا العربي الإسلامي حقيقة كاملة ، فقد بدأ العامل الديني واضحًا مشاركاً فعالاً في توجيه الأحداث التاريخية للعالم الاحمالي والأمة العربية وتقدير مصادرها .

وليس من اليسير فهم الفكر العربي الإسلامي بعيداً عن الفسir الدينـي ، فالدين متصل متزـج تماماً بدراسات السياسـة والاقتصاد والاجتماع وال التربية ، وهو لا ينفصل عن المقومـات الأساسية .

ولقد كان **اللّهـكـرـ الـاسـلـامـيـ** أـثـرـهـ فـيـ مـقاـوـمـةـ أـكـبـرـ ثـلـاثـ أـخـطـارـ تـمـرـضـتـ لـهـ الـأـمـةـ الـعـرـبـيـةـ وـهـيـ التـتـارـ وـالـحـرـوبـ الـمـسـلـيـيـةـ وـالـقـزـوـنـيـنـ الـمـدـحـيـتـ وـمـنـ هـنـاـ كـانـ حـلـةـ الـاسـتـهـمـارـ وـالـغـرـبـيـرـ وـالـشـمـوـةـ عـلـىـ الـدـيـنـ ضـارـبـةـ عـنـقـةـ مـمـتـدـةـ .

ويرى يوسف الحوراني أنه ليس من تفسير لبقاء الإسلام مختلفاً بعمالياته الاجتماعية في عموم المجتمعات الإسلامية إلا «لأن هذا الدين يرعى قضايا الأرض كما يرعى قضايا العالم الآخر»، فليس منفصلاً عن واقع الحياة بل هو يعالج كل القضايا وقد رسم سلوكاً مدننا خاصاً».

\* \* \*

و حين انتقلت إلى فكرنا العربي الإسلامي مفاهيم الفكر الغربي في « الدين » حاولت أن تصيّن « الإسلام » لتضمنه تحت نفس المعبّر ، و تتحكم عليه نفس الحكم . وقد كان الدافع إلى هذا تربيي مخصوص ، يسْتَهْدِف « تحرير » الفكر العربي الإسلامي من « الدين » و اطلاق التيارات الفرية المختلفة التي تُحاوِل أن تُجْرِه من شخصيّته و مقوّماته ، و تدفعه إلى بُرْأة التّبَعِيَّة والتّحول والتّحاليل . والمدف من ذلك إذا تحقّق هو عُسْكِين النفوذ الأجنبي من السيطرة على كيان الأمة . و تحويلها إلى العبودية الكاملة في فكرها و روحها .

ولقد يمكن القول أن التابعين للاستشراق والتغريب ( ولا أقول تلاميذ المستشرقين فإن كثيراً منهم هم من أخلص الفسّارين لروح المروبة والاسلام إيماناً بوطنيتهم وأمّتهم . ) لم يفهموا الفكر العربي الاسلامي أصلًا ولم يتمتعوه قبل أن يتصلوا بهذه البيّنات ، وظنوا أنّ ما ينطبق على المسيحية التربية – ولها تاريخها الطويل في الخلاف مع العلم والحرية والانطلاق المختار والانساني – يمكن أن ينطبق على الفكر العربي الاسلامي الذي كان دائماً قادرًا على الحياة والحركة والتطور .

ومن هنا تأثر الكثيرون على النحو الذي تكشفه النصوص<sup>(١)</sup> ، وتجتمع عليه حركتي التغريب والشمولية ، والأولى تهدف إلى القضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي لتعزيز التفود الأجنبي وتعكينه من السيطرة ، والثانية تهدف إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية :

ولمل هذه التجربة من أصدق التجارب في مجال التغريب :

يقول الدكتور محمود عزzi أنه حين كان يدرس الاقتصاد السياسي بمدرسة الحقوق كان يتعلم : أن «الربا» أصل كلّ عو اقتصادي ، لأنّ الفائدة التي تعود على صاحبه هي وحدها التي تدعوه إلى أن يقرض ماله اشترا كامنه في الجماعات المالية السكري ، وكان يرى أن هذا القول في علم الاقتصاد تزيده دلائل الواقع ، ولكنّه كان يستطع أن يبني أن الله قد أحلّ البيع وحرم الربا وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين ، فقصد إلى ناظر المدرسة الأستاذ الفرنسي «لامبير» وأفاض إليه بما يشغله «الربا حلال في الاقتصاد السياسي حرام في الشريعة الإسلامية» فكيف التوفيق فأجابه الأستاذ : حين يدرس الاقتصاد السياسي لا تفكّر في الشريعة الإسلامية ، وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكّر في الاقتصاد ، ولكن هذه الإجابة لم تقنعه . وبعد أن أتم الدراسة أرسل إلى «الربون» وكتب له أن يحضر ثلاث سنوات متولدة مخاضات الأستاذ «دور كايم» في علم الاجتماع وكان من نتيجة ذلك أن اضطاعت في ذهنه طريقة تفكير الأستاذ وتحليله وتديله ، وكان من نتيجة اضطاع هذه الطرائق التي لم يذكر اسم الله فيها إلا نادراً ، وأسام «الدين» إلا محترماً مبجلاً على اعتبار أنه حادث «عمراني» له قدره «التاريخي» فحسب ، يقول «ثم أصبح فتاناً عن طريق الاتّناع المقلل للثقاف يؤمّن بالعلم وبالعلم وحده . مع اعترافه بأنّ الحقائق العلمية نسبية فهي معرضة لأن تغير ، كادرس في محاضرات العلامة البيولوجي لود أنتيك أستاذ علم الحياة في الربون ، وخرج من ذلك كالم بأن «الدين» وعدم الدين إنما هي جلة عقيدة وإيمان يتوافق فيما الاستعداد في بعض التفاصيل ولا يتتوافق في البعض الآخر .

---

(١) لاقرأ مزيداً من النصوص في كتابنا «الثقافة العربية المعاصرة : قضائياً ومحاكياً»

ولا تُعملان دليلاً على صحة أحدهما أو عدم صحة الآخر ، فكما أن الدين لا يستطيع أن يقدم الأدلة القاطعة التي ثبت وجود الإله وهو أساس الدين ، فإن العلم لا يستطيع هو الآخر أن يقدم بالأدلة القاطعة التي ثبت عدم وجوده<sup>(١)</sup> ولكن للعلم ميداناً وللدين ميداناً « هذه هي صورة الغريب في محاوته تجاه « الدين » متمثلة في تجربة الدكتور محمود عزzi ، حيث يواجه الدين هجوماً علنياً ، والدين هنا هو الدين في مفهوم لامبير ودور كايم ، وهو مفهوم مختلف اختلافاً واسحاً عن مفهوم الفكر العربي الإسلامي » فإن « الله » و « المال » و « الشريعة » تلتقي كلها في مفاهيمنا ولا تتعارض .

ومن حيث يلتقي المقل والروح في مقومات فكرنا تتحقق مشكلة الدليل على وجود الله حيث نلتمسه عندهما معاً ، وليس عن طريق أحدهما ، وهو المقل وحده .  
ويرجع هذا أساساً إلى أن مفهوم « الدين » في الفكر العربي الإسلامي لم يكن واضحاً أساساً عند الدكتور « عزzi » .

\* \* \*

ولعل الدكتور طه حسين ربيب الأزهر والتربيـة الدينـية الإسلامية الخالـسة أن يقول عـدـاً أو كـثـرـ منهـ فإـنهـ أساسـاً منـ أـخـلـصـ تـلـامـيـذـ «ـ دـورـ كـاـيمـ »ـ فـيـلـوـسـوـفـ الـاجـتـمـاعـ اليـهـودـيـ رـيبـ الـنـظـرـةـ الـلـادـرـونـيةـ مـمـتـرـجـةـ بـالـنـظـرـةـ الـمـارـكـيـةـ :

قالـلـدـينـ عـنـدـهـ «ـ ظـاهـرـةـ مـنـ الـظـواـهـرـ الـاجـتـمـاعـيـةـ لـمـ يـنـذـلـ عـنـ السـمـاءـ وـلـمـ يـهـبـطـ بـهـ وـحـيـ وـإـنـاـ خـرـجـ مـنـ الـأـرـضـ كـاـ خـرـجـ الـجـمـاعـةـ نـسـهـ »ـ وـأـنـ الـإـنـسـانـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـكـونـ مـؤـمنـاـ وـكـافـرـاـ فـيـ وـقـتـ وـاحـدـ «ـ مـؤـمنـاـ بـضـمـيرـ »ـ وـكـافـرـاـ بـعـقـلـهـ ،ـ إـنـ الضـمـيرـ يـسـكـنـ إـلـىـ الشـيـ وـيـطـمـئـنـ فـيـوـمـنـ ،ـ أـمـاـ الـعـقـلـ فـيـغـيـرـ وـيـبـدـلـ وـفـكـرـ أـوـ يـعـيـدـ التـفـكـيرـ مـنـ جـدـيدـ فـيـهـمـ وـيـبـنـ «ـ وـيـهـدـمـ »ـ .

وـمـنـ هـنـاـ تـبـرـزـ فـكـرـةـ الـفـصـلـ بـيـنـ الـعـلـمـ وـالـدـينـ وـالـعـقـلـ وـالـقـلـبـ ،ـ وـهـيـ نـظـرـيـةـ أـسـاسـيـةـ فـيـ فـكـرـ الغـرـبـ الـقـائـمـ عـلـيـ الـوـثـيـقـةـ الـإـغـرـيقـ وـالـلـادـرـونـيـةـ ،ـ أـمـاـ فـكـرـ الـعـربـيـ

(١) الملال — محمود هزمي ( مجلد ١٩٢٩ )

(٢) قـيـاسـةـ الـأـسـبـوـبـةـ : ١٧ـ بـولـيـةـ ١٩٢٦ـ

الإسلامي فيمتزج فيه العلم والدين والعقل والقاب ولا تتحقق سلامه أى نظرية وعقولها  
ووضوحاها إلا وفق هذا الزج الطبيعي بينما تكون هذه التجزئة هي مصدر الشكوك  
والريبة والخصومة .

\* \* \*

ويُمكن أن يطلق على هذا الاتجاه البازر الواضح عند عزى وطه : ظاهرة « الإلحاد »  
التي تُنتمي إلى الرعيل كله في الثلاثينيات . فاسماعيل مظفر في مجلة المصوّر ينادى « الدين » ويقول :  
هل نعتقد أن الدين غاية أم وسيلة ، أم أنها فاعتقد أن الدين وسيلة وليس غاية في ذاته  
« الدين » وسيلة توصلنا إلى غايات أهتمها معرفة الله » إذن فشكل وسيلة توصلنا إلى معرفة  
الله وتحل محله أرواحنا من جميع الشك والريبة يمكن أن تعتبر دينا ، فإذا كانت « حرية  
التفكير » توصلنا إلى هذه الغاية فهي لا شك « دين جديد » يمكن أن يكون لدى الأخذ  
بین به أهدي سبلا :

ستقول إن حرية التفكير قد تسوق الناس إلى الإلحاد والإنسكار ، ولكن هل هي  
الدين الناس من الإلحاد . لم يحتمم من الإلحاد مطلقا ، على أنى اعتقد اعتقدا جازما  
بأن المحدث الطمئن إلى الماده أعود بالتفع على الإنسانية من المؤمن الذي لم يعرف من  
الإيمان غير التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد .

والواقع أن الدين علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع مطلقا .

والذين يقولون بأن للدين أثراً في المجتمع واهون ، فإن المجتمع اليوم قائم على أمرين :  
( ١ ) القوانين الوضعية ( ٢ ) المعاهد والنظمات الوراثية التي ليس الدين إلا مظهراً من  
ظاهرها . فما دخل الدين إذن في النظام الاجتماعي .

ومن يظهر خطأ الداعي بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس ، والحقيقة أن الدين  
نظام من النظمات الاجتماعية اكتسبت صفة القداة ، نسبة إلى قوى تستمد مما فوقه

العقل لا يكتر ولا أقل ، أما الشرائع التي تزلت بها الأديان فليست جديدة ، بل هي شرائع مستمدّة من العرف الذي جرت عليه الأقوام التي ظهرت فيها الأديان <sup>(١)</sup> .

ومعها يمكن القول في هذا النص فإنه مترجم عن « الفكر العربي » على النحو الذي يفهمه عرب « الدين » وهو لا ينطبق بتاتاً على مفهوم فكرنا العربي الإسلامي للدين كدين « ولا للإسلام نفسه كدين وحضارة ونظام اجتماعي .

\* \* \*

غير أن دعوى التغريب والشروعية تبدو واضحة حين يهاجم اسماعيل مظفر نص « الإسلام » في الدستور فيقول : لست أعرف حقيقة البا١عث الذي حدا بالدين وضعوا الدستور إلى ا١بات هذا النص ، فالدولة شخص معنوي ، والنـص على إن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الإسلام أمر لا يخلو من التناقض لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد . ولكني أعتقد أن هذا النص لم يثبت الاستجابة لوعي حق مستمد من روح الإسلام وإنه دين ودولة معا » ويقول طه حسين نفس القول « أن للدولة المصرية دينا رسماً هو الإسلام ولو قد استشارني أولئك أو هؤلاء طلبت اليهم أن يتقربوا وأن يفكروا قبل أن يضعوا هذا النص في الدستور <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ويبرر هذا المعنى واضحاً في رأي « الشيخ » على عبد الرزاق : في القول بأن « دين » الإسلام روحاني محض لم تكن حكمة له ولا شريعة .

\* \* \*

ويتعمق هذا الاتجاه حتى تصبح ظاهرة « الالحاد » صريحة حين يصدر اسماعيل ادhem أحد كتابة « لماذا أنا ملحد » حيث يمترض على قول بختر زعيم ملحدة القرن التاسع عشر الذي يقول إن الالحاد هو الحجود بالله وعدم الإيمان بالخلود ويقول : إن هذا التعريف سليم محض ، ولا أجد بداً من رفضه ، والتعريف الذي استصوبه وأراه يعبر عن عقديتي

كما جد هو أن الإلحاد هو الإلحاد باتفاق سبب الكون يتضمنه الكون ذاته وإنه ثابت لا شيءٌ وراء هذا العالم ». .

ثم يردد كلام كل زعماء المادية التربية ، مثلاً عمانويل كانت الذي يقول « أنه لا دليل عقلي أو على وجود الله وإنه ليس هناك من دليل عقلي أو على عدم وجود الله ». .

ثم لا يلبيت انتصاراً داهراً أن يصور أسباب إلحاده في ثانياً كتابه « لماذا أنا ملحد » الذي قدمه له وطبعه الدكتور أحد أبو شادي فكشف عما كشف عنه الدكتور عزيز من عنت التربية الأولى والقسر في التوجيه نحو العبادة ، مما كان له أثره المركب وظهور روح التحدي ورد الفعل في معاوحة الدين جمله . .

يقول « كان أبي مسلماً متبعاً للإسلام وأي مسيحية بروتستانتية ، ذات ميل نحوية الفسق والتفكير ، توفيت في السنة الثانية من سني حياني وعشت أيام طفولتي مع شقيقتي في الاستئناف وكانت تلقناني تعاليم المسيحية وتسريران بي كل يوم أحد إلى الكنيسة . أما أبي فقد انشغل بالحرب ، غير أن بعد وفاته لم يكن ليمنعه من فرض سيطرته على من الوجهة الدينية ، فقد كاف زوج عمي وهو أحد الشرفاء العرب أن يقوم بتعليمي الدين فكان يأخذني لصلة الجماعة ويجعلني أصوم رمضان وأقوم لصلة التراویح وكان هذا ينقبل كله كغفل فضلاً عن تحفيظي القرآن . الواقع أنني حفظت القرآن وجوده وأنا ابن العاشرة غير إنني خرجن ساخطاً على القرآن لأنه كلفني جهداً كبيراً كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسى منه وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه . ولذلك كتبت أحد من المسيحية غير ذلك ، كانت اختاي قد درجتا على أن كل ما تعلوه انحراف والإنجيل ليس صحيحاً وكانتا تسخران من العجزات ويوم القيمة والحساب وكان لهذا كله أثر في نفسيتي . . وكان أبي لا يعترف لي بحق تفكيرى ووضع أساس عقیدتى المستتبة فكان يعرض على أراء الإسلام والقيام بشعائره ، وقد ثرثرت يوماً على هذه الحاله وامتننت وقتله : إنني لست بمؤمن وأنا دارونى . . الخ »

ومن هنا يظهر مصدر « الإلحاد » في التربية المترددة التي تفرض الدين فتدفع إلى حربه وخصومته . .

وقد اتسع هذا الاتجاه وتمّ حين أخذ الدكتور عبد الرحمن بدوى في دراسة «الإلحاد في الإسلام» حاولاً أنه يجعل «الإلحاد» ظاهرة مقررة في كل حضارة . «ذلك أن الإلحاد نتيجة لازمة حالة النفس التي استندت كل إمكانياتها الدينية فلم يعد في وسعها أن تؤمن » وقد عرض لفلسفة نيشة الإلحادية التي عبر عنها في قوله «لقد مات الله» ومن قبل الإلحاد اليوناني الذي يعلن موت الآلة ، ثم ذهب من هذا إلى القول بأن الإلحاد الغربي قال «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء » وأن النبوة هي الوسيط بين الله والإنسان .

ثم عرض لما أنساه إلحاد ابن المقفع وابن الروانى وجابر بن حيان ومحمد زكريا الرازى . وهو في هذا يذهب مذهبًا مغرباً في القول بالإلحاد في الإسلام ، إذ أن اختلاف رأى الفلاسفة في النبوة أو معارضته إيجاز القرآن لا يمكن أن يسمى إلحاداً ، إذ الإلحاد متصل أساساً بإنكار الله : ولكن هذا يمكن أن يسمى شعوبية أو زندقة .

ومعروف لمن درس مبادىء التاريخ العربي الإسلامي أن الشعوبية والزندقة تثلان حركة سياسية ترمي أساساً إلى إسقاط الحكم والسلطان والنفوذ العربي وتقليل النفوذ الفارسي عليه .

وإن كل ما أورده الدكتور بدوى على أنه إلحاد في الإسلام هو ما يمكن أن يسمى بالشعوبية وإن كل الأسماء التي أوردها عرفت بالتزعة الفارسية المدamaة للقوة العربية .

وقد عارض بعض الباحثين رأى الدكتور بدوى<sup>(١)</sup> ، وقال أن نفي النبوة لا يتضمن نفي الألوهية ، وأن كان نفي الألوهية يتضمن نفي النبوة ، وأن الإلحاد تعبير عن نفي وجود الله » وليس نفي النبوة الحادأ وأن نفي النبوة لا يتضمن نفي معرفة الله . أما نفي معرفة الله فإنه يتضمن نفي النبوة .

وقد توسمت مجلات المصور (إسماعيل مظہر) والمجلة الجديدة (سلامة موسى) وغيرها في نشر دراسات الإلحاد (Atheisw) وفي مجلدات ١ و ٢ و ٣ للمصور مقالات متعددة

---

(١) م — ١٠ مجلة الأبحاث .

تدور حول هذه المعانى وتوسع فيها فتنتقل آراء الملاحدة أمثال برتراند رسل في كتابة (لماذا أنا ملحد) الاسم الذى أطلقه إسماعيل أدهم أحد على كتابه .

\* \* \*

وقد أخذت معارضه الدين صورة « الشعوبية » في آراء رجال من الأزهر كان في مقدمتهم « على عبد الرزاق » الذى كان جريئاً في الحديث عن التبشير الذى يقوم به الإرساليات الأمريكية في مصر في الجامعة الأمريكية عنها . حاولاً التهoin من شأن حركة التبشير التي خلت لها مصر والعالم الإسلامي كله ومصوراً إليها بأنه ليست مسألة دينية وإنما هي مسألة سياسية وأخلاقية يقول « التبشير المسيحي مرض سياسي وخلقى وعلى رجال السياسية والأخلاق فينا أن يبحثوا عن طريق الخلاص منه » .

وهو بهذا يأخذ بالذهب الغربي في عزيق القضايا وفصلها بين رجال الاجاع والأخلاق والسياسة .

ومن هذه المفاهيم الغربية قوله أن التهاون الديني ظاهرة خلقيه ينبغي أن يشتمل بالبحث منها علماء الأخلاق قبل علماء الدين (١) .

ويصل هذا الاتجاه إلى حد أن يصرح الدكتور طه حسين في حديث له مع روم لاندو (كتاب البحث عن غد - لندن ١٩٣٨) فيقول : عندي أن الدين كفوة روحية لا أثر له في تقوس أولئك الذين يتلقون علومهم في مدارس دنيوية . وهم كثرة المتعلمين . فأنت إذا تحدثت مع أى فرد منهم تجدهم جميعاً كافرين بالدين والتقاليد . وإنما يدينون بالفكر وأن شئ يؤمنون بالملادة . ذلك لأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اهتدوا في الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوروبا منذ قرون ، أعني نظرية الإدراك المطلق وهذا الكشف أهرب قوهم وصرفهم عما عاده من المبودات الأخرى ، وقال : والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يدرو أن يكون حرفه يحترفونها وتدرب عليهم رزقاً ، ولا شيء ، أكثر

(١) المأهولة بكتاب « حضارة مصر الحديثة » .

من ذلك ، بل أذهب في اعتقادى إلى أبعد من هذا الحد ، فأقول أن الأزهر يدين باللاده جهراً ، وأن الإسلام حين يستعيد قوته مرة أخرى سيكون روحاً تناولته يد التجديد (١) . مؤدي هذه النصوص ليس هو الواقع الذي عتله الحياة المصرية أو العربية تجاه الدين ، وإنما هي « صورة » الحلم الذي يراود حركة التغريب والشمعوية في هذه الفترة من أوائل الحرب العالمية الثانية وقد كشفت الأيام عن غير توقع الدكتور وغير ما توقفت الشمعوية والتغريب . فكانت اليقظة المصرية العربية تحمل طابع الإيمان بالبقاء الروح والعقل . وترتبط الدين بالثقافة والمجتمع . ومن ثم توسع نطاق الدراسات الإسلامية وأتيح للازهر أن يدخل في مرحلة علمية جديدة وكان لانشاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وصدر عشرات من الكتب الإسلامية المحررة وكتب التراث وال مجالات الرصينة فضلاً عما أعطى المياثق من إيمان بالقيم الروحية أثره الواضح .

إن هذه المفاهيم عن تصور « الدين » والمستمدة من الفكر الغربي كانت عمله زائفة لم تلق قبولاً إزاء مفاهيم الفكر العربي الإسلامي إلى عتلت في حركة التجديد والبعث التي قام بها الرافى وهىكل والزيات ومنصور فهمى وعبد الوهاب عزام وسميد العريان . والدكتور منصور فهمى واحد من عشرات من هؤلاء الذين خدّعهم التغريب وألقوا عليهم مفاهيم « الدين » على النحو الغربي فثاروا به وساروا شوطاً في ظل هذه المفاهيم ثم استطاعوا بعد أن يتحررُوا منها . والمعروف أن الدكتور منصور فهمى قد كفت أطروحته للدكتوراه (٢) سنة ١٩٣٣ في باريس تحت إشراف عالم يهودي هو « ليف يربيل » . وكانت عن « حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها » وأنه أودعها آراء التغريب في الإسلام والدين والرسول . ثم لم يثبت أن تحول عن هذه المفاهيم وتحرر عنها وهذه عبارته :

« عرضت لي الشكوك الدينية في عمود الشباب ، أثناء إقامتي في فرنسا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة للتفكير وطلب الحقيقة ولم تكن على الطريقة التي يتظاهر بها بعض الأدعية » حينما يريدون أن يتخذوا ميت الفلسفه والعباقر من الفكرين والباحثين فيظنوا خطأً أن ذلك يستلزم الظهور بظهور الشك والحقيقة والطعن على القرارات والمعارضة المأولف .

(١) اقرأ البعث في كتاب لامارك الأدية .

(٢) ١٨ نيسان ١٩٣٩ .

وقد استمرت هذه الشكوك التي حيرتني قرابة ثلاثة أعوام ، وكانت وسيلة إلى الإيمان به وقنطرة إلى ثبات اليقين ، وبابا لالسكون اللازم وقد انتهيت من شك الدين وحيري الروحية إلى نتيجة حاسمة واحدة ، هي أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التي صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان هي أولى الأمور وأحدهما بأن تكون الدعام القوية التي نعمد عليها في شتي مسالكنا خلال الحياة » .

奇 奇 樂

ومن النظرة الشاملة يتبيّن: أن النظرة الفريّة للدين إنما هي مرتبطة أساساً بالسيجية الفريّة وبالذور العميقه الوثنية الإغريقية التي لم تخلص منها أوروبا وللناظرة العلمية الماديه الملاصقة التي تحولت إلى نظرة متّحدة في مجال الفرائـز وبارز حيوانية والإنسان وتمرّره .

ولقد كان لزعنة الالحاد في الفكر الغربي عواملها النابعة من روح العصر وطابع الحياة والفسكر ، وقد زاد في تعمقها الحرفيين العالميين اللذين قاست منها أوربا خليقها واجتماعيا وروحيا لأحد له وهو مالم نعرفه في العالم العربي الاسلامي على ذلك المحو .

ومن هنا يبدو أن حل هذه المفاهيم وتقلماها إلى فكرنا العربي الإسلامي ليس طبيعياً أساساً وأنه لم يجد مداخله الواقعية، ذلك أن فكرنا العربي الإسلامي قد استطاع أن يقضى على الوثنية تماماً، ولأننا ما زلنا في «أساس فكرنا» نؤمن بامتزاج الروح والمادة والقلب والمقل والدين والحياة وبذلك لا تقوم لدينا تلك الشبهات والشكوك، ولا تتأثرنا روح الفلق والضياع التي تتشى في الفكر الغربي.

ومن هنا يبدو ، أن «اقحام» قضية الدين وفق المفهوم الغربي إنما هي محاولة خطيرة تدفع إليها دعوة التغريب وتزعة الشعوبية وهذا يسيران في خط واحد ويستهدفان القضاء على المقومات الأساسية للفكر العربي الإسلامي .

وليس فكرنا العربي الإسلامي في إصالته ينكر الحضارة ، ولا يخاصم الفكر الغربي ولا ينلقي أبوابه أمام الفكر الإنساني جملة بل على العكس من ذلك أنه يفتح له ويأخذ منه ويدع ، ولا شك أن الحضارة الغربية قدمت للإنسانية رفاهية ورقة وتنوراً الأحد له

وكذلك الفكر الانساني في جوانبه المشرقة اللامعة الضئيلة حين قدم روائع خالدة في عوالم الأدب والفن والمجتمع والنفس والاقتصاد ، ولكنها بالقياس إلى فكرنا لا تقبل كاية ولا نفرق . فكرنا فيها تماماً « ولا تأخذها أخذنا ممماً ». وإذا تدلت الحضارة فإنما ينقد إنحرافها عن رسالتها وانقصاها عن المهد الإنساني الدافع إلى التسامي بالإنسان وإبلاغه إنسانيته ، وإذا نقد الفكر الغربي فإنما ينقد من وجهة محاولة فرض وجهة نظره وتحويانها إلى مفاهيمه للقيم في خلل هدف النفوذ الغربي العالِم إلى السيطرة الاستعمارية باسم بدائل « التغريب » وأعتقد أن من حق الفكر العربي أن يحافظ على مقوماته حتى لا يصبح شيئاً غامضاً مهوماً مبيهاً لا هو بالفكر العربي الإسلامي ولا بالفكر العربي ولا شك أن امتراج الروحية والمادية والعقل والقلب في فكرنا يجعل للدين مقامه ومداخله إلى مختلف عناصر الفكر وقضاياها على النحو الذي لا يجده ولا يتعلّم ، فنحن لستنا ماديين مادية صرفه ولا روحيين روحية خالصة ، وأن الإسلام في فكرنا العربي يشمل الروحية والمادية معاً ، ويعنى اتصال الإنسان بالله من ناحية وبالإنسانية من الناحية الأخرى .

وليس في الإسلام كيانة ومن هنا فإن نظرية الدين وتاريخه و موقفه من الحضارة الغربية على النحو الذي عرفته المسيحية الغربية لا ينطبق على فكرنا العربي ولا على الإسلام الذي ليس ديناً فقط ولكنه دين وحضارة وفكرة . ومن ناحية أخرى فإن فكرنا يؤمن بنظرية الافتتاح العقلاني والبرهان ولا يفرض مفاهيمه بالعنف أو القوة ولا يحمل طابع التمثيل أو النظرة الضيقية ويعارض المجد ولا يرفض الحضارة ولا ثمرات الفكر الانساني بل يأخذ فيها ويدع ويعيش في مستوى الركب الانساني صاعداً معه على الطريق . . .

\* \* \*

وفي هذا المجال نعرض لنزعـة « العلمانية » التي يـحاول الفكر الغربي فرضـها على فـكرـنا العربي .

\* إن العلمانية (secular) تعنى أساساً كلة لا ديني وقد حرص النـفوـذ الأجنـبي علىـ بـنـهاـ فيـ مجـالـ فـكـرـ الأـمـمـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ مـرـتـبـلـةـ بـالـتـطـوـرـ وـالـمـنـضـةـ ،ـ وـبـنـاـ الحـضـارـةـ ،ـ غـيرـ أـنـ يـقـطـنـتـاـ الـعـرـبـيـةـ الـمـصـرـيـةـ .ـ اـسـتـطـاعـتـ أـنـ تـحـرـرـ مـنـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ ،ـ وـلـمـ تـرـيـهـ ضـرـورـةـ وـلـاـ حـاجـةـ ،ـ وـقـدـ أـصـرـتـ يـأـعـانـ عـلـىـ أـنـ تـجـعـلـ الـأـدـيـانـ وـالـرـوـحـيـةـ عـامـوـدـاـ أـسـاسـيـاـ مـنـ أـعـدـمـ بـنـاءـ الـهـنـضـوـةـ وـالـحـضـارـةـ ،ـ وـلـمـ تـرـ عـارـضاـ فـيـ الـجـمـعـ بـيـنـ مـقـضـيـاتـ الـحـضـارـةـ وـبـيـنـ الـرـوـحـيـةـ الـسـتـعـدـةـ مـنـ الـأـدـيـانـ وـرـسـالـاتـ السـمـاءـ .ـ

وبذلك فوتت على التغريب هدفه في محاولة ربط الحضارة بالعلمانية . ومحاولة جعل ترکيـا مثلاً لهذه التجربة ، ولقد أشار مستر جب إلى هذا المعنى من قبل حين قال «إن الفكر العربي الإسلامي لن ينفصل عن مقوماته الروحية كما فعلت ترکـيا» ولقد كان جوهر الإسلام ولا يزال قبلـاً للالتفـاء بالـفـكرـ العـصـرـيـ بلـ لـعـلهـ لاـ يـكـونـ منـ المـالـفـةـ القـولـ بـأنـ مـذاـهـبـ الـدـيـعـوـرـفـاطـيـةـ والـاشـتـراـكـيـةـ والـقـومـيـةـ وهـيـ مـذاـهـبـ عـصـرـيـةـ مـسـتـحـدـثـةـ لهاـ جـذـورـ بـعـيـدةـ الـأـعـماـقـ فـيـ فـهـيـوـتـقـبـلـهاـ منـ خـلـالـ خـيـرـهـ بـفـاهـيـمـهـ ولاـ يـرـىـ فـيـهاـ تـعـارـضـ كـاتـرـىـ بـعـضـ الـمـذاـهـبـ التـغـرـيبـيـةـ فـهـيـ فـيـ جـذـورـ أـجـنـيـ .

وهـنـاـ تـبـدـوـ قـدـرـةـ فـكـرـنـاـ الـعـرـبـيـ إـلـاسـلـامـيـ وـمـرـوـتـهـ فـيـ تـقـبـلـ هـذـهـ الـقـيـمـ الـإـلـاسـنـانـيـةـ وـالـإـنـسـاجـ .

لـهـ لـأـنـ لـهـ مـصـادـرـ مـسـتـمـدـةـ مـنـ أـسـاسـاـ ، وـإـذـاـ وـقـعـ الـخـلـافـ بـيـنـ عـالـمـاـ الـعـرـبـيـ إـلـاسـلـامـيـ .

وـبـيـنـ الـعـالـمـ الـفـرـبـيـ ، فـإـنـاـ يـقـعـ فـيـ مـفـهـومـ هـذـهـ الـقـيـمـ .

فـنـحنـ لـأـنـذـ مـفـهـومـ الـفـرـبـ هـذـهـ الـقـيـمـ أـسـاسـاـ .

وـلـكـنـاـ نـسـتـمـدـ مـفـاهـيـمـهـاـ مـنـ تـرـاثـنـاـ وـشـخـصـيـتـنـاـ وـيـتـنـاـ وـزـرـاعـيـ فـيـهاـ ظـرـوفـ الـعـصـرـ وـالـبـيـئةـ .

وـالـتـقـدـمـيـةـ فـيـ الـتـطـبـيقـ .

\* \* \*

وـإـذـاـ كـانـ الـفـرـبـ قدـ أـخـذـاـ مـذـهـبـ الـعـلـمـانـيـةـ إـنـ مـصـدـرـ ذـكـ رـاجـعـ إـلـيـ ماـ اـحـتـاجـ

إـلـيـ مـنـ تـحـرـرـ مـنـ الـدـيـنـ فـيـ رـسـمـ مـنـاهـجـ الـإـلـاصـاـحـ أـوـ الـمـذاـهـبـ الـاجـتـاعـيـةـ ، أـمـاـ فـيـ الـفـكـرـ الـعـرـبـيـ

إـلـاسـلـامـيـ فـلـيـسـتـ هـنـاكـ ضـرـورـةـ أـوـ حـاجـةـ مـلـاحـةـ إـلـيـ (ـالـعـلـمـانـيـةـ secularـaـrـ)ـ حـيـثـ يـتـسـعـ الـفـكـرـ

الـعـرـبـيـ إـلـاسـلـامـيـ لـتـقـبـلـ كـلـ إـلـاصـاـحـ وـتـحـقـيقـ كـلـ تـطـورـ دـوـنـ أـنـ تـقـوـمـ أـيـ مـعـوقـاتـ أـوـ قـيـودـ

تـحـوـلـ دـوـنـهـ ، فـهـوـ مـفـكـرـ مـفـتوـحـ قـادـرـ عـلـىـ الـحـرـكـةـ ، قـادـرـ عـلـىـ الـتـالـيـ وـالـمـواـجـهـ ، وـالـأـخـذـ وـالـعـطـاءـ

وـقـدـ مـرـنـ عـلـىـ ذـكـ مـنـذـ أـلـفـ وـأـبـهـانـةـ عـامـ »ـ وـاجـهـ فـيـهـ الـمـدـيـدـ مـنـ الـحـضـارـاتـ وـالـنـهـضـاتـ

فـأـخـذـ مـنـهـاـ وـأـعـطـىـ دـوـنـ أـنـ يـجـمـدـ أـوـ يـتـوـقـفـ أـوـ يـصـطـدـمـ .

وـلـقـدـ اـرـتـبـطـ قـيـامـ الـعـلـمـانـيـةـ فـيـ الـفـرـبـ بـقـيـامـ الـاـلـاحـ وـمـعـادـةـ الـفـكـرـ الـدـيـنـيـةـ ، وـلـذـكـ فـنـحنـ

فـيـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ إـلـاسـلـامـيـ الـذـيـ يـعـتـرـفـ بـالـدـيـنـ وـرـسـالـاتـ السـاءـ وـالـرـوـحـيـةـ جـزـءـاـ أـسـاسـيـاـ مـنـ فـكـرـهـ

وـمـفـاهـيـمـهـ لـاـتـقـبـلـ الـعـلـمـانـيـةـ وـلـاـ تـقـرـهـ ، بـلـ يـجـدـ فـكـرـنـاـ أـنـ الـدـيـنـ جـزـءـاـ مـنـ مـقـومـاتـ الـأـسـاسـيـةـ

وـعـاملـ قـوـىـ مـنـ عـوـامـلـ الـيـقـظـةـ وـالـخـرـجـيـةـ .

وـلـيـسـ شـكـ أـنـ الـعـلـمـانـيـةـ قـدـ اـرـتـبـطـتـ فـيـ الـفـرـبـ بـوـطـأـ الـكـيـسـةـ عـلـىـ حـيـاةـ الـفـكـرـ وـالـمـجـتمـعـ

وـتـحـالـفـهـمـاـ مـعـ قـوـىـ الـاقـطـاعـ وـسـلـطـانـ الـأـمـرـاءـ ، وـمـنـ هـنـاـ تـدـرـجـتـ الـعـلـمـانـيـةـ حـتـىـ أـصـبـحـتـ

فلسفة وعقيدة . أما في العالم الاسلامي والأمة العربية فإنه لم يقع صدام بين النهضة والدين أو بين المصيرية والفكر العربي الاسلامي وكان الاسلام قادرًا داعمًا على تقبل التطور والنهضة والانتمام والانقاء بها ، فإذا قامت دعوات أو أوضاع دينية منحرفة لم تثبت دعوات الاسلام أن تواجهها فتكشف انحرافها وتعيد الوعي إلى المفهوم الصحيح للإسلام الذي يتسم بالسماحة واليسر والتفتح للتجديد والتطور والمصرية والقدمية والتي يبعد داعمًا عن التعمّب .

وإذا كان الاسلام قد اتسم بأنه دين وفکر وحضارة فإن روح الدين فيه وفي الأديان المنزلة تلتقي جميعاً في مفاهيم وانسجة أساسية في العلاقة بين الله والانسان وبين الناس في المجتمع اتصلت خلال المصور ، وقد كان الشرق بيئة الأديان المنزلة وغير المنزلة .

وهي في جوهرها الأصيل تskر المنصرية وفوارق الجنس واللون ، وتدعو إلى المساواة وترفع قدر الانسان تحت حكم الله ، وتومن بالوحданية والحرابة والاخاء ، والدفاع عن الأرض ومقاومة الفاسد « والسلام والسماحة مع كل المناصر البشرية وظاهرها إنساني على أساسها .

وفي الرد على ما يقوله التفريّب من أن تأثير العالم الاسلامي يرجم إلى إيمانه بالروحانيات وتسكك بالدين ، نقول أن الفکر العربي الاسلامي أقام حضارة ضخمة ارتبطت فيها الروحيات بالماديات ، ولم تتعارض ، بل التقت وامتزجت ولم يكن جانبها الروحي السمح المستثير الذي لا يؤمن بالجمود أو الانحراف حائلا دون البناء الحضاري والتقدم في مجال البحث العلمي في مجال الفلك والطب والكيمياء والفيزياء . وقد حققت كثيرة من النتائج الإيجابية « وفي ضوء انتصارات الحضارة العربية الاسلامية في ظل إيمانها بعمومات فكرها كانت المزية والتدبر في التخلّف عن هذه المفاهيم واتصال الروحية عن المادية وكان انهيار هذه الحضارة نتيجة لانحرافها عن التجدد والتتطور وسيطرة الجمود والتقليد فكان جنوحها عن قيمها التي تربط الروح بملائمة مما والي تبعد عن التعمّب والانحراف معاً هو مصدر تدهورها .

## التراث

وأوجه «التراث» العربي الإسلامي حملة ضاربة اسمهدفت القضاة عليه كفحة فعالة في بناء الفكر العربي الإسلامي وبوصفه ممثلاً للجذور المتعددة لف Skinnerنا الحاضر ، والواقع أن المقارنة قد جرت في هذا المجال بالتراث الأغريق والروماني ووضعه بالنسبة للفكر الأوروبي الحديث . ومن حيث أن التراث الأغريق المرتبط باللغة اللاتينية قد انتهى وتوقف بعد تحول هذه اللغة التاريخية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، فقد مضت الدعوة إلى اجراء المشابهة حيث لا مجال للمقاربة بالتراث الأغريق الذي افصل عن الفكر العربي منذ سقوط الدولة الرومانية في القرن الرابع الميلادي حتى بدأت النهضة في القرن الخامس عشر . ومن هنا لم يكن هذا الفكر اليوناني والروماني إلا تراثاً انتقل جانب كبير منه إلى الفكر العربي الإسلامي ثم أعيد إلى الترب عن طريق الحروب الصليبية أو الأندلس أو القسطنطينية مضافاً إليه ما حققه الفكر العربي الإسلامي من تطوير وابحاث وابداع .

فهنا يمكن حقاً أن يقال أن هذا الفكر اليوناني والروماني هو تراث بالنسبة للفكر العربي فقد اقطع عنه ألف عام وتغير في لغته ومضمونه ، فإذا جاء الترب فأخذته «فرشاً» لف Skinner الحديث فإن كلمة «تراث» التي تعني ترجمة كلمة Legacy تكون صحيحة حتى . أما بالنسبة للفكر العربي الإسلامي فإن الأمر مختلف كل الاختلاف .

ذلك أن «جذور» الفكر العربي الإسلامي ما زال حية متعددة متطرورة في مجال الدين واللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب ، هذه الجذور المتعددة المضطربة التطوير والحركة لا يمكن أن توصف بأنها تراث Legacy على نفس مفهوم التراث اليوناني والروماني بالنسبة للحضارة الغربية .

وأكبر مدعاة لنقض هذا الرأي بقاء اللغة العربية قاعدة وهي أم جذور الفكر وحاميته ، فما زال اللغة العربية التي كتب بها الفكر العربي الإسلامي قبل ألف وأربعمائة عام حية غاية بالحياة متطرورة مع الزمن خصبة قادرة على تقبل المصطلحات الحديثة .

وهي جذور ما تزال قائمة كالدعائم والأحمداء الضخمة تحمل البناء وتعتص من مختلف الثقافات الفارسية والهنودية واليونانية والرومانية والغربية الحديثة دون أن تهدم دعائمه ، فهي تأخذ من هذه الثقافات وتدع « وتحمّل ما تأخذ إلى كيانها بالضم والمتل ، دون أن تقع في أزدواجية الفكر الغربي المعاصر الذي يقوم على أساس وثنية الإغريق ومسيحية الشرق هذه الأزدواجية التي انصرفت بعد في المادية الداروينية .

أما جذور الفكر العربي الإسلامي فائزالتمثل في وحدة تخرج فيها هذه المناصر ومتلاقي أجزاء الجسم الحي .

ولا ريب أن هذه الجذور أو النابع منها تزال تتفاعل مع مفهومنا وحياتنا ولا ينقطع تفاعلاًها وما من نظرية حديثة أو فكرية الأولاً في جذورها مصدر .

وإذا كان الفكر العربي المعاصر قد اختزله من الفكر اليوناني الروماني تراثاً وقاعدة أطلق عليها حركة الإحياء *renasce* فأى قاعدة أو أساس يمكن أن يقام عليه بناء فكرنا العربي الإسلامي المعاصر إذا ما تخلصنا عن حذورنا ومتناعثنا.

وفي الوقت الذى يحمل التغريب والشمعوية — والشمعوية لها دور ضخم في هذا المجال — لواء الدعوة إلى اسكار التراث وحجب القديم زرى الفكر الغربي يواصل ارتباطه بالتراث اليوناني الروماني بعد إقصال ألف عام على نحو يكاد يبلغ درجة التقديس . حتى لقد دفع هذا الإيمان بعض المفكرين الغربيين إلى اسكار فضل الفكر العربي الإسلامي والثقافات الشرقية القديمة على الفكر اليوناني وعدوا رحلة علمائهم وأدباءهم إلى الشرق ليست ذات صلة مطلقة بالاقتباس من الفكر الشرقي القديم مواريث بابل وأشور والذاعنة . . . . .

وقد حاول « جو بدی » إثبات ذلك في محاضرة مشهورة له ألقاها بالقاهرة قال فيما :

إن رحلة علماء اليونان إلى الشرق لم يكن من أجل العلم ولم يكن للشرق أثر في ثقافتهم ، وهو قول متخصص خال من المفهمة .

ويمجىء هذه المطالعة الضخمة بالرغم من إجماع المؤرخين والباحثين على إثبات فضل الفيلسوف على الفيلسوف اليوناني .

ومن ناحية أخرى حرص الفيلسوف العربي في عهد الربنسانس على تنقية ما ترجمه من الفيلسوف العربي الإسلامي من طابعنا ، ومفضي المؤرخون ينكرون فضل الفيلسوف العربي الإسلامي جملة بل ويعتبرون هذه المرحلة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى بدء حركة الاعياء والنهضة في أول القرن الخامس عشر فترة العصور الوسطى المظلمة » وهي جرأة وتنصب وكتل للفيلسوف والحضارة العربية الإسلامية التي غرت العالم كله ووصلت إلى مواطنها أقدام أوروبا قرب باريس وروما عند نهر الوار .

وفي نفس الوقت الذي يقف الفيلسوف العربي من رأيه هذا الموقف ، في اختياره والاتصال به — على مدى الانفصال الطبيعي خلال ألف عام — ومحاولة انسكار كل فضل متصل به على غير نحو على منتصف ، نجد الدعوة توجه إلينا لانسكار رأينا التصالحي المتفاعل الذي لم يعت ولم ينقطع ولم تسقط لنته في هوة التسليان .

ونجدنا بروح الأخلاص والانصاف التي يقسم بها فيلسوفنا لا نسكت الروايد الذي اتصلت بفيلسوفنا ونعرف بها ، ولا نرى بأي من أن الاعتراف بأن الفيلسوف العربي الإسلامي كان مفتوحا على الفيلسوف الإنساني قادر على الامتصاص منه ، مستمدما من عصاراته ، ومحولاها إليها إلى كيانه ، خالقا منها — على أساس من مقوماته الأصلية — فيلسوفاً حياً نامياً .

\* \* \*

وقد كانت حملات التغريب والشعوبية على التراث هادفة أساساً إلى حجب الماضي الذي يتمثل في الدين والقرآن واللغة العربية والتاريخ باعتبارها الروابط الأساسية لوحدة الفيلسوف العربي الإسلامي والضمير الأكيد الحائل دون تفتت الأمة وانصهارها في الفيلسوف العربي ولما كان النفوذ الغربي حريصاً على هدم هذه المقومات فقد إمتدت الدعوة إلى مقاومة التراث والماضي بمحجة أنه قديم بال لم يعد يصلح للحياة .

فكان من رأى الدكتور زكي نجيب محمود أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة هوأشبه شيء بالوباء يصيب شهودنا الفكري الذي لم يستقيم بعد على قدميه ، وربما أحدث هذا الوباء في عقولنا من الفرر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال آخره والنجاة من شره . وليت الأمر في ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل أنه ليعيد لنا جواً فكريياً قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تُقتلنا به رئاتنا وصدورنا فنكون عندئذ بثباته من يعود بالزمان القهري . ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الدين يلعنون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء . . .

أما حسين فوزي فيرى «أن الثقافة العربية ماتت عقب الترور الوسطي وذهب  
غبارها مع الثقافات الأخرى التي عرفت أوروبا بين أغلال الإمبراطورية الرومانية وعصر  
البرنسانس ولا قيمة للثقافة العربية أكثـر من أنها لعبت دور انتقال في المصور الوسطي  
فـكانت مستورـداً لبعض مظاهر تـفكير اليونان فيما قبل عصر أحياء العـلوم . وقد كانت  
حلقة اتصـال بـسيـطة بين اليونـان وعـصر البرـنسـانـس وقد اـنـطـلـقـتـ نـورـهـاـ كـاـ يـنـطـلـقـ السـراجـ  
الـذـي نـضـبـ زـيـنـهـ وـاحـرـقـ ذـبـالـهـ وـانـسـكـرـ إـنـاؤـهـ وـعـلـىـ جـمـيعـ الـأـمـمـ الـتـيـ تـسـكـنـ الـعـرـبـيةـ  
أـنـ تـنـصـرـفـ عـنـ هـذـهـ الـثـقـافـةـ فـلـاـ نـضـيـعـ وـقـتـنـاـ فـيـ بـيـشـ قـبـورـ لـنـ نـجـدـ فـيـهـ حـتـىـ وـلـاعـظـاـمـاـ  
مـهـماـسـكـ وـكـانـتـ إـلـىـ التـرـابـ تـمـوـدـ » .

وليس في هذا الكلام كلام رأى على ، وإنما هو مشاعر عاطفية تحمل طابع الشجب والانتقاد والكرهية التي اتفقنا بها الشعورية وردّت صدّاها .

فأعرف كتاباً غريباً مهماً بلغ به إنسكاره للتراث هاجم التراث الغربي على هذا النحو «  
يل أن كتاباً من كتاب الغرب المغصبين لم يهاجم التراث العربي الإسلامي على هذا النحو.

وإذا كان علينا أن نعرض أتجاه الدين جحدوا التراث العربي الإسلامي على مفاهيم الغرب للتراث نفسه فاننا نجد تناقضاً واضحأً، إذ بينما نرى الدكتور عبد الرحمن بدوى يقول «إن التراثيونان، عامل لا زال يحبا بكل قوام في الحفارة الفنية».

وزى كوستاس اكسيلوس في دراسته المطولة عن مفهوم «التراث» يقول أن التراث «يبقى ويستمر عندما تتوافر منه عنصر انتلاقه أصلية . إنه يسوسنا حتى عند ماندير له ظهورنا وأن ذكره منرتبط بفاححة تواصل الماضي إلى المستقبل . ذلك أن المستقبل سيتحقق يوماً بالماضي ، لأن الحاضر ليس إلا جسراً معلقاً بين الماضي والمستقبل وأن هذه التراثات قوى فعلية حية رهيبة مضيئة ومظلمة ونتائجها تغلى بعيداً أبعد من المقرر والراد » وأن ما يسمى تراثات إنما يصوغ في وقت واحد الكائنات والأشياء » .

ويصور الدكتور طه حسين حاضر الفكر الغربي بعد الثورة الفرنسية التي تعد حدثاً جذرياً ضخماً في هدى وارتباط بالماضي فيقول «قد ظن أصحابها أنهم قطعوا كل سبب بين نظامهم القديم ونظامهم الجديد وأنهم استأنفوا حياة لم تتعهد بها أنفسهم من قبل ، فلما سكت عنهم عنة الثورة واتهوا إلى الإستقرار وإلى التفكير المادي المطمئن تبيّنوا أنهم قد غيروا ولم يرتجوا ، وأنهم قد وصلوا القديم بالحديث ، وكان حظهم من الابتكار والإرتجال أقل جداً من حظهم من استيفاء القديم ووصل أسباب الماضي بالحاضر والمستقبل » .

والغربيون يفهمون من التراث ماقفهم ، وليس مايفهم دعاة التغرب فهذه سيمون وايل تكتب عن الحاجة إلى الجذور (The need to roots) .

تقول أن للتراث الماضي في عقق الحاضر مسؤولية قدسية ، فإذا أنهدم الماضي فإن عودته ضرب من الحال ، ومن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ماوراءه عن أسلفهم من تراث ، فاعلينا إلا أن نجعل هنا الأكبر الاحتفاظ الذي يبقى لنا من تراث الماضي .

هذه الجذور ليست ترفة عاطفية معناها الرجعية والتجدد ، وإنما هي غريرة روحية تسكن في نفوسنا جميعاً . وفي اشور على الماضي دعوة إلى القطعية بين الجذور والأعضان » .

وفي الثقافة الهندية رى وجهة النظر في التراث واضحة في عبارة «نبرو» الذي يقول : لقد ولينا وجهنا وجهتين : إلى الأمام نحو المستقبل وإلى الخلف نحو الماضي » بينما تجاوبنا كل منهما ناحيته ويشدنا نحوه ، فكيف إذن نستطيع أن نوفق بين هذا الصراع ونخرج من ذلك بأسلوب من الحياة يحقق حاجتنا المادية وفي الوقت نفسه يشبع عقولنا ونفوسنا » .

إن علينا أن نتعلم إلى المستقبل وأن نعمل له حاهدين عن قصد يهدونا الإيمان القوى وأن نحتفظ في الوقت عينه بتراثنا الماضي ماثلاً أماناً لكن نستمد منه القوة والعزيمة . وأن التغيير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية ، وخير مستقبل هو ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء . أما أن نذكر للماضي وننزع أنسنا منه فعذاء اقتلاع أفسنا اقتلاعاً من تربتنا فنخرج منها وقد ي sis عودنا وجف مافيها من عصارة الحياة الحقة<sup>(١)</sup> .

وفي نفس الوقت الذي يرتفع الصوت من داخلنا ومن كتابنا في الدعوة إلى حجب التراث وإنكار الماضي كله . نرى كتاب الغرب يؤكدون أننا لن نعمل ذلك وإن نستجب له .

يقول « كامفهير » : لن ينفصل العرب عن الماضي العظيم ، ليس من الممكن أن يحدث في العالم العربي شيء يشبه ما حدث في تركيا . وسيكون استعادة هذا الماضي وتجديده الحديث عنه هو أحد العوامل القوية في حركة البعث الوطني والديني ، أن حركة بعث الإسلام لا يمكن أن تقطع أو تتوقف لأن الناس في حاجة إليها فهي إحدى مقومات هويتهم الوطنية .

ويقول « جاك بارك » : أن مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي لأن المستقبل هو في كثير من الحالات الماضي الحي أو الماضي الذي وقع أحياوه وعيشه من جديد . ويقول « چب » ليس في وسم العرب أن يتحرروا من ما نسب لهم الحافل كما تجرب الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفة في هذا السجل الماضي إلى درجة لا يمكن أن ينفصل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا .

ويقول بلاشير : كأن للشعوب الغربية الاحتفاظ بتراث أجدادها القدامى ، كذلك للشعوب العربية الاحتفاظ بتراثها الأصيل وعليها أن تدرك أن كل تراث ثقافي يتضمن امكانيات التطور<sup>(٢)</sup> .

(١) الهند : اليوم وغداً لتهرو .

(٢) مجلة الآداب ( ١٩٥٦ ) .

ومهما كان هؤلاء الباحثين من رأى في الفكر العربي الإسلامي فإن مفاهيمهم هذه تعارض تماماً مع ما يتهم به التراث العربي الإسلامي من نقص في الایمانية أو الحيوية أو الارتباط بالحافز ،

\* \* \*

ومع هذا الرأى الذي أبداه مستشرقون غربيون ، فإن حركة التغريب التي يقودها التفود الأجنبي كانت وراء الخلط على التراث . وعندما أخذت حركة إحياء التراث تبرز كـ مـلـ كـيـاـبـيـ وـكـوـنـةـ مـقاـوـمـةـ لـلـتـحـدـيـ وـرـدـفـلـهـ فـيـ الـثـلـاثـيـنـاتـ ، تـدـخـلـ كـتـابـ لـهـ تـفـوـذـ وـخـصـوـمـهـ سـاـيـقـةـ لـلـتـرـاثـ ، فـهـاجـوـاـ الـأـعـمـالـ الـتـيـ بـدـأـتـ وـفـرـضـوـاـ أـسـلـوـبـهـمـ وـمـهـجـوـمـهـ . وـظـنـ بـعـضـ الـسـذـجـ وـالـبـسـطـاءـ أـهـمـ عـادـوـاـ إـلـىـ الـحـقـ ، وـأـهـمـ آـمـنـواـ بـاـمـهـ وـفـكـرـهـ . وـالـوـاقـعـ أـنـ لـيـسـ كـذـلـكـ وـإـنـهـ إـنـماـ حـلـوـ أـسـالـيـبـ التـغـرـيبـ وـمـفـاهـيمـ لـقـيـمـاـ عـلـيـهـ أـحـيـاءـ التـرـاثـ وـلـيـسـتـلـوـاـ هـذـاـ التـرـاثـ فـيـ خـدـمـةـ أـهـدـافـهـ ، سـوـاـ كـانـتـ مـقاـوـمـةـ الشـيـوـعـيـةـ أـوـ تـأـيـيدـ الـدـيـعـرـاطـيـةـ الـفـرـيـةـ أـوـ مـؤـارـزـهـ الـحـلـقـاءـ فـيـ الـحـرـبـ . وـبـذـلـكـ جـرـتـ مـحاـوـلـةـ اسـتـقـلـالـ التـرـاثـ خـدـمـةـ اهـوـاـ الـتـفـوـذـالـفـرـيـ . فـضـلـاـ عـنـ أـنـ الـأـسـالـيـبـ الـتـيـ اـسـطـنـتـ لـمـ تـكـنـ خـالـصـةـ لـوـجـهـ الـعـلـمـ ، وـكـانـ ذـاتـ هـدـفـ وـاـضـحـ فـيـ اـبـراـزـ جـوـاـبـ مـعـيـنـةـ .

(١) تـقـلـيـبـ الـأـسـطـوـرـةـ عـلـىـ السـيـرـةـ .

(٢) تـأـكـيدـ بـعـضـ الـأـتـهـامـ الـمـوجـهـ لـلـرـسـوـلـ وـتـارـيـخـهـ وـاعـطـاـهـمـ صـورـةـ الـبـطـوـلـةـ .

(٣) مـحاـوـلـةـ اـبـراـزـ مـفـهـومـ خـاطـئـ بـاـنـ عـظـمـةـ أـعـلـامـ إـلـاسـلـامـ مـسـتـمـدـهـ مـنـ شـخـصـيـاتـهـمـ أـصـلـوـمـ وـمـنـ يـثـأـرـهـمـ قـبـلـ بـرـوـغـ إـلـاسـلـامـ وـلـيـسـ مـسـتـمـدـهـ مـنـ أـنـ إـلـاسـلـامـ الـذـيـ كـانـ تـقـلـةـ تـحـوـلـ فـيـ بـنـاءـ الـشـخـصـيـةـ الـعـرـبـيـةـ وـغـيـرـ الـعـرـبـيـةـ وـتـرـيـتـهـاـ .

وـالـمـوـرـفـ أـنـ حـرـكـةـ الـاسـتـشـرـاقـ الـتـيـ سـارـتـ فـيـ فـلـكـ الـإـسـتـهـمـارـ التـفـوـذـ الـأـجـنـبـيـ كـانـتـ قـدـ أـوـلـتـ اـهـتـامـاـ كـبـيرـاـ لـلـتـرـاثـ الـعـرـبـيـ إـلـاسـلـامـيـ وـاسـتـطـاعـتـ أـنـ تـحـصـلـ عـلـىـ كـيـاتـ ضـحـمـةـ مـنـ خـطـوـطـاـهـ أـوـ دـعـمـهـاـ مـكـاتـبـهـاـ فـيـ بـارـيـسـ وـلـنـدـنـ وـغـيـرـهـاـ . وـاـنـهـ حـاـوـلـتـ أـنـ تـرـوـجـ لـجـوـاـبـ مـعـيـنـةـ مـنـ هـذـاـ التـرـاثـ وـتـقـلـلـ جـانـبـاـ آخرـ كـانـ تـهـمـ بـنـشـرـ التـافـهـ وـالـمـلـىـءـ بـالـاضـطـرـابـ أـوـ الشـعـوـيـاتـ . وـكـانـ الـسـتـشـرـقـونـ الـذـيـنـ اـسـتـقـلـوـاـ بـمـاـتـنـاـ قـدـ رـسـمـوـ فـعـلـاـ خـطـةـ وـاـضـحـةـ لـمـفـاهـيمـهـمـ

في التراث العربي الإسلامي والفكر العربي الإسلامي فقد أقاموا فروضهم أساساً ثم التسوا لها الأسانيد من نصوص مبتورة أو روایات مضطربة أو بعض ما أورده خصوم العرب والإسلام والحاقدين عليه من دعوة المانوية أو البابكية أو الخزامية . من عشرات الفرق التي كانت تكيد للإسلام والعرب .

ومن هنا فقد فرض هؤلاء المستشرقون آرائهم فرضاً، وأمّا أكثر من دليل على أن الرسائل التي كتبها متصور فهمي وطه حسين وذكى مبارك قد حملت مفاهيم المستشرقين، ثم انتقلت هذه المفاهيم مع الرواد الأول إلى الجامعات في العالم العربي والإسلامي فضلت في نفس الطريق حيناً طويلاً . وكان من أقصى الأعمال أن يحاول مبعوث الخروج من هذا التفозд المفروض والاتجاه المرسوم بان يقول رأياً مختلفاً وقد لقي ذكى مبارك وضياء الرئيس عتناً كبيراً نتيجة لمقاومة أجيال المستشرقين وكانت الخطوط الرئيسية في هذا هي :

إن الفلسفة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي كله مستمد من الفلسفة اليونانية . وإن الشريعة الإسلامية مستمدة من الشريعة الرومانية . وأن القرآن من نظم محمد، وإن الإسلام يجتمع من الأديان السابقة له ، إن النبي محمد كان ذار جolle خارقة وهذا سر تعدد زوجاته وإن العرب قبل الإسلام ، كانوا أمة ذات بلاغة وبطولة وإن بطولات النبي وعمر على مستمددة من البيئة العربية وليس من الإسلام نفسه . وقد انتصرت هذه المفاهيم الخاطئة في معظم الدراسات وكما أقيمت إحياء التراث العربي الإسلامي في ضوئها وعلى خططها .

فكان الاهتمام الضخم بأبي نواس وبشار من الشعراء وبالنحريين في الصوفية كالسهروري وابن عربي والخلاج وكان من أوائل كتب إحياء التراث التي طبعت الأغاني وألف ليلة وترجمات عمر الخيم .

ولم يتوقف المستشرقون عن قذف التراث العربي الإسلامي بعشرات النظريات والأراء المدمرة منها نظرية اتحال الشعر الجاهلي ، والثالث في الكتب المقدسة » وفصل الأدب عن الدين . أما الشخصيات الضخمة في تاريخنا فقد وجهت إليها الاتهامات ، المتبنى لقيط ولا يأب له ، ابن خلدون مخترف .

تم جرت الدعوة إلى اتخاذ الفلكلور وسيلة يستغلها التربوي لمحاولة القضاء على الجوانب

الإيجابية في التراث تحت ضغط ابراز جوانب معينة واعطائهما أكثر مما تسحق من الاهتمام  
إذا عرضت في إطار التراث كله .

ولا شك أن أحياء التراث العربي الإسلامي من أخطر الأعمال التي تواجه حركة التغريب لأنها ترد الثقرين إلى جذورهم وتكشف لهم عن مقومات فكرهم، وتعطيمهم زادًا فكريًا وروحيًا لا حسد لقوته وأثره، ودواجه في الإيغاثة بالشخصية العربية الإسلامية والثقة بها.

ولذلك فهو لا يأتوه جهداً في إغراق السوق باللائحة والمصادر والشعوب من المخطوطات ليؤكّد نظرة معينة إلى التراث، ثم يفرضون نظريتهم المستمدّة من مفاهيمهم للفكر الغربي المأثر، المادي — على تحقّيقه، التراث، ومن هنا يجدّد قصور التحقّيق العلمي للتّراث.

وليس في هذا تجنب أو مبالغة فإن الفريسين في مختلف أجيالهم عن التراث يعلّمون أن تراثهم يد وجودهم بالعلمانية والإلحاد وأن التراث الهمليني قد أخّب التراث اليهودي المسيحي.

\*\*\*

وكان الدعاء إلى إحياء راثنا العربي الإسلامي أساساً من اتباع حركات الاجتihاد والتجدد وكان أغلبهم قد تعلموا في أوروبا - أمثال عبد العزيز شاويش وعلى مظاهر وبحثي الدرديرى ولم يكن هذا الجيل خائضاً للمستشرقين بل على المكس موجاً لهم، وحملات عبد العزيز جاويش على المستشرقين في مؤتمرهم عام ١٩٥٠ مشهورة وقد حملت بعض المتعصبين من كتابتهم على التراجع عن آرائهم . أما ذكى باشا و蒂مور باشا فقد كان المستشرقون يقونون منهمما موقف

اللاميذ» وقد عرف زكي باشا بمعارضته وحملاته المضخمة على أخطاء المستشرقين وأنحرافاتهم.

غير أن هذا الرعيل الذي يتمثل فيه الإيمان بالتراث العربي الإسلامي وفمه وفق مقوماتنا قد ضاع إزاء الجيل الجديد من أتباع المستشرقين ولا أقول تلاميذه، هؤلاء الذين تصدوا لإنجاح التراث وفق مفاهيم التغريب، هذه المفاهيم التي بناها المستشرقون منذ وقت طوبل في ظل اهتمامهم البالغ بجمع التراث منذ وقت باكر. ويروى كرد على في كتابه «خطط الشام» أن فرنسا وجرmania وبريطانيا وهولندا وروسيا أخذت تجتمع منذ القرن السابع عشر خطوطات عربية عن مختلف البلاد التي تتبعها بواسطة وكلائها وقناصلها الأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وقد باع خدم المساجد الأوراق الصفراء التي كانت تضمها خزانة المساجد، وروى الذي كونت دى طرازى في كتاب «خزانة الكتب العربية» أن خادماً يدعى ابن السليمان عين في حوالي منتصف القرن الماضي حارساً لثلاث مكتبات كبيرة في مساجد القاهرة. وكان الرجل يستعين على رزقه ببيع عيدان قصب السكر، وكان يقيم في زاوية تحت سلم مسجد السلطان حسن ويضع بجانب بضاعته من القصب أواحى من خطوطات المساجد الثلاثة بيع منها لمن يدفع».

هكذا أولى الفربيون هذا التراث، اهتماماً استهدف حماولتهم إخفاء جانب منه أو تحريف تفسيره أو استغلاله على نحو من الإنحاء في خطط التغريب وخدمة النفوذ الغربي، ورسم خطط مقاومة آثاره أو مقاومة إحيائه على النحو الصحيح.

وتبدو الناقضة واححة: إنه في نفس الوقت الذي يدعونا التغريب إلى إهمال التراث بهم به وبينذل من أجل الحصول عليه وتحليله وإعادة طبته ونشره جهداً كبيراً، وبينما تدعوا الشعوبية إلى رفض التراث العربي الإسلامي جملة والحملة عليه، فهى تولى اهتماماً لتراث الفرعون والفينيق والآشورى والبابلي وكل ما قبل الإسلام. وفي هذه الحملة مغالطتين: أولاً أن الفرب الذى يستظل به هؤلاء، ويؤمنون بولائهم قد آمن بتراثه وأحياه وأطلق على عصر هضرته «الرنسانس» أي الإحياء. والآخرى أن أعلام المستشرقين في الغرب يعملون في مجال إحياء التراث العربي الإسلامي، ومع ذلك فإن دعاء التغريب والشعوبية

يصفقون لهم . وفي هذا المعنى يقول الدكتورة بنت الشاطئ : « إذا اشتغلنا بخنن العرب بتراثنا ، أتمنا بالرجوعية ، ووصحنا بالتأخر ، وشبعنا بالمهما كل الخربة ، وإذا اشتغل بها أمثال : مربليوت وجوب ماسنيون وبروفنسال وكانياتي وكراتش كوفشكي وشاخت ؛ فهم علماء أخذوا . وعلى نفس النسق زرى دعوة التغريب يرون أن أهتمانا بالتراث العربي والإسلامي عملاً مرفوضاً ، بينما إذا اهتممنا بتراث الإغريق أو بتراث العرب قبل الإسلام ، كان هذا العمل باللغة التقدير في نظرهم .

وحيث يزعجهم تجديد التراث العربي الإسلامي وإحيائه ، لا يزعجهم أن يعود اليهود إلى إحياء اللغة العربية التي ماتت منذ ألف عام .

وهناك ظاهرة باللغة الأهلية في هذه التبعية في فهم التراث أو التأثر به ، فإن كتاباً لم يكتبوه عن محمد ولا الإسلام يلخص ، إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك أمثال جوستاف لوبون وأميل درمنجم . وأن تأثرهم بهذه الكتابات النصفة إنما كان جرياً على اتجاههم في التبعية لم يثبت هذا المجرى أن تحرر حين سار فيه الجيل الذي تاب لهم .

وفي مجال التأليف عن التراث ، بدأ تزعة التأثر بنظرية المستشرقين واضحة في أمثال « تاريخ المدن الإسلامية لجورجى زيدان » و « تاريخ العرب لفليبيت متي » و « ثغر الإسلام لأحمد أمين » و « الأدب الجاهلي لطه حسين » و « النثر الفنى لركى مبارك » .

وفي كثير من إنتاج العالم العربي والإسلامي عاذج مهانة لهذا ، فمنظمة الفردوسى مثلاً ترد إلى وطنه الفارسي ، لا إلى ثقافته الإسلامية . وحيث ترى محاولة إعلاء التراث الإقليمي الخالص وتصفيته من التراث العربي الإسلامي كدعوة أميل خورى حرب في لبنان . أو التخلص من الحروف العربية والكلمات العربية كما فعلت تركياً .

وقد استطاع المستشرقون في حوالى الخمسين عاماً الماضية أن يقدموا دراسات متعددة في مختلف مجالات التراث العربي الإسلامي ، التاريخية والأدبية والفلسفية والصوفية ، فرضوا فيها شكوكهم وأهواهم ودعوتهم التغريبية في دقة بالغة من خلال البحث العلمي ، حتى أصبح الآن ، وليس في وسع الباحث العربي أو الإسلامي - مع الأسف - إلا أن يأخذ بها كل المسلمين دون أن يتحفظ أو يفطن لما فيها من سوء وأنحرافات . وإنما زرى الآن أغلب كتابنا ، وقد

أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملاً على دواوين المعرف الإسلامية والبريطانية والفرنسية في كل ما يتصل بأمر ثقافتهم وتراثهم ويجدون أنه من الأسهل البالى أن ينقلوا هذه النصوص وينبئوا عليها كتاباتهم ، وبذلك يسايروا أخطاء المستشرقين ، ويفسّر الطالطات دعوة التغريب « ويعمقوا آراءهم ويزعمونها ، وقل منهم من يراجع هذه الآراء ويحصّها ، أو يرى وجهة نظره من خلال مفاهيمه للفكر العربي الإسلامي وفي ظل الكسل العقلي في العالم الإسلامي ويواصل المستشرقون أبحاثهم في هذا الصدد ويولونها ، وقد أعادوا طبع دائرة المعارف الإسلامية ، التي ما زلنا نواصل ترجمة طبعتها الأولى منذ عام ١٩٣٢ ولما ننته بعد منها ، على ما هي ملية به من الالخارفات والأخطاء وأفكار التغريب .

وتلك صورة بشعة غاية البشاعة ، أن يعتمد الفكر العربي الإسلامي ودعاته على مراجع المستشرقين وأرائهم ونحن نعرف في تأكيد أنهم يخطئون مررتين : مرة بالقصور الناتي في فهم الفكر الإسلامي ، ومرة بالتعصب وموالاة الفنون الأجنبية . ونضيف إلى هذا دلائل اليهودية العالمية ، التي تحاول أن تثبت أن لها حقاً تاريخياً في فلسطين ، أو تضيّف تحريرات مقصودة لبعض جوانب التاريخ والفكر . كما أولى المستشرقون اهتماماً كبيراً للشرق وبالبلاد العرب قبيل الإسلام ، ودراسة الحركات المنحرفة من داخل تاريخ الإسلام وفكرة « والاهتمام بها ، وإبراز الخطوط العامة للفكر الشعوي ، الذي هاجم مقومات الفكر الإسلامي ، واعتباره حقائق أساسية . من خلال هذه الملاحظات يجب أن تكون نظرتنا إلى التراث العربي الإسلامي فتحاطاً تماماً في الاعتماد على كتابات التغريب والشمومية من ناحية « ونعيد النظر في تراثنا من ناحية أخرى . فنحن أساساً لا نرفض راثنا ، ولا نعتقد أن ذلك ممكناً ، فليس هناك قوة مهما بلغت « تستطيع أن تنتزع أمّة من جذورها وروابطها وقيمها الأساسية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فليس معنى « تقدير » التراث هو قبوله دون تحقيق على دقيق » وليس معنى قبوله وخصمه ، هو إعادة تأثيره أو تطبيقه . علينا أن تكون نظرتنا إلى التراث أصيلة مستمدّة من مفاهيمنا ، فلا نعتمد على وجهة نظر الفكر الغربي ، الذي مختلف مقوماته عن مقومات فكرنا ، ولا على مخطط الاستشراق والتغريب والشمومية ، الذي لا يؤمن بأمتنا أو فكرها أساساً . ولا شك في ضرورة النظرية إلى التراث في هذه المرحلة من حياةنا الفكرية ، فهي بثابة شهادة الميلاد لنا ، والضوء الكاشف الذي نأمن في ظله العثار ، في تراثنا ، مقومات

ف Skinnerنا الأساسية الحية المستمرة المتداة التي لم تمت ، ولم تتحول إلى المتحف ، ولم تفصل عن تاريخنا . وليس رأينا ميت يحيانا ، ولو كان كذلك ما كان هناك من ضير ، فقد أحيا الأوربيون رثاث اليونان والروماني بعد أن بُرِأَ لفَّيْ سنة ، وكذلك أحيا اليهود لسايهم العبرى وبثوا فكرهم بعد ألف عام ويزيد ، إن طاقة التراث الحى تعطى ولا تنقص ، وكل قول يوجه إلى هدمها أو البعض منها هو لون من الشعوبية والتغريب . ونظرية إحياء التراث وغثائه ، تهدف أساساً إلى الربط بين الماضي الحاضر من ناحية ، والاندفاع إلى الإيجابية من ناحية أخرى ، وهى دعوة للاستيقان للتقليل ، وللتكميل لا للتكرار ، وفي تقديرو كثير من المؤرخين أن النهضة لا تنجح إلا إذا قامت على التراث وارتباطه بالجذور . ومعنى هذا أن يظل Skinnerنا نابعاً من قيمنا الأساسية ، مرتبط بعاضينا .

وكل ما تدعونا اليقظة إليه هو تحرير هذا التراث ، مما علق به من الشوائب على نحو قوامه الإيمان ب Skinnerنا وأمتنا ، وعلى أساس الجرح والتعديل ، ومعرفة الجوهر من المرض . ويقوم هذا العمل على أساس أن Skinnerنا مزيج من الروح والمادة والدين والحياة وأنه لا يفصل بينهما ، وعلى الاتخاذ ظروف دين أو فكر أو تراث آخر أداة لتطبيقاتها على Skinnerنا العربي الإسلامي . أن نظرتنا إلى الحياة تتبع من تاريخنا و Skinnerنا وليس رأينا روحيا فقط كما يحاول البعض أن يقول ، وليس عقلا وإنما هو حى متتطور ، وقدر على أن يعدهنا بالحيوية والحركة ، وإذا كان الفكر العربي قد عنى بأساطيره وخرافاته ففتحن حق بأن تعنى بحقائقنا وقيمها . وليس صحيا على الإطلاق أن الأخذ بسباب الحضارة يتطلب هدم التراث . وليس معنى فتح النوافذ للثقافات والأنسحارات أن نرى النور بأعين غيرنا .

وفي هذا المجال يمكن القول بأن نهضتنا قد أولت التراث أهمية ضخمة فقد أخذ يعمق طريقه ويحدث أثره في بعث الإصالة والضياء .

## التاريخ

ما زال «التاريخ العربي الإسلامي» يمثل قطاعاً خطيراً من مقومات فكرنا وأسسه التي طالما واجهت عوائق التغريب وحالات الفزو التي عملت على تحييدها عن قيمها ولباها ، ولقد كان تاريخنا ولا يزال عاملاً هاماً في بناء ثقافتنا وخلق وحدة الفكر وتنميته ، وهو في هذه المرحلة التي نمر بها اليوم - مرحلة ما بعد انتهاء الاحتلال للعالم العربي وبناء هويته التي ترعرع التفاؤل الأجنبي على النحو الذي يتمثل فيه القضاء عليه مما دعا إلى تعميق الفزو الفكري وتوسيع نطاق التغريب والشمعوية -- ولا شك كان التاريخ عاملاً هاماً في بناء الفكر العربي الإسلامي وأداة من أدوات دفع هذه الأمة إلى الحياة والقوة والتطور .

ولقد كانت حلة التشكيك الضخمة التي وجهت للتاريخ العربي الإسلامي . خلال مائة عام مضت عملاً بعيد المدى في هبوط روح الإيمان بقدرتنا على إبراز مكاننا الحق في الحياة الإنسانية . فقد وجهت إلى تاريخنا سهام النقد وفرضت نظريات مريبة محاول هدمه وإثارة الشبهات في بعض موافقة من أجل صرف الأنظار عنه ، أو خلق نظرة من الرببة والكرامة والتنفير منه . بينما غلت الدعوة إلى الاهتمام بالتاريخ الغربي والتوسع فيه وتقديره في صور رائعة مغربية ، وقد أتاحت دعوة التغريب للعالم الإسلامي أن تقدم له عشرات الابحاث والدراسات في تاريخ فرنسا وأنجلترا وهولندا وعمت الصحف العربية والإسلامية في حملة متصلة لا توقف في دراسات متصلة لأعلام الوطنية والسياسة والفكر والمجتمع في الغرب ، تحمل في تضاعيفها التقدير والإعجاب والتحميم لحياة هؤلاء وأدائهم وأعمالهم على نحو يدعى إلى الأكبار والإجلال ، بينما لم يجد أعلامنا وأبطالنا ولا مواقفنا المخالدة ولا بطولاتنا مثل ذلك ، ولا يمكن أن يتفرغ لها كتابنا الذين أهمهم نابليون وبسمارك وترشل ووشنطون وماركس وفرويد .

بل أن الثورة الفرنسية لو أحصى ما كتب عنها في الصحف المصرية في خلال نصف قرن لزاد مما كتب عن الثورة العاربة ثورة ١٩١٩ ولو أحصى ما كتب عن نابليون لزاد مما كتب عن مصطفى كامل ومحمد فريد .

أما في الجزائر والمغرب وتونس فإن الموقف يكون أشد عنفاً ، فقد حيل بين هذه الأجزاء من الوطن العربي أن تتصل بالتاريخ العربي الإسلامي ولقد اتصلت دعوات التاريخ وتعمقت لدراسة النصوص الأولى ، خرصن النفوذ الأجنبي في العالم العربي على دراسة الفرعونية والبابلية والأشورية وحضارة الرومان واليونان وتاريخهم ما ثمن حضارة الغرب منذ أول عهد النهضة وثورات إنجلترا وفرنسا وأمريكا . ولستنا نعارض في دراسة حضارات العالم أو تاريخ البشرية فذلك مصدر من مصادر الثقافة لا حد له ، ولكننا ننظر إلى المدف منه ، حين يصدر تاريخ الأمة العربية والدولة الإسلامية ويحدد أو يحرب أو ينظر إليه إلا من خلال تاريخ الملوك والصراع بين الأمراء والحكام ، وفق مخطط يستهدف المقارنة التي تفضي إلى احتقار تاريخنا والإعجاب بتاريخ الأمم الفالية السيطرة الحاكمة ، ومن هنا تنشأ روح المولاة للفاصل والسير في ركابه ، والأعضاء والنفرة من تاريخنا وأمجادنا التي لا تبدو في نظر الأجيال إلا صورة من الصراع والخصوصية والواقف المشتبه أو القائمة .

وليس شك أن في تاريخ كل لغة ودولة مواقف نقص وقصور ولكنها في جملتها لا تستطيع أن تقضي على عظمة هذا التاريخ ومكانته ودوره وأثره في المدينة الإنسانية والحضارة البشرية .

\*\*\*

وقد واجه « التاريخ » العربي الإسلامي محاولة ضخمة ذات شقين للقضاء عليه أو التشكيك فيه (الأولى) وجهت إلى منهجه . و (الثانية) وجهت إلى مضمونه .

فقد هاجت الجلة أسلوب كتابته وعمدت الثانية إلى التشكيك في بطولاته ومقوماته . وذلك يبراز الروايات الضعيفة وإذاعتها ، أو اختيار مواقف معينة أو شخصيات ذات طابع خاص لدراسة التاريخ العربي الإسلامي من خلالها أو إثناذها نموذجاً له .

وقد اعتمد الغربيون من المستشرقين في هذا على كتابات قدية ومؤلفات كتبها من قبل قدماء الشعوبين في حملتهم الضاربة على العربية والإسلام وكانت قد قبالت بردود علمية ومستندة عن كتاب ومفكرين لهم خطأ وهم ملائكة شارك فيها الجاحظ وأبي حيان التوحيدي وغيرهم .

ومن مقدمة ما اعتمد عليه دعاء التغريب في حماولة تصوير تاريخنا العربي الإسلامي تلك الكتب التي لم تؤلف للتاريخ والتي تناولت الشعراء والقصاصين و مجالس الشراب واللهو ، وفي مقدمتها « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهانى وألف ليه ورباعيات الخيم وترجم السهروردى وابن الروانى وما نسب إلى المجرى وأبو نواس وبشار ابن برد والضحاك ومن خلال هذه النصوص حاول بعضهم تصوير مصر بصورة الشك والجمون على النحو الذى نقله طه حسين في كتابه حديث الأربعاء .

وفي الجانب الآخر وجه المجموع العنيف إلى كل من كان ذا فضل أو عبرية في التاريخ العربي الإسلامي كالتبنى الذى وصف بأنه من غير أب ، وابن الروى الذى وصفت عقليته بأنها فارسية والمجرى الذى نسبت رسالته الفهران إلى الرهبان أو ابن خلدون الذى وصف بأنه تلميذ اليونان .

هذا فضلاً عما أضيف إلى تاريخنا العربي الإسلامي من إسرائيليات وأقاسيص وأكاذيب فقد كتب أغلبه في ظل الدولة العباسية التي كانت فارسية النزعة ذات سيطرة على فكرها وكتابها ، وكانت تحمل البعض للاميين وللعرب ، وقد غلب الشعوبيون على كتاباتها ولفقوا الأحداث والأقاسيص ، وكثير من الكتاب والمؤرخين قد اتصلوا بالأمراء والملوك والولاة والخلفاء ، وكان بعضهم في ظل هذا الذهب أو ذاك من مذاهب الفكر التي كانت في حقيقتها أحزاب سياسية كاللاؤية والبابكية والخزمية وغلاة الشيعة واتباع الشعوبية وقد كان أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغاني من أقدر الناس لساناً يخشاه الأمراء ويرد موادهم على بابه القنطرة ورأيته النته فلا يستطيعون ردء أو مخاصمه خوفاً من لسانه وقلبه ، وكان إلى ذلك شعوبياً ومتهمًا في عرضه وخلته وعقله ، ومع ذلك يصبح كتابه الأغاني مرجعاً يحرص المستشرقون واتباعهم على أن يكون مصدراً تاريخياً من مصادر الحكم على القرن الثاني والثالث فيوصف بأنه عصر فسق ومجون ، ويتحذى من ثلاثة أو أربعة من الشعراء النادفة المتعلين رمزاً للعصر كله ، دون أن تنسى إلى ذلك حلقات الilm أو دراسات أهل الفضل وحفظه القرآن والحديث والشريعة وهم الذين هم يمثلون القطاع الأكبر من المجتمع .

وقد قدم كتاب الأغانى للملوك متعة ، وكتب أساساً ليكون عامل ترف للإمراء ، ولاشك أن بروز الدعوة في فكرنا العربي الحديث إلى إعادة ما سطره الشعوبين من اتهامات ومنالات للتاريخ الإسلامي إنما يبرز في ظل هدف كبير من أهداف التغريب والغزو الثقافي وحل لواهه دعاء وجوهوا لهذا العمل .

وأخذت لهم حركة التغريب مذاهب في الفكر العربي هاجم التاريخ عموماً ولا تعرف به ، وتستمد مفاهيمها لمياجته من مذهبها في النظرة المادية الداروينية والتفسير المادي للتاريخ وهي ليست إلا نظرية من نظريات عدة يضطرم بها الفكر العربي في عداء التاريخ وخصوصته أو الإيمان به وتقدير مكانة ، ولكن دعوة التغريب تطمس دائماً هذا الجانب وفرض أن هذا هو الرأى ، وكذلك فعلت حين هاجم فكرنا العربي الإسلامي بعض كتاب الغرب ، ثم أولاه التقدير عدد آخر من كتاب الغرب ، ومع ذلك فقد أذيعت نظريات خصوم فكرنا ووسع نطاقها واحتفل بأحد دعاتها « رينان » في الجامعة المصرية في القاهرة ، بينما نظر في إغصاء إلى الدين انضموا فكرنا وتاريخنا .

\* \* \*

ونظرية التغريب إلى التاريخ العربي الإسلامي تحاول أن تشـكـكـ في التاريخ وتحـوطـهـ بـعـوـاـلـ الـهـمـوـيـنـ وـنـحـنـ لـاـنـدـعـوـ إـلـىـ تـقـدـيـسـ التـارـيـخـ أـوـ وـضـعـهـ فـوـقـ النـقـدـ وـإـنـماـ نـدـعـوـ إـلـىـ النـظـرـ الـنـصـفـ الـذـىـ لـاـ يـحـمـلـ فـيـ أـعـماـقـهـ الـحـقـدـ أـوـ الـخـصـومـةـ .

ولذلك فإننا نقبل نقد التاريخ العربي الإسلامي وإعادة كتابته وتصفيته من كل متعلق به من زيف ولكن ليس بأيدي دعاة التغريب وإنما بأيدي المصنفين ، وهنا يبرز علم الجرح والتعديل في معرفة الرجال الذين يتصلون بهذه الأعمال الخطيرة البعيدة المدى في إرساء مقومات فكرنا العربي الإسلامي ، فإننا في أساس النظرة المنهجية نؤمن بالتحقيق العلمي الذي يجعل من أول مفاهيمه وأكبر مقوماته « الرجل » الباحث ومدى إيمانه بأمته وفكرها فإذا كان من دعوة التغريب أو في تاريخه ما يشوب فإن كل ما يقوله في تاريخنا يحمل على محمل الاتهام والجرى في ظل حركات الشعوبية والتغريب .

ومن هنا كانت دعوة بعض دعاة التغريب إلى النقد التاريخي تصل أول ما تصل بالكتاب الذين يحملون لوائها ، وإذا كان أممًا كاتبين أحدهما مؤمن بالفكرة العربية الإسلامية صادق في نظرته « لم يتأثر دعوى التغريب والشوعية وأآخر عرف بماضيه في متابعة مفكري الغرب والدعوة إلى القضاء على مقومات فكرنا في الدين أو اللغة أو التاريخ فعليها أن تقبل من الأول وردد الثاني .

ويقر دعاة مذهب التغريب في النظر إلى التاريخ العربي الإسلامي أن مذهب تقدس السلف وتنزيهه عن الصفاير » ومذهب أتباع الدين على طور من أطوار التاريخ خطأً ويرون أن الأمم في بعض ظروف ضعفها تحاول وهي سبيل استرداد مجدها القديم أن تكبر من تاريخها ومضيقها وتجل أصحابه وتتحذى مثلاً علياً . وعندنا أن هذا ليس عيباً وأن مراحل الفررورة تحتاج فعلاً إلى استغلال التاريخ كقوة دافعة دون أن يكون ذلك على حساب حقائق التاريخ نفسها أو تحريرها .

ولكن دعاة التغريب الذين يعرفون ذلك لا يتوقفون عن الإسراع في ضرب هذا المهدف من أهداف الأمم التي تحاول أن تتحذى من تاريخها وأمجادها قوة للبيضة والحركة ومقاومة الفاسد . وإذا هم يسرعون فيوجهون الضربات لهؤلاء الكتاب من ناحية » ويقدمون صوراً لها قوة الذيع والانتشار تحمل صورة التدمير للعصور الظاهرة والبطولات والماضي الحاسم .

وهذا ما حدث بالفعل ، فإنما في الثلاثينيات حاولنا أن نجعل من تاريخنا العربي الإسلامي وسيلة لدفع الأمة العربية والعالم الإسلامي إلى اتخاذ بطولات تاريخه سبيلاً لمقاومة النزو والاستعادة الثقة في أمتنا وقيمنا ومقدارنا » بعد أن حاول الفوضى الفكري العربي المجد في التغريب أهمنا بأننا لم نسكن إلا أممًا تجتاحتها الدول من فرس وروم وعرب — أي والله والعرب اعتبرهم التغريب غزاه — .

هنا قام أمثال الدكتور طه حسين حاول أن يصور العصر الثاني والثالث للهجرة على أنه عصر شك ومحبوب : فإذا قام من يعارضه كالمؤرخ الإسلامي رفيق العظم هاجه في عنف » وقال له أن التاريخ منفصل عن الوطنية ومنفصل عن الدين . وأن محاولة تقادمه

محاولة مضلة وأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة مجردة ، تشيم فيها الشكوك والاتهامات .

والواقع أن الأمم في علاقتها بالتاريخ تمر بمرحلتين (١) الضرورة والبناء وفيها يصبح التاريخ وسيلة فعالة وسلاحا هاما ، وهذه هي مرحلة الضرورة التي تقاوم بها الأمة الغزو الفكرى والتغريب والشمولية وتحت في العالم الإسلامي والعربي تمر الآن بهذه المرحلة .

(١) مرحلة الاستقرار: وهذه يعاد خلالها النظر في التاريخ فيصنف من كل عوامل الخطأ والتزيف على التحول الذي يخلق منه تاريخاً عالياً .

ولذلك فإن دعوة الأمم إلى طعن تاريخها وتزويقه وتبريره وإثارة الشبهات حوله في ظل معركة البناء ومرحلة الضرورة ، لا شك أنه عمل من أعمال الشمولية ، ونحن في هذا أيضاً لا نأخذ نظرية من عشرات النظريات في الفكر الغربي لتكون قاعدة نحكم على أساسها أو تفرض علينا ، دون تقدير لمدة عوامل ؛ منها: أن مقومات الفكر العربي الإسلامي تقوم على أساس امتزاج عناصر اللغة والدين والتاريخ والتراث ولا يمكن فصل عنصر منها فالدين مرتبط باللغة ، والتاريخ مرتبط بالدين وكذلك شأن الثقافة والتراث وهذا الفصل عمل وهي إذ لا يمكن فعلاً فصل القيم الشاككة المترجة أساساً .

ومن هنا حل طه حسين على أحمد زكي (باشا) في دعوته إلى إحياء أجداد العرب ، وحل لواء تأكيد فريدة حرق العرب ل McKenna الـ السـكـنـدـرـيـة ، وعندما تحول الدكتور هـيـكـلـ عن هذه المفاهيم ودعا إلى إحياء الفكر العربي الإسلامي كـوسـيـلـةـ منـ وـسـائـلـ المـهـضـةـ وأعـرـفـ بـأـنـ حـاـوـلـ أـنـ يـوـقـظـ مـصـرـ وـالـعـالـمـ الـعـرـبـ عنـ طـرـيـقـ الـفـكـرـ الغـرـبـيـ ثمـ عنـ طـرـيـقـ الدـعـوـةـ الـفـرـعـونـيـةـ فـشـلـ فـكـيـهـماـ وـلـمـ يـجـدـ سـبـيـلـاـ لـلـيـقـظـةـ إـلـاـ عـنـ طـرـيـقـ الـفـكـرـ العـرـبـيـ الإسلامي ، عندما فعل هـيـكـلـ هـذـاـ هـاجـهـ طـهـ حـسـيـنـ بـعـنـفـ وـأـهـمـةـ بـقـصـرـ النـظـرـ (٢) .

\* \* \*

ولقد كانت حملة دعاء التغريب على « تقديس التاريخ » لا تهدف إلى تنقية التاريخ

(١) مقدمة كتابه منزل الوحي .

ولئما التشكيك فيه ، وعلى أساس قانون الجرح والتعديل لا يدخل هولاء الدعاة في نطاق الموثوق بهم ، فقد كانت مؤلفاتهم كاها وكتاباتهم تنصب على اتهام الفكر العربي الإسلامي وانتقاده . ففي «الشعر الجاهلي» سخر من القرآن والتوراة ، وأعلن شكوه في كثير من حقائق الإسلام والكتب المقدسة . وفي «حديث الأربعاء» حاول أن يصور المصر الثاني المجري بأنه عصر شك ومحون ، وفي «هامش السيرة» حاول تغليب الأساطير على أصول السيرة ، وفي «مستقبل الثقافة» دعا إلى الارتعان في احضان الغرب والأخذ بعذابه في الحياة والفكر «ما يحب منها وما يكره» وما يحمد منها وما يهاب «فالكاتب الذي يحطم أيديه حين تمسك بتاريخها لتقاوم به الغزو الفكرى الغربى والنفوذ الإستعمارى فيهم تارikhها ويعلن أن التاريخ يجب أن ينظر فيه على أساس الشك والنقد واعتبار أبطاله أئمـا عاديون يجرى عليهم ما يجري على الناس «هذا الكاتب لا يستطيع أن ينال ثقة أئمـه ولا يأخذ في فكرها مكاناً عالياً .

\* \* \*

وقد هاجم رفique العظم فكرة اعتماد الدكتور طه على أخبار القصاص في تصوير المصر الثاني والثالث للهجرة بأنه عصر شك ومحون ، حين أشار إلى أن مثل هذه من كتب القصاص وضعت في ظرف أراد به الخلفاء صرف الناس عن أخبار الخلافة والسياسة . ومثل ألف ليله وليله وقصة عنترة المبسي وواضعها مجھول وأخبار التقوّحات . وقد تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشراة والبغاء والكلام وغير ذلك فكانت منها الفن والفنين ومنها المفق والقرب من الصحة — وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المحون والهتك والانتقام في الشهوات مفلاة تسكاد تشهد على نفسها بالفن والتفقيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من كل معنى الأدب ، ولا أظنني مخطئاً إذا قلت أن ما قبل من هذا القبيل عن أبي نواس وأخراه من شعراء ذلك المصر — وهو ما اعتمد عليه مهـ حسين — إنما هو تلقيـق قصصي يراد به أحد أمرـين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمؤمن ( م — ١٣ الفـكر العربي للماصر )

وأما لسدتهم العامة إلى تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . والذى جوز الشك في قصة ابن عبادوس بجوز الشك في صحة أكثر القصص والروايات التي قتلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجنون وثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية فلا يصح أن تتخذ مثلاً صادقاً لذلك المصر (١) ..

وائف حفلت الأبحاث التي كتبها المستشرقون والبشيرون ومن لف لفهم من كتاب الغرب باتهامات وإنارات للتاريخ الإسلامي والعربي تتعلق بشخصية النبي ومعاركه وحياته الاجتماعية وتصلب مختلف أعلام التاريخ العربي الإسلامي ، وقد قامت هذه الكتابات المتعصبة على أساس من اتجاه كتابها ومفاهيمهم ، وقد أصبح هؤلاء معروفون في مجال الفكر العربي الإسلامي .

ولايختلف من غالواهم إلا أننا نجد هناك من كتبوا عن التاريخ العربي بانصاف وتقدير . ومتقطع الرأى في هذا هو أن الدول الإستمارية ذات النفوذ السياسي أو الدينى تحاول أن تبعد من كبار الكتاب في الغرب دعاء لها وأدوات لنزوها الفكرى فتتيح لهؤلاء رحلات قصيرة إلى الشرق ، تكون وسيلة لكتابات مضطربة غامضة فيها حالات تنسى بالقصور عن الفهم والدرس ، لأنها لم تكن كتابها من تحقيق فكري أو بحث على . وفي هذا يقول مسٹر جب في كتابة (الحمدية) أن مؤلفات المبشرين عن الإسلام والعرب تصدر عن أولئك الذين يحكم نفسكيرهم الاعتقاد بان الإسلام دين منحط وأن بعضهم جرى بقدم في تفهيم الإسلام ، ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المفرضة تلازم موقفهم من الإسلام .

وفي الناحية الأخرى يبرز كتاب منصفون لا يتصلون بالنفوذ الإستماري وأدواته ، فيكتبون بناء على دراسة أو بحث عريق ومن هؤلاء جوستاف لويون واميل درمنجم وتويني وغيرهم (٢) .

\* \* \*

ولسنا هنا في سبيل إلصاء الاتهامات والأخطاء أو الشبهات والشكوك التي واجه

(١) أقر المعركة بكلامها في كتابها ( المارك الأدية ) .

(٢) انظر كتابنا « الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني » .

بها كتاب غرييون - واباعهم من دعاة التغريب والشموبية - التاريخ العربي الإسلامي وذلك له مكانه في دراسة متخصصة ، غير أنه يمكن رد هذه الاتهامات والشبهات إلى عدة عوامل:

- (١) التصور في الدراسة أو الاعتماد على مراجع شموبية أو تغريبية .
- (٢) التحيز لوزارات المستعمرات والخارجية في الدول الإستعمارية .
- (٣) المولاة لدعوات الفزو السكري المنطوية خلف اليهودية العالمية أو الشيوعية أو الشموبية والتغريب .
- (٤) محاولة خدمة نفوذ الأديان أو الكنائس الغربية .

والمروف أن هذه الجهات جميعها ترصد مبالغ ضخمة في ميزانياتها كل عام لعمليات التبشير في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وخاصة (أواسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا) وأنها قد خدعت كثيراً من الكتاب في العالم العربي لكتابه أبحاث لها طابع معين ، هذا فضلاً عن دعاتها وأتباعها المتبين في كل مكان ، وما يصدر باسمهم من حفظ زاهرة « أو مؤلفات أنيقة .

واجه الفسّر الفريقي قضيّة كتابة التاريخ وتقييمه على أنماط مختلفة ، وفي ظل نظريات متعددة ، كان مصدرها ، المصور والدعوات والتياريات . وكانت هذه النظريات في الأغلب مرتبطة بدعوة أو مذهب ، كانت للفلاسفة نظرتهم إلى التاريخ ، وهي نظرة مهّدّف إلى الإقلال من قدرة وقدّرت في المقالة إلى درجة إسقاطه شيئاً ، وعدم الاعتماد عليه ، فديكارت أبي الفلسفة الحديثة يدعو إلى صرف النظر عن كلّ ما قاله السّابقون ، بينما ليبرت ينظر إلى التاريخ نظرة التقدير كأنّ علماء الاجتماع لهم نظرتهم وكذلك علماء النفس والتربية .

وهنالك النظرة الماركسيّة إلى التاريخ القاعدة على التفسير المادي للتاريخ ، حيث يرى كارل ماركس أنّ العوامل الاقتصاديّة هي العامل الأول والباعث لكلّ حوادث التاريخ ، وأنّ الاتّقلابات والاستعمار والثورات ترجع إلى أسباب اقتصاديّة .

كما جرى الخلاف حول التاريخ ، وهل هو علم أفن ؟ و قالوا إنّ العلم وحده هو عرض نصوص الأحداث وتحقيقها ، أما الفن فهو إضافة رأي المؤرخ ، وتحقيقه ل بكل موافق من المواقف أو حادث من الحوادث .

وهنالك نظرية تقول أنّ التاريخ سلسلة من سير المظماة ، وأنّ التاريخ من صنف الصفة الصالحة من الذين يُؤلّفون زعامة جاعية مستمدّة من تقوّذهم الشخصي ، ونظرية أخرى تقول أنّ المظماة تأخذ كاملاً لبيئة التي يعيشون فيها وأنّ الإنسان خاضع لمحضه .

وجري الخلاف حول علمية التاريخ أو توجيهه ، فقد أيد البعض الرأي القائل بأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة علمية صارمة ، دون النظر إلى ما ينبع عن ذلك من أثر في الفض من قدر التاريخ ، ورأى البعض الآخر أنّ التاريخ ضروري لبناء الشباب .

وجري الخلاف حول قوميّة التاريخ أو دوليّته ، وقالوا إنّ قوميّة التاريخ قد وصلت في أوروبا إلى حدّ بث الأحقاد ، وأنّ النظرة الدوليّة تعتبر العالم كله أمة واحدة ، وبذلك تتحقق

العواطف القومية وتصحي البطلولات الخاصة في سبيل النظرة الواسعة » وجرى الخلاف حول كتابة التاريخ » فحمل البعض على المؤرخين واتهموهم بالنظرية الشخصية » وأتهم بليونون التاريخ وفق مزاجهم الشخصي . ودعا البعض إلى التفسير البيولوجي للتاريخ وقال أنه وحده التفسير الأصيل ، وقال مثل ذلك أصحاب التفسير المادي وهناك من يدعوا إلى التفسير الديني والمناخي .

وهاجم كثيرون التاريخ مجلة، وقالوا أنه أشد فتكا بالآدمي من الأوبئة مثل بول فاليري ؛ ويرى فرويد أن التاريخ سلسلة أزمات في نفوس أفراد أدت إلى الإثقلابات الهائلة .

\* \* \*

أما « التاريخ العربي الإسلامي » فقد واجه رأيين مختلفين : الأول ، وهو الذي حمل ثواءه الدكتور طه حسين — معتمداً على نظرية أستاذة دور كايم — منذ الثلاثينيات وما زال خلفاء يحملون ثواء دعوته . ويرى أصحاب هذا الرأي أن التاريخ لا يقدس ولا تستبع عليه صفة الجلال ، ولا يتصل بالدين ، وليس أبطال التاريخ العربي الإسلامي إلا أنساساً ينطبق عليهم ما ينطبق على الناس .

وترى هذه المدرسة أن الاتجاه القوى في كتابة التاريخ خطأ ، وأنه دعوة إقليمية ، وفيه تمجيد الماضي وخضوع له ، لأنه يريد إحياء الأجداد وأنه يرى الماضي القوى لب التاريخ ، وبذلك يتارجح أسلوبه بين النقد والتصديق .

وترى هذه المدرسة أن يتخذ التاريخ وجهة إنسانية ، دون اهتمام بالأمة العربية أو العالم الإسلامي ، وأن التاريخ وسيلة للنظرة الشاملة إلى البشرية وتطورها ، وأن اتجاهه إلى الاعتمادات القومية ينقص من روح البحث العلمي ويحمله أشيه بالدعائية .

وترفض هذه المدرسة النظرة التقليدية » التي توصف بالقبلية وتدعو إلى معاملة

الدين الإسلامي كظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية ، ولذلك فإن الجانب الإلهي يجب أن يوضع موضع البحث الواقفي ، كما تبحث أى حقيقة اجتماعية أو فكرية<sup>(١)</sup> .

وعندهم أن الدراسات التاريخية لا تزال خاصة لتأثير المؤرخين العرب القدماء ، سائرة على منهجهم في طريقة البحث والمالحة والتفسير ، ويرى دعابة هذه النظرية أن المؤرخ الحديث لا يزال يسرد التاريخ العربي «رداً» ، يظهر أمجاده بألوان ساطعة فائزًا بالتراث المنظرية فيه ، وهو ما يسمى بالرومانتيكية الإسلامية ، أو أن يعرضه عرضًا متسرعاً سطحياً وأن الدراسات الجديدة في التاريخ أقرب إلى السطحية ، وأنها تستثير حماسة الشباب وتبعث في نفوسهم الفرود .

وتحمل هذه المدرسة الدعوة إلى تقد الماريخ والكشف عن أخطائه ، وإزالة طابع القدسنة عنه . وتلك دعوة علمية أصلية لا ترفضها ، بل ترحب بها وتعزز ، ولكننا لا نسلم بها إلا من ينطبق عليهم قانون البرح والتمديل ، فإذا ما قام كاتب أو جماعة للتصدى لهذا العمل ، فلابد أن تتوفر فيهم روح الإيمان بعمومات الفكر العربي الإسلامي وأن لا يكون من بينهم من أسقطهم تاريخهم التكري ، بحكم أنهم من دعاة التغريب أو الشعوبية .

ولكننا نرى ما ارتأيناه من أن تاريخنا العربي الإسلامي يحمل صفات مشرفة ، وأن ما به من أخطاء أو ثغرات لا تتفض من قدره « ولا تضفي مكانته ، ولا تصرف العرب والمسلمين عنه ، وهو قادر إذا قدم بإنصاف أن يعزز دعوة بناء الأمة العربية والوحدة الفكرية والدعوة الإنسانية .

\* \* \*

أما المدرسة الثانية فهي لا تدعو إلى تقدس التاريخ ، ولكنها تدعو إلى اعتباره قوة ذات فاعلية في بناء الفكر العربي الإسلامي الجديد ، وخلق هضبة ثقافية وروحية تمين على وحدة الفكر في الأمة العربية والعالم الإسلامي .

(١) قسطنطين زريق ونبية أمين فارس .

وترى هذه المدرسة أنه لا تعارض بين الروح القومية والأساليب العلمي في دراسة التاريخ » وأنه في الإمكان أن يكون التاريخ حافزاً لهم دون أن يكون عبئاً يضيق النظرة، ويصرفها عن مهام الحاضر .

وعند هذه المدرسة أنه اليوم في مجال التحدي ورد الفعل — حيث تقوم الدعوات التغريبية والشمولية محاولة تجريد التاريخ العربي الإسلامي من كل أمجاده وبطلاته ، فإن الأمر يتطلب إبراز هذه الجوانب والاعتزاز بها ، على أن يكون هذا الاعتزاز بعيداً عن الإغراء » وأن هذا التاريخ في جوهره إنما يمثل حركة ضخمة شملت جانباً واسعاً من هذا العالم الإنساني إمتد من الصين إلى الأندلس » في مرحلة طويلة امتدت أربعة عشر قرناً ، وكان لها آثارها في الفكر الإنساني والحضارة البشرية ، فضلاً عن مفاهيمها وقيمها ومثلها الجديدة القائمة على الحق والمعدل » والتي عثّل أمّة لها رسالة حية ما زال متفاعلة مع الفكر الإنساني ، وقد كان دور « العالم العربي الإسلامي » بناءً ، وكانت حركته متقدّرة متحركة في سلسلة متصلة للحقائق .

وتعتبر هذه المدرسة أنه من الضروري اليوم في مرحلة بناء النهضة الجديدة للعالم العربي الإسلامي موالة التاريخ اهتماماً كبيراً حيث لا سبيل لأنطلاق أمّة دون فهم واع ل تاريخها وأنه لا حاضر لأمة لا ماضى لها .

ويرى الدكتور عبد العزيز الدروى أن فهم الأمة لذاتها وعما بها المضـلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشـدـه لنفسـها ، يعتمد إلى حد كبير على فهمـها لـتـارـيخـها فـهـما صـحـيـحاـ، وأنـهـلاـ يـكـنـ لـأـمـةـ أنـ تـجـدـ سـبـيلـاـ لـالـانـطـلـاقـ ، وـعـوـنـاـ عـلـىـ النـهـضـةـ الصـحـيـحةـ دونـ فـهـمـ وـاعـ سـلـيمـ لـتـارـيخـهاـ .

\* \* \*

ومن رأينا أن كون التاريخ عاملـاـ في مرحلة بنـاءـ الأـمـمـ علىـ بـثـ الروـحـ الوـطـنـيـةـ فيـ الشـعـوبـ دـافـعاـ إـلـىـ الثـقـةـ بـالـنـفـسـ عـلـىـ اـسـتـثـنـافـ دـورـهـ فـيـ الـحـضـارـةـ لـيـحـولـ دونـ تـقـيـةـ هـذـاـ التـارـيخـ منـ كـلـ مـاـ يـعـرـضـ النـظـرـةـ الـعـلـمـيـةـ »ـ وـأـنـ مـاـ فـيـ التـارـيخـ الـعـرـبـيـ إـسـلـامـيـ مـنـ جـوـانـبـ ذـاـخـرـةـ بـالـبـطـولـةـ وـالـكـرـامـةـ وـالـسـاحـةـ قـادـرـ إـذـ حـرـرـتـ حـوـاشـيـهـ مـنـ كـلـ مـاـ يـعـارـضـ مـعـ

الروح العلمية التي بذر بذرتها الفكر العربي الإسلامي أساساً وحلّ أمانتها — على أن يحقق هدف بناء فكر الأمة .

إنما الذي يحيط دأماً بالخدر ان تجري المحاولات للتشكيك في الحقائق الثانية أو محاولة تصوير بعض الجوانب على نحو يبيت في النفس المهزعة أو الغض من القيم الأساسية أو أن تجري دراسة التاريخ العربي الإسلامي خدمة مذهب من مذاهب السياسة أو الفكر والاقتصاد .

فلا بد أن يكون هناك قدر واضح من الاعتراف بعكارة التاريخ في فكرنا العربي الإسلامي ودوره ومهمته وأثره في هذه المرحله الدقيقة ، وإن يصحب القدرة في مجال التحقيق التاريخي إبعان صادق بفكر هذه الأمانة وشرب كامل لروحها ، وتحرر كامل من الخضوع لنarratives التغريب والشمولية وال فهو الثقاف .

ومن هنا لاينفصل النظر إلى التاريخ عن النظرة إلى الأمة ومقوماتها ولا على الفكر العربي الإسلامي ككل ، فلا يخضع التاريخ لمذهب ما ولا يكون التحقيق العلمي عاملاً من عوامل تجريده من روحه . ولا شك أن صدق النظرة سيحول دون استغلال الشكوك أو الخصومات أو مثالب بعض الشخصيات خلق روح الاستهانة أو الغض مما يحمل التاريخ العربي الإسلامي من بطولات وإيجابية وتقدير .

وليس يستطاع أن يقال أن تاريخ أمة من الأمم قد خلا من مثل هذه الشكوك أو الخصومات أو المثالب وتحرر منها ، فالإنسان هو الإنسان ازاء الملك والحاكم ولن يستعب العبرة بالأحداث العابرة توضع موضع الاهتمام لتبدو ذات أثر أكبر من واقعها بينما ترك الظواهر الكبرى في حياة الأمة دون التركيز عليها .

فالتاريخ علم وفن وتجيئه ، ولا يمكن تحريره من هوى الكاتب الذي لا بد أن يكون صادق الاعيان بفكرةه وامته أساساً وإذا كان من الضروري بناء إبعان الأمة بما يعطيها بما يدفعها إلى العمل « فإنه من الضروري أيضاً دراسة الأحداث وانتقادها لاستخلاص العبرة منها في زراعة كاملة .

ومن هنا لا بد من تأكيد الرابطة بين التربية والتاريخ وال العلاقة الوثيقة بينهما ، فالجانب الإيجابي المفهوى منه يعطي قوة الدفع ، والأحداث التي يتصل فيها الخير والشر تدرس بروح علمية وانصاف لتعطى العبرة لا لتمثل التشهير .

ومن هنا يكون وضوح الموقف من مسائل متعددة تحاول التغريب والشعوبية أن تشير لها . ومن هنا يكون صدق النظرة إلى ما يشار من أن فلانا التركى الأصل أو الفارسى ، في حماولة لتشوه مكان العرب أو الفض من قدرهم ، ولاشك أن النظرة الحقيقية هي أن البيئة هي التي تخلق العطاء والأعلام وليس المجلس » فإن الفىكر العربى الإسلامى هو الذى خلق الفارابى والغزالى وابن رشد وليس التركية أو الفارسية أو غيرها ، إذ الواقع أن الإنسان ابن بيته وبعثته واللغة التي يتعلم بها ، وأن العربية الإنسان فن تكلم العربى فهو عربى . وليس بين الإسلام والعربى صراع ولكنهما شقين لحقيقة واحدة ، وقد حاول التغريب وحاولت الشعوبية أن عزق وحدة الاممأاج بين مقومات الفىكر العربى الإسلامى من أجل الفض من شأن هذا البناء الانساني التكامل حيث لا تعارض بين حافر التاريخ والأسلوب العلمى » فلاتعارض بين عربية التاريخ وأسلاميته .

ونظرتنا أتنا لأن جعل التاريخ عيناً ولا تحرر منه ، ولا تفصل عنه ، وحيث أن التاريخ ذخيرة أجياد وذكريات وسجل بطولات وتخليد معارك وشهادة ، وحضارة وفكرة ، فإنه عامل من أكبر العوامل في بناء الأمة النفسي والاجتماعي ، ولا يعن ذلك كله من دراسة التاريخ وفق روح علمية منصفة » على أساس أن التاريخ عامل من عوامل وحدة الفكر التي هي العامل الأكبر في بناء شخصية الأمة ووحدتها .

\* \* \*

ومن الجدير بالنظر أن منطق الفكر العربى في النظرة التاريخية ليس ملزماً أن تتخذه منهجاً لنا ويمكن الاستئناس به حيث يسود منهج التاريخ الإسلامى العربى مخالفاً مع منهج التاريخ الغربى وفي هذا يقول مستر جب :

« إن التاريخ الإسلامى سار في وجهة معاكسة للتاريخ الأوروبى على نحو يثير الاستغراب ، كلامها قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط » ولكن

ينهمما فرقاً أصيلاً بينما خرجت أورباً على نحو متدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من النهوض الناجم عن غزوات البرابرة، ابشق الإسلام ابشاً مفاجأةً في بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تفزع على التصديق في أقل من قرن من الزمان إمبراطورية جديدة في غرب آسيا وشواطئ البحر الأبيض».

ولاشك أن هذا الاختلاف يجعل استغلال المذهب الغربي في تفسير التاريخ العربي الإسلامي عمل غير طبيعي ولا منصف . ومن هذا تبدو فلسفة التاريخ العربي الإسلامي على قاعدة تحرير التاريخ العربي الإسلامي من :

(١) عوامل الفخر بالجنس أو ادعاء بطولات والنظر بمقدار إلى كتابات المستشرقين وخصوص الفكر العربي الإسلامي .

(٢) ابراز جانب الجماعات وأندفاعها القوية في مجال الحرية والدفاع عن السكرامة .

(٣) وحدة الفكر العربي الإسلامي أساس من أسس النظرة فالعروبة والإسلام شقان لحقيقة واحدة .

(٤) ليس العامل الاقتصادي وحده هو الذي يوجه التاريخ ولكن عامل لا يمكنه انكاره أو تجاهله بالإضافة إلى العوامل الروحية والسياسية وعوامل المناخ .

(٥) لانقديس للتاريخ ولا احتقار له .

(٦) نظرتنا التاريخية انسانية تهتز بروح بناء وحدة فكر الأمة ورد طعنات خصومها .

(٧) روح الزراحة والأنصاف والإيمان بعمومات الفكر العربي الإسلامي هي أساس النظرة التاريخية .

(٨) تحرير التاريخ من محاولات التزييف مع اليقظة لمحاولات التحرير .

- (٩) ليس التاريخ هو تاريخ العظام ولا العصور وإنما تاريخ الأمة وبطولة أهالها وموافقها .
- (١٠) أثر الفرد في البيئة ، وأثر البيئة في الفرد كلها يسراً جنباً إلى جنب في النظرة التاريخية . فالبطولة والجماعية كلاهما مؤثران في التاريخ .
- (١١) المظرة التاريخية شاملة تضم الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعمارية .
- (١٢) التفسير الديني والبيولوجي والمادى جميعها أسس في النظرة إلى التاريخ دون أن تنفرد واحدة منها .
- (١٣) الارتفاع عن النظرة الماديه المضه والروحية المضه .

## اللغة

واجهت اللغة العربية أضخم معارك التغريب والشمولية ، التي كانت بحق الرباط الأكبر بين العالم العربي من جهة كوحدة قومية وبين الأمة العربية والعالم الإسلامي كوحدة فكر وتراث وثقافة . وكانت حدود المعركة هي القضاء على الفصحى وتغريب العامية والكتابية بالحروف اللاتينية ، أو اضعاف الفصحى ، وإزالتها من مكانها بفرض العامية في مجالات ثقافية مختلفة ، وأهلاها القصة المسرحية والإذاعية .

وقد واجهت اللغة العربية هذه المعركة الداخلية في نفس الوقت الذي عمل النفوذ الاستعماري الغربي على حصرها في العالم العربي وإزالتها عن مكان الصداره في العالم الأفريقي والآسيوي ، حتى لاتصبح في ظل مقوماتها وقدرتها لغة عالمية للعالم الإسلامي كله ، باعتبارها أساساً لغة الفكر والثقافة ، فقد حال الاستعمار دون انتلاقها ، وقد كان لها من قبل جولة الاحتلال الغربي ، مراكز ومعلمات أساسية تتبعها ، متصلة بالاسلام نفسه في توسيعه وانتشاره وقد استطاع النفوذ الاستعماري أن يقاومها ويحمل عملها لغته ، فاصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة الأولى والساندنة في آسيا واللغة الفرنسية هي اللغة الأولى السائدة في إفريقيا ، وأمكن تغريب اللهجات الإقليمية واللغات المحلية أيضاً لتكون تالية للغات الأجنبية وبذلك انحدرت اللغة العربية إلى الدرجة الثالثة واقتصرت على أن تكون لغة الثقافة في أضيق الحدود .

وفي العالم العربي حرص النفوذ الاستعماري على أن تصبح لغته هي اللغة الأساسية في دراسات المدارس والجامعات ، وأبعدت اللغة العربية عن مناهج الدراسة وبلغ ذلك درجات من القوة والضعف حسبما شاء الاستعمار ، وقد وصل ذلك أقصى درجات العنف في الجزائر حيث ابتدت اللغة العربية كالية ، ولم تعد تمثل إلا حلقات صنفية من المناهج باعتبارها لغة أجنبية ، أما اللغة الرسمية الأساسية فهي الفرنسية وفي مختلف أجزاء إفريقيا المحتلة سيطرت

اللغة الفرنسية وأصبحت لغة أساسية هي لغة الدولة ، والتعليم ، وكذلك حدث في الهند والمناطق التي احتلتها بريطانيا في العالم العربي كصر والعراق وفلسطين والسودان . وقضية تغريب اللغة العربية ذات تاريخ طويل وجدور متعددة ، وقد أخذت أساليب متعددة ، ومحاولات متوازية ، لفرض العامية واللغة المختلة بالجلات النقطة عليها وامتهانها وتصويرها بصورة المجز والقصور عن مسيرة الحضارة والعمر ، أو الإستجابة لكلمات المدينة .

وقد أثيرت حالات متعددة تهدف إلى المقارنة بينها وبين اللغة اللاتينية استهدفت الدعوة إلى أن تتحذى اللغة العربية نفس الطريق الذي اتخذته اللاتينية ، ويتحدث عدد كبير من مفكري الغرب من مستشرقين وعلماء عن تطور اللغة العربية فيرون أن مصلحة المتحدين بها هو في تغليب اللهجة في كل قطر حتى تصبح لغة إقليمية ، كما فعلت أوروبا باللغة اللاتينية حين أوردتها المنجف وأقامت من لهجاتها لغات .

ولطالما ألح هؤلاء الكتاب على هذا المعنى وأكثروا من تردده وانخدع به بعض كتاب العرب غير مقدرين الفارق الكبير بين اللغتين وتطورها . وإن اللغة العربية هي لغة أمة واحدة تحمل ثقافه وفكراً ميازال حيا متقاعلاً لم يتوقف أو يتجمد ، وأن هذه الأمة تعتقد من المقرب الأقصى إلى حدود إيران ، وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراص والتقييم أو تقييم ارتباط ، وقد أثمرت هذا «الفكر العربي الإسلامي» الذي تضمه ألاف الكتب والجلات والخطب والمحاضرات النشورة في مختلف مكتبات العالم ، وإن هذا الفكر الذي هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على «القرآن» الذي هو الرابطة الكبرى وان في الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنه أن يقضي على هذا التراث الحي كله ، وأن يفرق هذه الأمة وبذلك نضيع تاريناً متصلناً امتد أربع عشر قرناً .

وقد بدأت الجملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي وأمنت على أيدي كتاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا . وقد تبلورت هذه الجملة في عبارات مسؤول كوكس عام ١٨٩٢ في خطاب ألقاه في نادي الأزبكية بالقاهرة جمل عنوانه «لما لم يوجد قوة الإختراع لدى المصريين الآن» وأجاب على هذا السؤال بأن السر في تأخرهم هو «اللغة العربية» وإن المصريين لو اخذوا لهم لغة «إقليمية» كما فعلت بريطانيا مثلاً لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا .

وتابعه القاضي « ويالور » عام ١٩٠١ بحمله أخرى دعا فيها إلى مسامه « لغة القاهرة » وأقترح كتابها بالحروف اللاتينية ، وفي المقرب وجه المستشرق ماسينيون الدعوة عام ١٩٢٩ إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وقال إن اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجاري الزمن ودعا العرب في شمال إفريقيا وفي سوريا — وكانتا مختلطين بالقوات الفرنسية — إلى هذا العمل ، وتابعه في الدعوة من بعد (المستشرق م - كولان) حيث دعا إلى العامية في المغرب ، ومفضي بعض كتابنا الذين كانوا يحملون أمانة الفكر لأوروبا فتابعوا هذه الدعوة « التغريبية » فدعا طفي السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمي في مصر والخوري مارون غصن في سوريا وكثير غيرهم إلى العامية والحروف اللاتينية .

\* \* \*

وقد وجدت الفصحى نصراء من أهلاها ومن غير أهلاها .

فقد أشار مسترجوبي المستشرق الإيطالي معلقا على حديث كبير من الكبار أنه في تغيير أسلوب اللغة القديمة وتتبع الأسلوب الفربى في كتابه « الحروف اللاتينية » : « أنا على عكس هذا الرأى ، أرغب في أن لا ينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضى ، لأن في الماضي جداً كبيراً ، وهذه اللغة قد لعبت دوراً خطيراً في التاريخ الماى » .

أما أرنس ريتان وهو الكاتب الفرنسي الذى لم يكن من نصراء الفكر العرب فإنه يقف من اللغة العربية موقفا منصفا . يقول : « إن من أغرب ما وافق في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء » فبدأت بفأة في غاية الكمال سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بمحى لم يدخل عليها منذ يومها هذا أى تتعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكة ولم يغض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يرجعوا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى . ومن أغرب المدهشات أن ثبتت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحراء عند أمه من الرجل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معاناتها ، وحسن نظام ميانها ، وكانت هذه اللغة مجهملة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حال الكمال إلى درجة أنها لم تغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف

لها في كل أطوار حياتها لاطفوله ولا شيخوخته .

ويقول راسكه الفيلسوف الألماني : إن الثقافة الإنسانية تتمدد على لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نشتلت اللغة العربية في الشرق روحًا ففيه ، ولا يمكن فهم المصطلحات الأدبية الفارسية أو التركية بدون العودة إلى «الكلمات العربية » وخاصة أنه وحي القرآن الكريم الذي لا يحجارى ، يعد بلا مراء أساس العقيدة الإنسانية والثقافة البشرية .

ويرى الدكتور المستشرق عن الكريم جرمانوس <sup>(١)</sup> إن اللغة العربية سندًا هاماً أبقى على روعتها وخلودها ، هو «الإسلام» فلم تفل منها الأجيال المتعاقبة والمصوّر التباعية واللهمات المختلفة ، على نقيض ما حدث للغات القديمة المأله ، كاللاتينية حيث ازروت عالماً بين جدران المآبد وكادت تنقرض .

وقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبس آلاها من الكلمات العربية وازادت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوّة ونقاء ، ومن هذه اللغات التي تأثرت بها الفارسية والتركية .

والعنصر الثاني الذي أسمى ينصيب ملحوظ في الأبقاء على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تبارى . فاللأمانى المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلة واحدة من اللهجات التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التي كتبت في الجاهالية قبل الإسلام .

ولولا تطور اللغة العربية الدائب لما استطاعت الأجيال الجديدة أن تعي لغة أجدادهم ، والمرونة التي تتطوّر عليها الضاد لم تنشأ جزاً وإنما هي نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية حيث أن ماتميز به من موسيقية وانسجام وقابلية للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

وقد بز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة ، وأصبح من البدويات

(١) كتابه الأخير : « بين فكرين » عام ١٩٦٣ . والبارات ترجمة غالى شكرى

إن مفكري الاسلام كانوا أستاذة الأوربيين في الفرون الوسطى « في مبادئ العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف سنة قواعد كان يجهلها الفريزيون .

وقد استطاع « الجاحظ » أن يكشف في كتابه « البيان والتبيين » الأسباب الفزيولوجية للتغيرات السريعة في الأصوات ، إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة وضبطهما . ونتيجة ذلك أن السکامة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة حسب اختلاف الشعوب » كما لاحظ أن عنة عينها طبيعية في حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر في النطق وأن اختلاف الأحوال الجوية يؤدي إلى اختلاف في الكلمات .

وقد استطاع « واصل بن عطاء » مؤسس حركة العزلة » وكان هذا العالمة لا يستطيع نطق حرف الراء لذلك كان يقوم بابدالها ببراداتها خالية منها . كان يقول ملحد بدلاً من كافر والخطب بدلاً من البر وهكذا ، كما نسب تفخيم الحروف كالقاف والصاد واللام إلى تشويه في الفم أو فساد اللغة .

ولست بحاجة إلى الاشارة بعثارات الأصمعي وسيبوه والسبستاني وغيرهم للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا الغرب في هذا المضمار .

وفي رأيي أن هذه « الطبيعة الذاتية » التي طبعت عليها اللغة العربية جعلتها في مركز الانفراد والتباهي وسط اللغات الأوروبية .

ولاشك أن اللغة العربية هي من صميم الدعوة القومية المعاصرة في البلاد العربية » فهي أداة الربط التاريخية بين شعوب هذه المنطقة .

واللغة العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف الصوتية وبكتمة الحروف الساكنة وبصلاح الحروف المتحركة وتنبييق قواعد النحو على الكتابة العربية يرجع عهدها إلى القرن الثامن الميلادي وقد روجعت تلك القواعد بدقة وعناية مع مراعاة طبيعة اللغة العربية فاصبح من المتعذر تبديلها أو تبدييلها .

ففي خلال أربع عشر قرناً أخذ الكتاب والقراء في الأقطار الكائنة من صفات

الهندي شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً يقطلون بآياتهم إلى ذلك الأدب الخاضع  
للتقاليد التحقيق والأملائية الدقيقة .

\* \* \*

وكما أثرت اللغة العربية في الفارسية والتركية فقد أثرت في اللغات الأوروبية وكان أثرها  
بعيداً في اللغة الأسبانية ، فقد استمرت اللغة العربية عانياً قرون في الأندلس أقامت حضارة  
ضخمة ، فكان من الطبيعي أن تؤثر في اللغة الأسبانية والبرتغالية وقد أحصى العلامة  
دوزي وأنجلمان مدي ذلك الأثر كتاباً مهماً (مفردات السكلات الأسبانية والبرتغالية المشتقة  
من العربية طبع في ليدن ١٨٦٩) وقد أجري الأسبانيون عدداً من التصفيات لغة العربية ومع  
ذلك فلا يزال ١٢ في المائة من كلماتهم عربياً ، وقد أثرت العربية في اللغات الفرنسية  
والإنجليزية والألمانية وحوت اللغة الإنجليزية أكثر من ألف كلمة عربية ، وهناك اليوم  
ما لا يقل عن ٢٧٠ كلمة من أصل عربي ما تزال تستعمل في اللغة الإنجليزية يومياً . وقد  
بدأ تسرب السكلات العربية إلى اللغات الأوروبية منذ عام ١١٥٠ .

ويقول الدكتور على مظير أن من يتبع الأنماط العربية التي دخلت على غيرها من  
اللغات يرى أنها لم تترك لغة من لغات أوروبا الأول لها فيها أثر ، في الأسبانية والبرتغالية  
والفرنسية والإنجليزية والغالية القديمة وفي الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالبولندية  
والإسكندنافية في شمال أوروبا وفي الروسية والبولندية واللغات السقليدية وفي الإيطالية وبعض  
لغات فرنسا وإيطاليا . كما أن عور الباحثين في جهات البليطين في شمال أوروبا على سكة  
اسلامية عربية هي من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوماً  
من الأيام<sup>(١)</sup> .

ولطالما كتبت أبحاث عن اللغة العربية ومقارنتها مع اللغات المختلفة في كثير من المعايير  
وقد ألف (الياس انطون الياس) كتاباً باللغة الأسبانية ذكر فيه السكلات التي من أصل  
عربي ، قال فيه «أدى إلى البحث إلى الحكم بأن «العربية» هي أقدم لغة حية» وقد أرجم كثيراً  
من السكلات الإنجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها إلى أصلها العربي وقد ضم معجم

(١) مجلة المعرفة - مايو ٩١٣٣ .

وبسر الأنجليزى الذى صدر عام ١٩٣٥ براجعة الدكتور فيليب حتى (٦٠٠ ألف كلمة) ماخوذة من اللغة العربية منها ٥٠٠ كلمة من الألفاظ المستعملة في الكتابة والأحاديث العادمة والنصف الآخر في الشئون الفنية . وقد أكمل هذا البحث معجم (دوزي) ومجم فشر الكبير ، وقد أشار الدكتور لوبيجي رينا لدى الإيطالي إلى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً في المتنين الصقلية والإيطالية ، وإنما لا يزال الجزء الأكبر من الكتبات العربية الباقيه تفوق المحصر ، وميزة هذه اللغة أنها دخلت بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

\* \* \*

و هنا يبدو الفارق البعيد بين اللغة العربية كأمة حية وبين اللغة اللاتينية التي اضطرت إلى أن تخنق ، وجلة الرأى في ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت كأمة للشعب يموت الدولة وبقيت كأمة للكنيسة والملاء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تكيف بتكيفات مختلفة حسب الأماكنة والأزمنة والمناصر ولم تكن اللاتينية لغة الأصلية وإنما كانت أخرى كالسالية والسكونية والجرمانية الهندية امتهنت بلغة اليونان فلم تثبت تلك الم评议ات إلا بتأديب الزمن وتنوع الكتب وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وهذا هو رأى الأدب انطون صالحاني اليسوعي <sup>(١)</sup> .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله ، وهي لم تستطع التغلب على « اليونانية » لأن اللغة اليونانية ارتبطت بمحضارة أرقى من حضارة الرومان ، فلما انتشرت الإمبراطورية إلى شطرين : الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية ، كانت اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب <sup>(٢)</sup> .

هذا فضلاً عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة ارستقراطية لا يغارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة ولم تغفل في طبقات الموام <sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

ولست في مجال الألفاظ في تصوير أثر اللغة العربية في ثلاث خطوط متوازية :

(١) مجلة المشرق م ٢٢ (شباط ١٩٤٥) .

(٢) سالم المصري (آراء في اللغة والأدب) .

الأول : هو تراجع اللغات السريانية والتىقطرية والبربرية واللاتينية والaramية .

الثاني : التأثير الضخم في اللغات الحية الفارسية والأردية والتركية والسوادنية . فقد امتحنت معظم هذه اللغات الحروف الأبجدية العربية حروفا لها واستعانت كثيراً عبارتها وجلها . وأن ثلاثة أربع الكلمات في اللغة الهندوستانية مأخوذة من اللغة العربية وقد أحنت لغة شبه جزيرة الملايو الحروف الأبجدية العربية واستعانت لغات السودان الجنوبي كثيراً من كلمات اللغة العربية . وقد أشار المشرقي برون إلى أن اللغة العربية في اللغة الفارسية يقوله : أنه من الصعب أن تكتب لغة فارسية خالية من اللغة العربية كما من الصعب أن تكتب لغة إنجليزية خالية من اللغة الإنجليزية واللاتينية .

الثالث : أن اللغة العربية في اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية والبرتغالية ؛ في اللغتين الأسبانية والبرتغالية عدد كبير من الألفاظ والاصطلاحات وكذلك الألانية واللغات الجرمانية الأصل كالبولندية والاسكندنافية في شمال أوروبا وفي الروسية والبولندية واللغات القوقازية الأخرى وفي الإيطالية وفي لهجاتها كلها مدينة نابولي . وقد أشار سيد بليو إلى أن الكلمات العربية التي دخلت اللغة الفرنسية أكثر مما دخل منها في اللغة اللاتينية .

ويقول لوبيجى رينالدى أن اللغة العربية قد تركت عدداً عظيماً من الكلمات في اللغتين القوقازية والإيطالية ؛ وأن كثيراً من الكلمات القوقازية التي من أصل عربى انتقل إلى اللغة الإيطالية ، وأن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية ليشهد بما كان للمدنية العربية من قواد عظيم في العالم المسيحى .

هـ توجد في اللغة الأسبانية وحدها أكثر من ألف وخمسين كلمة عربية .

ودخلت اللغة البرتغالية ثلاثآلاف كلمة عربية فضلا عن أن ربع اللغة الأسبانية مأخوذ من اللغة العربية ، وقد امتد هذا الأمر إلى لغات البرازيل المأخوذة من اللغة البرتغالية .

وقد أحلت الكنائس المسيحية في العالم العربي اللة العربية محل اللة القبطية والسريانية  
وجعلتها لغة الصلوات واعتمد البروتستانت ترجمة الأنجيل إلى اللغة العربية .

ويقول دكتور براون : إننا نجد أن لغات الشعوب التي انتقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية تكون من العبارات الفنية المعلقة بالدين واللغة - ولو أن أحداً أراد أن يكتب بالفارسية بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ العربية لفسر عليه الأمر ، وقد حلول الأمير جلال مثل هذه المحاولات حين مالـف كتابة (خرسـان نـامـه) أي كتاب الملوك سنة ١٨٨٠ م ولكنه بـاء بالـشـلـ ، والـشـاهـنـامـهـ تقـسـهاـ وقد أـلـفـهاـ الفـرـدـوسـيـ منذـ أـلـفـ سنةـ تقـرـيـباـ وـقـصـدـ مـتـمـدـاـ - كـاـ تـدـلـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ المـقـارـنـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الشـعـرـ المـاعـصـرـ لهاـ أنـ يـصـوـغـهـاـ فـيـ أـقـدـمـ الـعـبـارـاتـ وـالـأـسـاـلـيـبـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـدـعـ أـنـهـ خـالـيـةـ مـنـ الـأـلـفـاظـ الـعـرـبـيـةـ كـاـ يـظـنـ بـعـضـ النـاسـ مـنـ لـاـ قـدـرـةـ لـهـ عـلـىـ التـحـقـيقـ وـالـتـحـيـصـ .

والملسون في قارة الهند ( الهند وباسكستان ) يعتبرون اللغة العربية لغتهم الأولى واللغة الأوردية إنما هي مزيج من اللغة العربية واللغة السنسكريتية مع قليل من الفارسية والتركية .

ولاشك أن محاولة الاستثمار والتغريب في وقف نمو اللّغة العربيّة في العالم الإسلامي، إنما كان يهدف أساساً إلى (١) الفصل بين المربّ والّمُسلّم (٢) عزل الإسلام نفسه عن النّبوة (٣) محاولة خلق ثقافتين عربية وإسلامية، وذلك بالفصل بين الثقافة العربيّة والإسلامية الواحدة، التي كان قوامها أساساً القرآن والّلغة العربيّة والّفكّ الإسلامي.

وقد أشار القس سموبيل زويير منذ أوائل هذا القرن إلى هذه المركبة الصامطة التي، كان الاستعما<sup>ر</sup> قد أخذ خططه لها ، واستطاع أن يتحقق فيها بمحاجا<sup>ت</sup> فاتح الحد ، حين قال.

« يوجد لسانان لها التصيير الأوفر في ميدان الاستثمار المادى و مجال الدعوة إلى الله و هما الأنجلزى والعربى » و هما الآن فى مسابقة و عناد لا نهاية لها لفتح الفارة السوداء (أفريقيا) مستودع النفوذ والمال « يريد أن يتم كل منهم الآخر ، و هما المعضدان للقتلين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشرى ، أعني النصرانية والإسلام » .

و الواقع أنه لم يكن في استطاعة العالم الإسلامي أن يقف في وجه النفوذ البريطاني الذي أوقف اللغة العربية عن النفو و التمدد في المناطق التي فرض عليها سلطاته ، أما في العالم العربي فقد أمكن أن تقاوم اللغة العربية و تدفع عنها سلطان اللغة الأجنبية إلى الحد الذي حماها من التقلص .

و قد اتسمت الحلة على اللغة العربية في فارس و تركيا و أفريقيا و الهند وأسكنن عن طريق حملة التزبيب أن تغير تركيا حروفها العربية و تستبدل بها حروفًا لاتينية ، و جرت في إيران محاولات من أجل إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية و وردت هذه المحاولة ، وفي الهند فرض سلطاته فتحي اللغة العربية و حصرها في المساجد والصلوات و في أفريقيا فرضت اللغة الأنجلزية سلطتها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن التزبيب قد أولى اهتماماً كبيراً للدراسة المبجات وأصولها » وألقت مؤلفات عديدة عن عamiات مصر و تونس وغيرها وأدخلت دراسات الالهيجات كأبحاث علمية إلى الجامعات و بحث المجمع اللغة .

\* \* \*

و قد أدى انتشار الإسلام على نحو نفوذ اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والعبادة ، وبالغم من كل المخلافات و عمليات التوقيف ، فإن العربية ما زالت حية قادرة على النفو و التطور والاستجابة للعلوم الحديثة والحضارة وكلما ازدادت دعوة الوحدة العربية قوة زادت نماء ، وكلما اتسع نطاق الترابط والأخاء بين أجزاء العالم الإسلامي أمكن أن تصبح لغة عالمية للعالم الإسلامي أو اسبراطتو الشرق ، و في الباكستان تردد الدعوة داعياً إلى اتخاذها لغة الدولة « وفي أندونيسيا وإيران تجد الثقافة في اللغة العربية أساساً لا سبيل إلى تجاوزه .

و إذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لعشرة مليون مسلم من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والدين لستمائة مليون و نصف مليون مسلم ( وهو مقدار المسلمين اليوم ) .

وهي لغة جالية القدر ، لا تقوطها من باب الاعتراض بل تقولها باسان الباحثين والعلماء ، فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف وكلمات اللغة الانجليزية مائة ألف أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ومعجم لسان العرب يحتوى على ٨٠ ألف مادة (لا كلمة) .  
ومواد اللغة العربية تتفرع إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم متفرقة بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة ، وليس في الدنيا لغة اشتقاقية غنية إلى مثل هذا الحد<sup>(١)</sup> .

ومن خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف إلا فيما ندر وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفق بمحاجة التسخين . ولل فعل العربي صيغ متعددة تبلغ الانني عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي .  
وتمتاز بضروب من النوع في مجال الاشتغال والمحاجة والاستمار والسكنائية ، كما تتميز بأنها أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع وحروفاً وتعديلات حتى أنها تفوق اللغة الانجليزية في عدد الأصوات إذ بها ٢٨ حرفاً غير مكررة في حين أن اللغة الانجليزية بها ٢٦ حرفاً ومنها مكرر .

\* \* \*

وإذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على نuo اللغة العربية وتوسيعها بين مسلمي العالم فإن منطق القوة هو الذي فرض اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية . وقد أشار جاك بيرك إلى تجربة اللغة العربية في الجزائر فقال : « أن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في الترب هو اللغة العربية ، بل اللغة العربية السكانية الفصحى بالذات فهي التي حالت دون ذوبان المزرب في فرنسا ، كيف كان ذلك ؟ لقد كان المستعمرو قوة مادية مدهشة واقتصاديات مدهشة ، ومدنية » ومع ذلك يلاحظ أن شيخ علماء الجزائر الذي كان يعتبر نفسه رجلاً غير سياسى ، وكان يتتجنب السياسة ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار ، فإن صحت هذه الدعوى المعنوية الثقافية كانت أقوى العوامل في النهوض الحقيقى بشعب الجزائر « وهذا الشيخ الذى يشير إليه « بيرك » هو العلامة « عبد الحميد بن باديس » .

وبعد : فا زال الله العزىza مقاوماً عمليات التغريب في داخل الوطن العربي وخارجـه ،  
وستظل حـيـه لـن تـمـوت حـتـى تـتـحـقـق نـبـوـة جـوـل فيـرـن وـكـان جـوـل فيـرـن قد كـتـبـ فيـ إـحـدـى  
قصصـه أـن سـيـاحـاً ذـهـبـوا فـي أـجـوـافـ الـأـرـضـ تـحـتـ قـصـرـ الـبـعـرـ الـعـمـيـقـ ، وـاـخـتـرـقـوا طـبـقـاتـ  
الـتـرـىـ الـأـرـضـيـةـ حـتـى وـصـلـوا إـلـى وـسـطـهـ ، وـلـا أـرـادـوا الرـجـوعـ إـلـى وـطـنـهـ فـكـرـوا فـيـ تـرـكـ أـثـرـ  
يـحـفـظـ ذـكـرـهـ وـيـدـلـ عـلـيـهـ إـذـا وـصـلـ عـلـمـاءـ الـأـجـيـالـ الـمـسـتـقـبـلـةـ إـلـى مـكـانـهـ ، فـانـفـقـوا فـيـهـ يـنـهـمـ  
أـن يـنـقـشـوا عـلـى الصـخـورـ أـسـمـائـهـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـلـا سـتـلـ جـوـل فيـرـن عنـ سـرـ اـخـتـيـارـهـ  
الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ فـقـالـ : إـنـهـ لـغـةـ الـمـسـتـقـبـلـ وـلـا شـكـ فـيـ أـنـ غـيـرـهـ يـعـوـتـ وـتـبـقـ هـيـ حـيـةـ ..

## الأدب

يمثل « الأدب » عصارة التعبير عن النفس الإنسانية العربية في اتصالها بالكون والحياة ، ومن هنا كان له طابعه « الذاتي » الذي يختلف فيه أدب كل أمة عن الأخرى باختلاف الثقافات والمفاهيم والبيئات والمشاعر ، ثم هو من ناحية أخرى له طابعه « الإنساني » حيث يصدر عن النفس الإنسانية التي تتشابه في مقوماتها وتكوينها وتأثرها بالكون والحياة .

والأدب العربي على هذا المفهوم تعبير عن النفس الإنسانية العربية التي عاشت في هذه المنطقة من العالم « العربي الإسلامي » والتي كوتها الثقافة والنقد العربيين الإسلاميين \* ومن هنا كان أدبها منذ قبل الإسلام يحمل طابعاً متميزاً ، وقد وُجِّهَت ملامح هذه الصورة بعد الإسلام وتمقت واتسعت آفاقها في ظل مفاهيم النقد العربي الإسلامي الذي كان عصارة الفكر الإنساني متمثلاً في ثقافات الرومان والهنود والفرس واليونان مرتبطاً بأساس الفكر العربي الإسلامي النابع من الكتب السماوية والأديان النزلة والتي تبلورت في القرآن والإسلام وحملت طابع التوحيد ، وبناء شخصية الإنسان على قاعدة الامتزاج بين المقل والقلب والروح والعلم والدين والدنيا .

ومن هنا كان للأدب العربي طابعه الواضح الذي اختلف اختلافاً أساسياً عن الأدب اليوناني ، ثم عن الأدب الغربي فيما بعد ، ولقد شهد الباحثون للأدب العربي ومن غير أهله بأصالته وقدرته على تصوير النفس الإنسانية العربية على نحو رفيع ، وأنه رسم صورة واقحة عميقة لشأن الإنسان العربي في حروبه ومعاركه وكرمه وأريحيته وفي شجاعته ومواجهته للأحداث .

ومن هنا عرفت أصالة هذا الأدب في أداء رسالته حتى واجهته أزمة الفكر العربي

الإسلامي التي صرّ بها في فترة الضعف والاضطراب ( ولا سيما في فترة القرون الأربع الأخيرة ( ١٥١٧ - ١٩١٧ ) غير أن الفكر العربي الإسلامي قد استيقظ قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تعمقت يقظته حتى أوقت على مظاهر الحياة والحركة بدعوة جمال الدين الأفغاني إلى تحرير الأسلوب وهجر « السجع » والتقليد والزخرف بعد منتصف القرن السابع عشر .

ولم يبلّث الأدب العربي أن اتصل بالأدب الغربي اتصالاً مضطرباً ، لم يقم على أساس الامتصاص أو الاقتباس ، وإنما قام على أساس التزو ، فإن حركة الترجمة والنقل التي بدأها رفاعة الطهطاوى في أوائل القرن التاسع عشر والتي حققت تماّج باهرة في خلال ثلاثة عقود حيث استطاعت أن تترجم وتنقل وتسكل أكثر من ألف مجلد من مختلف الفنون والعلوم والأداب لم تبلّث أن تحولت تحولاً خطيراً مضطرباً حينما استطاعت حركة التغريب في أواخر عصر إسماعيل إلى أن تندف بطاقة من كتاب الشام الذين هاجروا إلى مصر والذين كانوا يعروفون اللغة الفرنسية إلى تعميم الاتصال الفكري بين الأدب الغربي والأدب العربي حين نقلت هذه الطبيقة أكثر من عشرة آلاف قصة دائرة و Mage و قدرة من الأدب الفرنسي إلى الأدب العربي ، وبذلك استطاع التغريب أن يهز قوام الأدب العربي ومقوماته ومفاهيمه على نحو خطير . فقد كانت القصة الغربية المكتشوفة هي أبرز هذه الألوان التي ترجمت ، وكانت تنشر في مختلف الصحف والمجلات ، وكانت تطبع في كتب وتوزع بقروش قليلة . ومن هنا أمكن أن تصل إلى مختلف الطبقات وأن تؤثر أثراً لا حد لها في :

١ — الأدب العربي ، فقد أضافت صوراً باللغة الإنثارة للجنس والمرأة وال العلاقات بين المرأة والرجل على نحو لم يكن طبيعياً أو موجوداً في البيئة العربية ، فضلاً عن تعارضه مع أسلوب الأدب العربي في مواجهة علاقات الحب والمعاطفة وروابط المرأة والرجل . حيث تبدو داعماً في صميم الأدب العربي العبارة الغفوة والإشارة الرمزية والغزل النق والنسامي بالمعاطفة داعماً إلى خلق الفارس بالإضافة إلى طبيعة التضاحية والوفاء والإعان بالالقاء بين الرجل والمرأة في حدود الأنظمة والشرايع .

وقد أدخلت هذه القصص على الأدب العربي صوراً غريبة عليه وعلى النفس الإنسانية العربية أساساً، فإن معظم القضايا والمشاكل التي تعرضاً هذه القصص لم تكن موجودة في بيئتنا وإذا وجدت فإن حلولها في هذه القصص لا تنبع من مفاهيمنا وقيمنا في حلول المشاكل والقضايا في ضوء الفكر العربي الإسلامي.

٢ — اللغة العربية: واجهت أزمة خطيرة. حيث كانت هذه القصص تترجم بأسلوب عامي « وعلى نحو يزدرى بالفصحي » ويستعمل كلام وأساليب وتعابير غاية في الضعف مما أزيل اللغة العربية عن بلاغتها وأسلوبها السهل الممتع.

٣ — كان لهذه القصص أثراً سلبياً بعيداً المدى في التربية والأخلاق والفنانين والقيم، فقد اهتزت هذه جميعها تحت تأثير الكشف عن الجوانب الضمرة على نحو صريح « مع العربية »، مما لم يكن متفقاً مع القيم العربية. ومن هنا بدأ التزيلة والفالحة والجريمة والآلام أموراً مقبولة لا غرابة فيها، مباحة وإبست منوعة أو محظورة أو معدودة في موضع الخطأ أو الحرام.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بدأت تدخل الأدب العربي فلسفات المذاهب الأدبية الغربية ونظرياته المشتقة من مفاهيمه وقيمه، هذه الفلسفات التي تجعل من الكشف عن جوانب الجنس في الأدب الغربي أصولاً معترف بها تدرس في الكليات والجامعات، لا على أنها نظريات ولكن على أنها أساساً أصولية وقواعد أساسية للأدب.

ونحن نعرف أن الأدب الغربي قد قام أساساً معتمدأً على الأدب اليوناني وفي ظل مفاهيمه وأساطيره ونظرياته التي تؤمن بعبادة الجسد، وتحض على إطلاق الغواز، ولا تجعل للروابط بين المرأة والرجل حدوداً، فالحب هو تلك الانطلاقات المتصلة بالغريرة والشهوة والتي تصل في حرية إلى أبعد غاياتها وفق فكر إغريقي له مقوماته في تعدد الآلهة.

\* \* \*

وعلى هذه الأسس قام الأدب الغربي التي أخذت من الأدب اليوناني أساسه ودعائمه، وكان بطبيعته مثلاً للنفس الإنسانية الغربية في موقفها من الكون والحياة، وهو موقف يقوم على أساس الصراع بينها وبين الطبيعة، وفق نظرة مادية لا تعرف بوجود الله.

وترى أن الإرادة الفردية الأخلاصية هي التي تقرر القدر وأنها تتصحر في حرية مطلقة ، وهي تواجه مشكلة المجتمع العربي القائم على النظرة المادية الصرفة ، وعلى أجواء لها طابعها المختلف عن أجواء بلادنا وطبيعتها وطقوسها ، حيث تبدو هناك صوره العواصف والبرد والجبال والأمطار والثلوج ، وحيث ترى هناك العلاقات بين المرأة والرجل لها طابعها المتحرر المكشوف الناطلق القائم على الوثنية وحرية العلاقة الجنسية ، وحيث المجتمع يكشف عن صورة الحرمان والشقاء النفسي والفاقد والتخلع إلى الذات وفي عشرات من هذه القصص : البوسات لم يجده والنور والفالام لتواستوى وتايس لا تأول فرانس ؟ لا ترى صورة مجتمعنا ولا صورة النفس العربية ولا مفاهيمها ، وكلها تصف أعراض الألم والجوع وقسوة النفس الأوروبية والصور المفزعة والآلام البشعة والاضطرابات العقلية والتجهل على نحو لا يعرفه مجتمعنا . وحيث تبدو مشكلات القصص العربي وعدها مختلفة تماماً مع مشكلاتنا .

وليس في مجتمعنا - وبالتالي ليس في أدبنا - صورة تأسيس مثلاً في التجارب بالفرائز في ظل الرهبانية وتجسيد الوثنية والأبيقرورية والإدارية ، وليس لدينا مثل هذه الحيرة . وليس في مفاهيمنا مثل قول المؤلف « للجسدأن يستسلم للشهوات ثم تبقى النفس ظاهرة ». .

فالشك والغم وانكشاف الغريرة ، وتحريث الشهوات على هذا النحو لا يمثل مجتمعنا ولا يمثل النفس العربية . ومن هنا يبدو مدى الآخر الذي كان لحركة التغريب في تعرية هذه الشحنة الضخمة من القصص العربي فوق أديم الأدب العربي .

وقد كان هذا الآخر بعيد المدى في تدمير القيم العربية الإسلامية وتطهير الأدب العربي للغزو الفكري العربي . وقد وصف الدكتور حسين المراوى أهداف القصة الفريرية في مجال الترجمة إلى الآب العربي فقال : أنها تمثل انتهاك الحرمات ووصف المخازى وتنقل المادة على انقضاض الأخلاق . فهي في أساسها تهدف إلى تسلية الجماهير فضلاً عن ازدراء روابط الزواج والأسرة .

وقال المازنی أن القصص التي ترجمها الدكتور طه حسين كان همه فيها مدح الخيانة

والاعتراض بالخلونة وتصوير الخلاعة والجحون في صورة جذابة ، ويجمع الباحثون إلى أن تأثر الأدب العربي بالأدب الغربي ثم على هذا التأثر الذى فرض عليه في مجال الترجمة للقصة ، ثم في مجال تعرية هذه القصة وتحصيرها برفم أسماء الأشخاص والأماكن الغربية وإحلال أسماء أشخاص وأماكن عربية بدلاً منها مع الاحتفاظ بجوهر القصة .

كما كان ذاً تأثير نفسى بعيد المدى في تعريف مفاهيم التغريب إذ كون تياراً جديداً خطيراً الأثر في مجال التربية والأخلاق والتكون النفسي والاجتماعي ، وكان لاختلاط قيم الغرب ومفاهيمه الوثنية والمادية وصوره وأهواه النابعة من بيته وأهواه مع المفاهيم العربية في محاولة ضخمة لتدمير المقومات الأساسية لlama العربية .

ومن هنا بز في الأدب العربي طابع جديد بعيد عن أصله صورة النفس الإنسانية العربية .

— ٢ —

وكان من أخطر النظريات التي فرضت على « الأدب العربي » نظرية « لا أخلاقية الأدب » حيث أخذ الغربيون نظرية أرسقو في الأدب القديم من فصل بين الأدب والأخلاق حين قال إن جمال الأدب لا صلة له بالأخلاق ، وأنه معنى ممزوج لا شأن له بأية قيمة خارجية . وأنه لا دخل للمبادئ في الأدب ، وقد أعاد الأدب الغربي على اعتناق هذا المذهب الأساسي المادى الدوراني الذى أقام عليه إيمانه في الفكر والمجتمع والنفس والتربيـة . وإن هذه العلوم كلها كانت تهدف إلى « تربية » الإنسان وتصويره بصورة الدوافع الغرائزية والتخلص الكامل من كل ما يقال عن الأخلاق أو الدين أو القيم .

وقد حمل لواء هذه الدعوة أصحاب المذهب الطبيعي الذى يزعمه أميل زولا<sup>(١)</sup>

(١) محمد مندور — مذاهب الأدب .

والذى يؤمن بأن السيطر على البشر هو حقائق حياتهمعضوية كالفرائز وحاجات البدن المختلفة . أما الروح فظاهرة ثانوية لسلطان لها على البشر . ومن هنا فهم بدون تصرفات الإنسان إلى عمل الفرائز الفامضة . ويحصل هذا المذهب بظهور نظرية فرويد المتصلة بالفرائز وحيوانية الإنسان ، وقال أصحاب هذا المذهب أن من حق الأديب أن يصف كل ما يقع للإنسان دون أى اعتبار لقيم الأخلاق ومصلحة المجتمع ويرسم إميل زولا في قصته ( جرميال ) أقسى صورة للفرائز الحيوانية .

وقد سيطرت هذه النزعة على الأدب العربي تحت ضمط حلات التغريب وفرضها بعض «قادة الفكر» على دراسات الأدب ، وتكون جيل كامل من الأدباء يجري في مجرى التقليد والتقيد بنظريات الأدب الغربي في دراسات الأدب العربي ويفرضها فرضاً عليه .

ومن هنا تعمق هذا الاتجاه في الأدب العربي في ظل مفاهيم كأنها مشروعة « وظهرت القصة العربية خاضعة لشاعرين أساسين :

١ - النظرية الطبيعية في أدب .

٢ - نظرية فرويد في اعتبار الفرائز هي الدوافع الأساسية لتصرفات الإنسان في مجال الحب والحياة والعمل .

٣ - مذهب الفن الفن .

وقد استهدفت دعوة التغريب من ذلك تحويل الأدب العربي عن أضخم مجال من مجالاته وهو مجال المقاومة والحرية والوطنية إلى مجال « الذاتية » المتصلة بالفرائزة « المتحررة من قيود الأخلاق » .

ويقول محمد مندور في هذا : أن الوصف في الشعر لا يخضع لمعايير الأخلاق فلا يوصف بأنه أخلاقي أو لا أخلاقي « وعندئو أو مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق لأنه يسعى إلى خلق الجمال في ذاته وتحريز الفنون » وأن المذهب الواقعى لا ينماهض الأخلاق لأنه وإن كان يحرض على تصوير الجانب الظلم السف من طبائع البشر إلا أنه لا يخلو من حنون على

هذا الجانب ، وقال: أن هدف الأدب هو فهم النفس البشرية وتحليلها ، وأن الأدب الحديث أدب تحليل لا أدب توجيه ، ومن هنا لا عبرة بارتباطه بالأخلاق . وأن الفن غاية في ذاته ولا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً؛ ولا شك أن هذه المفاهيم غريبة خالصة ولا تتصل بفكرةنا العربي الإسلامية أدنى اتصال ، وإذا كانت تعنى في هذه المرحلة من حياتنا وينادى بها مندor وغيره من الكتاب دعوة التغريب فإنما تهدف إلى صرف الأدب العربي عن مفاهيمه الأساسية وأهدافه الأصلية وعن مواجهة «عراكته مع الفرزدق في مختلف صوره ومظاهره . ولقد كان الأدب العربي داعماً هادفاً وواقفياً ولكنـه كان أخلاـقاً فيـنـظـرة ، وليـسـهـنـاكـ تـعـارـضـ بـيـنـ الـكـشـفـ عـنـ النـفـسـ الإـنـسـانـيـ وـتـصـوـرـهـ فـنـيـاـ مـعـ بـقـاءـ خـطـ النـظـرةـ الـأـخـلـاقـيـةـ . ولكنـهـ لـاـ يـصـدـقـ إـلـاـ إـذـاـ تـحـرـرـتـ النـظـرةـ مـنـ دـوـاعـ التـغـرـيبـ وـالـشـعـوـيـةـ .

أما الإلحاد على النظرة الجنسية وإبرازها وتعزيزها على النحو الذي زاه في الأدب العربي المعاصر فإنه ليس أمراً طبيعياً في ذاته وليس مملاً للنفس العربية بمقوماتها ومقاهيمها . فالصورة التي يرسمها الأدب الجنسي اليوم في ظل مفاهيمه الواقعية والطبيعية هو في الواقع بعيد عن الواقع ، إذ يبدو مفرقاً في الرذيلة وتدمير القيم . فالصورة التي يحملها هي صورة إنسان حيواني الطبع ، تسلط عليه الفرزدق ، وتدفعه في عنف عاصف . وجحود وإسفاف .

ولا شك أن تعميق هذا التيار على هذا النحو إنما هو عمل تغريبي موجه ، يهدف إلى تدمير القيم الأساسية للنفس الإنسانية العربية فضلاً عن تعارضه مع دعوى التحرر والوحدة والإيجابية والتقدمية وهي عناصر بناء الحضارة العربية الجديدة .

وليس صحيحاً أن المجتمع العربي قد بلغ هذه الدرجة من الإباحة والكشف كاتصورة هذه الآثار النسوية إلى الأدب العربي ، فما تزال قيم الشرف والكرامة والأريحية والعنفة من أبرز مقومات حياته وفكره ، فضلاً عن أن أساس البناء في الفكر العربي الحديث مختلف تمام الاختلاف عن أساسه في الفكر الفرزدقى الذي يحمل المادة والفرزدق أساسه ، ذلك أن فكرنا يجعل من عناصر العقل والروح والمالحة والفرزدق والدين والمادة مترجة أساساً له ، فضلاً عما عرف عنه من طبيعة «السوية» والاعتدال ، والوسط بين الانحراف «المجود وموازاة الروح والحس .

## القومية

( المروية والإسلام )

أخطر قضية تواجه فكرنا العربي الإسلامي المعاصر هي قضية « تجزئة الفاهيم » ذلك أن فكرنا يؤمن بترابط عناصر الدين واللغة والتاريخ والتراث والثقافة وأمتزاجها في بوتقة واحدة . وأية ذلك أنك لا تستطيع أن تتحدث عن اللغة العربية منفصلة عن الدين والتاريخ والتراث . وحيث لا يمكن فصل الدين عن التاريخ أو اللغة أو التراث . أو فصل التاريخ عن الدين وهكذا . ومن هنا تبدو « وحدة الفكر » لا وحدة الجنس .

وفكرنا العربي المعاصر إسلامي بطبيعته ، من حيث أن الإسلام ليس دنياً فحسب ، ولكنه دين وزيادة . ومن هنا يبدو خطأً كل الذين حاولوا أن يطبقوا رأى الفكر الغربي في « الدين » على الإسلام .

ذلك أن نظرية « الدين » التي كونها الفكر الغربي ، وتقللها دعاء التغريب والشعوبيون إلى فكرنا العربي حماويلن فرضها على الإسلام ، هذه النظرية زائفة « لأنها لا تتحدد تجربتنا ولا حياتنا أساساً لها . وهي بعد منسوجة على مقاس « دين » معين ، دين كريم نبع في الشرق » وزحف على الغرب ، فأعتبره الفكر الغربي دخيلاً ، وحين قبله لم يسلم به كاملاً ولم يأخذ به وحده ، ولكنه أضاف ما قبل منه إلى وبنية الاغريقية ، ومن هنا نشأت المسيحية الغربية التي عاد الغرب فأنساقها في ظل حركة الاحياء والنهضة وفي ظل غالبة مفهوم المادية الدارونية وسيطرتها على جميع مفاهيم الفكر الغربي التي تقوم اليوم أساساً على المفهوم المادي سواء في الفلسفة أو التربية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس .

ومن هنا كان الغرب منسجماً مع فكره ، حين أخذ المادية الدارونية قاعدة له وأقام عليها كل فكره . هنا بدت وحدة الفكر عنده واحدة . ومن هنا كانت نظرة الغرب

إلى « الدين » مستمدّة من تجربته من المسيحية الغريبة التي ابتدعها والتي وقفت أمام تهضيته وقاومت حربته في التماور المقلّى والعلّى .

ومن هنا يبدو الخطأ الواضح والخلط المبين في الحديث عن « الدين » مستمدّا من نظرية الغرب « فليس الإسلام أساساً ديناً خالب ، وليس هو دين الروحانية التي يمكن أن تؤخذ . كذاك مماثل للحادية الغربية كما يحاول التزوير أن يصوّره . وإنما كان الإسلام دين وفلسفة وحضارة ومجتمع . ومن هنا تظهر روحه وأخلاقه متصلة في مختلف مقومات الفكر العربي » . فن قال أن الإسلام دين خالب فقد قصد حانياً واحداً ، ووقف عند « جزئية » من جزئيات الإسلام .

والغربيون وابنائهم من دعاة التزوير والشمعوية على أن الإسلام « دين » يتمثل فيه الحانب الروحي وحده وهم بذلك يقعون في خطأ لا حد له ، حين يتعرضون لمديد من قضيّاً في الفكر والقومية والتربيّة والأدب .

والحق الذي يجب أن يكون معروفاً في هذا المجال : أن الدين جزء من الإسلام ، ولذلك يجب أن يصرّف النظر سهّاً عن هذه النظرية المفلوطة والمفهوم الخاطئ « وهو أن كلّة الإسلام تعني الدين كما تعني المسيحية أو اليهودية أو غيرها .

وتفصيل ذلك أن الإسلام إلى جانب أنه دين للمسلم فهو فكر وثقافة وحضارة شارك فيها العالم الإسلامي كله ب مختلف أجناسه وأديانه وعقائده ، فقد انصب كل هذه الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والأغريقية في بوتقة الفكر الواحد الذي صاغ منها هذه المفاهيم . والسيحيون في العالم العربي مشاركون في هذا الفكر واللغة والتراث ولذلك فكل مسيحي تكون ثقافته من تعاليم دينه المسيحى وثقافة الإسلام « هذه التيم الفكريّة التي هي قيم كل مسلم ومسيحي ويهودي » ، فضلاً عن تشابه القيم الروحية بين الإسلام والمسيحية في أن كلاهما رسالة السماء وهدفها الحق والخير والعدل والحرمة .

ومن هذه القيم والمعانى التي تبلورت في يوبيقة الفكر العربي الإسلامي تبدو وحدة الفكر مقدمة على وحدة الجنس وهي التي تصوّغ « روح الأمة » ولقد افصح الكثيرون من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى . ومن هنا يبدو الخطأ البالغ الذي نواجهه في « جزئية المفاهيم » ، فإن وحدة فكرنا هنا تمثل في امتراج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة

والعقل والقلب والدين والدنيا ، وليس فكرنا العربي الإسلامي روحيا خالصا ، وليس ماديا خالصا ، ومن هنا تبدو خطورة الفصل بين القيم أو تجزئة المفاهيم ، فلقد كانت نظرتنا إنسانية شاملة . تخرج فيها العروبة والإسلام ولا ينفصلان .

ولم تكن نظرية الفصل بينهما إلا من مؤامرات التغريب والشعوبية التي تستهدف دأعاً تجزئة المفاهيم والفصل بين القيم . ولقد كان علينا أن نواجه دأعاً المفهوم الترقي لـ كل قضية من قضياتنا ، وأن يفرض علينا هذا المفهوم على أنه المفهوم الصحيح ، لقد من العالم العربي براحت متعددة في العمل من أجل تحرير نفسه وبلاده وفكره من التفود الغربي ، من مرحلة الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والوحدة العربية . ومهما يكن من أهداف ودوافع وراء إثارة عشرات الدعوات والقضايا في أفق العالم العربي والإسلامي ، فإن الفكر العربي الإسلامي كان دأعاً قادرًا على هضم هذه الدعوات وتقبيلاً دون أن يدعها تزفه أو تتحقق هدفها التغريبي في القضاء عليه .

ولقد اصطدمت دعوات الفرعونية والبيزنطية والبابلية والاشورية والبربرية وأعواماً طوبية ثم اكتشف الفكر العربي الإسلامي أنها جميعاً جذوراً عربية فقد كانت كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية وابتلت في الأفاق .

وربما كانت دعوة التغريب بخططاتها الداعية إلى القضاء على وحدة العالم العربي الإسلامي قد قفت بالتفرقة بين العرب والترك وإثارة دعوات مسمومة في كل الجانين مما استهدف تدمير هذا البناء الشامخ الذي كان يتمثل في الدولة العثمانية التي كانت تمثل وحدة العالم الإسلامي .

وإذا كانت الأمة العربية قد وجدت في دعوة القومية التي تأثرها العالم إذ ذاك وسيلة للترابط بين أجزاء الأمة العربية في مواجهة التفود الأجنبي وأخذاً « عدة مقاومة » لـ لـ مـواـمـلـ التـزـيقـ وـ التـجزـةـ ، فإنـهاـ بـذـلـكـ قدـ فـوـتـ هـدـفـ التـفـودـ الأـجـنـبـيـ منـ آخـذـهـ هذهـ الدـعـوـةـ وـسـيـلـةـ لـلـصـرـاعـ بـيـنـ الـعـالـمـيـنـ الـعـرـبـيـ وـالـإـسـلـمـيـ .ـ غـيـرـ أـنـ التـفـودـ الأـجـنـبـيـ فـيـ مـجـالـ الـفـكـرـ أـرـادـ أـنـ يـفـرـضـ عـلـيـ «ـ الـقـوـمـيـةـ »ـ مـفـهـومـهـ التـرـقـيـ لـهـ حـتـىـ يـشـيرـ مـنـ جـدـيدـ خـلـافـاتـ جـذـرـيـةـ بـيـنـ الـعـرـوـبـةـ وـالـإـسـلـامـ ،ـ عـاـوـلـاـ أـنـ يـجـعـلـ مـنـهـمـ قـضـيـتـيـنـ مـنـفـصـلـتـيـنـ .ـ وـمـنـ هـنـاـ كـانـ

الدعوة الضاغطة الرائدة ذات المأثير والأقلام الشبوهة ، وهي التفسير الغربي لقومية والذى يقول « قومية من غير دين » أو أن الدين ليس مقوما من مقومات القومية ، والدين هنا هو « الإسلام » .

وإذا كان من حقنا أن نجري مع الفكر الغربي في حلبة الفكر الإنساني فإن من حقنا أن يكون للقيم مفهومها المستمد من فكرنا وتاريخنا وخبرتنا . وأن لا يفرض علينا مفهوم الغرب لها . ومن هنا بدأت مراجعة النظرية التي تقول بأن اللغة والتاريخ مقومات القومية ، وأن الدين ليس مقوما .

ونحن نعرف لماذا جحد الغرب دينه وأبده عن مقومات القومية ، ولذلك فإن رأى الغرب في دينه أساساً لا ينطبق علينا ، والإسلام الذي يراد أن تطبق عليه النظرية ليس ديناً فحسب ، وإنما هو فكر وثقافة ، وأنه لا سبيل إلى الفصل بينه وبين اللغة والتاريخ . بل إن هذه اللغة تكاد تكون مرتبطة به ارتباطاً جذرياً وكذلك التاريخ فإنه من المسير جداً أن يفصل عن اللغة العربية كلام لا يمكن أن ينفصل التاريخ واللغة عن الإسلام الذي يكاد يكون مادة هذا التاريخ ، وروح هذه اللغة ، كما يكاد يكون كتابه « القرآن » ! أكبر مصادر اللغة في منطوقها وعلومها .

ومن هنا تبدو حقيقة ما ذهبتنا إليه من أن القومية العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر لا وحدة الجنس . ومن هنا يستقطع الرأى القائل بأن الدين ليس مقوما من مقومات القومية ، بالنسبة للإسلام لأن الإسلام ليس ديناً ولأن الفكر العربي الإسلامي متراصط في مفاهيمه إلى الحد الذي لا يمكن الفصل فيها بين اللغة والدين والتاريخ والتراث . والفكر العربي الإسلامي هو الذي أعطى الأمة العربية قوتها ، وهو الذي دفعها إلى الأفق وحقق لها بناء هذه الحضارة العظيمة وقيام الدولة الضخمة في أقل من قرن من الزمان .

ومن هنا تبدوعروبة والإسلام كشرين لحقيقة واحدة ، وأن التنris في دعوه إلى تجزئه المفاهيم يحاول أن يقيم الشبهات والشكوك ، ولقد كانتعروبة والإسلام متفقان منذ قرون على مفهوم واضح عميق مستمد من مقومات الفكر العربي الإسلامي ، ولقد كانت روح الإسلام في تاريخ العرب قوة دافعة في التضال ومقوم أساسى لبناء المجتمع : عقيدة جهاد

نحوه عمل ، وحركة دائمة متطورة لا تحمد ولا تتوهق ولا تنتهي على نفسها » وقد كان الإسلام قابلاً للتطور لا يقف في وجه الحضارات والنهضات بل يواجهها بأفق مفتوحة يأخذ وتعطى ، ولم يعرف الإسلام بغض العناصر الأخرى وقد اتسمت أفق عالمه لن لا يؤمنون به خلوا في ساحة غير مكرهين على رأى أو عقيدة » وليس دليلاً على هذه المباحثة من وجود أقلية عربية غير مسلمة لا تحس بالضيق ولا الانطواء ، لأنها مشاركة أساساً مشاركة فعلية في مقومات الفكر العربي الإسلامي تتنفسه فكراً لها وراءه بعد الدين عقيدة فكر وأيدلوجية حياة . ومن هنا يبدو ذلك التمايل الفكري والوحدة الثقافية إزاء كل مواقف التاريخ وأحداثه . فالعروبة والإسلام متزجان من تبستان كوجهي عملة واحدة وإذا كانت العروبة جسماً فإن روحه الإسلام بهذا المفهوم :

ويصور هذا المعنى كاتب مسيحي معروف فيرى أن الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقدر انتقال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من المقادير الأخروية والأخلاق لم يتزل بلغاتهم القومية ولا أ瘋ح عن حاجات يشهدهم ولا امتنزج بتأريخهم . في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخرىية فحسب ، ولا هو أخلاق مجرد بل هو أجيال مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تبير عن وجوه شخصياتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر وهو فوق ذلك كله أروع صورة لذاتهم وأدبهم وأضخم قطعة من تأريخهم القومي ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذا كملة أى دين بأية قومية » وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقطنها التامة ويسترجعون ضيّعهم الأصيل ، إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشاربوها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبهم<sup>(١)</sup> » ومن هذا النص ومثله كثير يتأكّد به المفهوم القائل بأن وحدة الفكر العربي الإسلامي هي التي ربطت العربي غير المسلم بالسلم العربي في قيم أساسية ومقومات أصيلة وأن حماولة فرض المضمون « العربي أو المفهوم العربي للقومية هو إحدى محاولات التأسيب والشرعية .

(١) ذكرى الرسول العربي : ميشيل عفانق .

فالنّسخة العربيّة الإسلاميّة يشمل المروبة والإسلام والمسيحية جيّماً ، وأنّ نصرانّية الدين لا تخلو دون إسلاميّة النّسخة ، وأنّ المروبة لا تتصارع الإسلام ولا تقف في الوجه المصاد . وأنّ التجربة الفريّة للدين والقوميّة قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق ، فإنّ مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي تختلف في جذورها عن مفاهيم الفكر الغربي أساساً . والإسلام لا ينفصل عن اللغة والتاريخ والتراث في الفكر العربي الإسلامي ولا يمكن أن يكون هناك فكر عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تاريخ عربي منفصل عن الفكر العربي الإسلامي ولا تستطيع اللغة العربية أن تنفصل عنه أيضاً .

فلا تاريخ لamerب إلا التاريخ العربي الإسلامي والإسلام هو ميدان التاريخ العربي والإسلام هو ساتر المروبة ومقيم أسپها .

وآية وحدة الفكر العربي والإسلامي هو ذلك الانفعال الوجسدي الواحد أمام الأخطار والأحداث والتاريخ والغزو الصليبي والفكري؛ وقد أفصح حبيب كلالة عن وحدة الفكر بين الإسلام والمسيحية حين قال «كانت النصرانية والإسلام في طريق الدين» فقد التقى أيضاً في الأدب والشعر والعلوم والفنون ، وفي كل ما يدعم صرح الحضارة فقد تماون المسلمين والنصارى تماوناً وثيقاً في هذا المضمار .

وقد كان بين النصارى شعراء أذناظ وعلماء جهابذة كبار وأدباء وكتاب ساهموا كثيرة في رفع منارة الشعر العربي ، ونقل العلوم والفنون إلى العربية ، وكانت لهم مكانة رفيعة في قلوب الحلةاء . وفي كتاب طبقات الأباء لابن أبي أصيبيه الشيء الكثير عن هذه المحسن وذلك التاسك والتساكم فالأخطل وآل بختيشوع سلالة جورجيس ، وآل حنين سلامة حنين ابن إسحق ، ويوحنا بن مارسوبيه وابن البطريرق ويوحنا الدمشقي<sup>(١)</sup> .

## نظريّة الأجناس : السامية والأرية

من أفكار التغريب التي استأثرت بقدر كبير من التوجيه والاهتمام ، فكراة الأجناس «السامية والأرية» ، ومحاولة إعطاء الأجناس الأرية كل مزايا النبوغ والعبقرية وشجب هذه «الزلايا عن الأجناس السامية» ، وذلك في مجال الانتقاد من الأمة العربية وفكراها وثقافتها ، ومحاولة الفصل بين العرب والفرس والهنود الذين جمعتهم ثقافة واحدة ، باعتبار أن الفرس والهنود من الجنس الأرية » وأن العرب من الجنس السامي ، وإقامة الموجة على أساس أن «العبقرية والنبوغ تتبعان العرق والدم وهي دعوة عنصرية أساساً لم يثبت سلامتها علمياً ولا تاريخياً .

وقد حاول فريق من كتابينا الربط بين العبرية أو العظمة عند طائفة من الشعراء وبين الجنس ، ناسباً سر عظمتهم إلى أجاجناتهم الأرية . فإن الروى من أصل روى وبشار بن برد من أصل فارسي ، إذن فبعتبرية كل منهما يمكن أن تعزى إلى دمهمما الأرية ، وإن الروى قد تفرد بفنٍّ جديدٍ من فنون الوصف في شعره لم يسبقه إليه شاعر آخر إلاّ بآن يكون مصدر ذلك عقليته الأرية . هكذا قال سليمان البستاني في الإلإيادة وقال المقاد : أما بشار بن برد فقد جدد أساليب الشعر تجديداً لم يكن أساسه الخيال ، ويرجع ذلك في تقدير إسماعيل مظاير إلى عقلية آرية موروثة عن أب فارسي جعلته ينزع إلى الواقع المحسوس .

وقد جرى هذا القول في ظل تيار تقربيٍّ كان قد بلغ مداه في الثلاثينيات من هذا القرن حيث أثيرة هذه النظرية ووسع نطاقها من أجل اتهام العرب والمسلمين بالقصور عن عقلية الغرب » ووصفت المقلية السامية بالغبيات والإسراف في الخيال . وقد أسهدت هذه النظرية أساساً هدم كيان الشخصية العربية القائمة على أساس الفكر العربي الإسلامي . وقيمه وتراثه في ميادين اللغة والتاريخ والدين .

وقد حل لواء هذه الدعوة في أول الأمر كتابان غربيان هما جو بينو ورينان ، وتقوم

النظريّة على وجود فوارق طبيعية بين اللغات الساميّة والآريّة ، وقد أسرع النّفرُ الذّرّيِّيِّ والمحضُط الاستعماري يعمق هذه النّظريّة ويوسّع نطاقها ويبني عليها فكّرة اختلاف العقل والفسّر ويعزّز الرجل الأبيض الآري الذي حلّ لواء الحضارة ، وترى هذه النّظريّة أنّ هنالك اختلافات جوهرية : جسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والسّاميين بالذات.

وقد اتصَّلَ هذا بِمحاوَلةِ تفسيرِ التّارِيخِ تفسيراً يَقومُ عَلَى أَسَاسِ عَتُومٍ هُوَ انتِقاصُ كُلِّ سَائِي وَرَفْعُ كُلِّ مَا هُوَ آرِيٌّ ، وَاتَّصلَ هَذَا بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، فَجَرِيَ الْبَحْثُ عَنْ شَخْصِيَّاتٍ لِيُسْتَعْرِفَ عَرَبِيًّا أَسَاساً لِمَحاوَلةِ إِبْرَازِ النّظريّةِ مِنْ خَلْلِهَا .

وقد أشار الكونت دي جو بيتون الفرنسي عام ١٨٥٨ أنه ما دام هناك شعوب علياً وما دام قانون الطبيعة يعطي القابلة للأري المتفوق فإن من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبح بعضه على مقدرات العالم . وربّان أول من قرر بأن الجنس السامي أدنى من الجنس الآري ، ويقول ليون غوتينيه تلميذ رينان أن العقلية الساميّة وبالذات العقلية العربيّة هي عقلية مفرقة في مقابل العقلية الآريّة وهي عقالية مجتمعة أو موحدة ، وأن الفسّر الآري عقلاني في تفسيره وأن الفسّر السامي غبيٌّ معجزيٌّ .

\* \* \*

ولا نظير في تصوّر تطور هذه النّظريّة فليس هذا مكانتها ، وإنما نحن نعرض لها هنا فيما يتصل بالفسّر العربي الإسلامي ، ولقد أثبتت البحوث المنشورة أنّ هذه النّظريّة لم تكن في الواقع نظرية علمية وإنما كانت نظرية سياسية أريد بها تبييت قوائم الاستعمار عن طريق الفت في عضد الملونين في آسيا وأفريقيا ومحاولة تحطيم ممنوياتهم الفسّرية في مجال التّزوّد الثقافي والفكري الذي أطلق عليه « حركة التّغريب » .

ولقد عورضت هذه النّظريّة معارضـة علمـية من كثـيرـ من الـبـاحـثـينـ الغـربـيـينـ أـنـسـهـمـ ، وآخـرـ ما كـتـبـ فيـ هـذـاـ كـتـابـ : نـحنـ الـأـورـيـوـنـ ( we europeans ) الـذـيـ كـتـبـ جـوليـانـ هـكـسـلـيـ وـاـ .ـ هـادـوـنـ وـقـدـ اـسـتـعـرـضـ نـظـرـيـةـ الجـنـسـ وـالـسـلـالـةـ ،ـ وـعـارـضـهـاـ بـالـنـظـرـيـةـ الـمـدـيـثـةـ الـخـاصـةـ بـالـوـرـاثـةـ الـبـيـولـوـجـيـةـ وـظـرـوفـ تـطـبـيقـهاـ عـلـىـ إـلـيـانـ وـمـاـ يـكـنـىـ تـكـوـنـ الـأـمـ مـنـ الـعـوـاـمـ »ـ وـخـلـصـ إـلـىـ القـوـلـ بـأـنـ نـظـرـيـةـ الجـنـسـ وـالـسـلـالـةـ لـيـسـ سـوـىـ عـلـمـ مـزـعـومـ قـسـتـرـ .ـ

وراءه غاليات سياسية . وقد أشار كثير من العلماء إلى أن حضارة مصر وفيئيقية وبابل والصين هي من أعظم الحضارات التي شهدتها التاريخ، وعم ذلك فإن الأجناس الآرية لا علاقة لها بها . وشهد الكتاب بأن الحضارة التي أنشأها من يسمون بالشعوب السامية أعظم أثرا وأطول عمرا من الحضارة التي أنشأها ما يسمى بالأجناس الآرية ، وضرب التثل أيضاً بأن بلاد السويد والنرويج والتي يعدهما التثل الأعلى للجنس الآرية لم ينشئوا حضارة ما ، وأن الحضارة الحديثة قد قامت دعاعها في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشعوبها ليسو من الجنس الآرية بل إن بعض العلماء قد ذهب إلى أبيد من ذلك فقرر أن وجود جنس آرية بدانى موضع شك عدد كبير من العلماء ، وأن الأمر في هذه النظرية يرجع في الأغلب إلى ما وجد من مشابهات بين اللغات الهندية واللغات الأوروبية قبل نحو مائة وخمسين عاما . وقد أكد العلماء على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل ، وأن اللغات قد تنتقل من إمة إلى إمة دون أن تكون بينهما علاقٌ نسلية .

والرأي الآن أن «البيئة الحضارية» لا السلالة هي الأساس ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم لا تؤثر في الاستعداد العام أو الذكاء الفطري وأن العبرة بالبيئة ، فقد ثبت أن وحدة الموروثات في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة وبالتالي التي لها استعدادات عقلية واحدة ، لا تستلزم وحدة النتائج في اختبارات الذكاء ، في حين أن وحدة ظروف البيئة تتحقق ذلك . ومن هنا وجد أن كثيراً من عباقرة وملوك الإسلام قد انحدروا من أصول غير عربية . وأن الأمة التي دخلت في الإسلام لم تظل هي نفسها كما كانت من قبل ، فقد تحولت بفعل البيئة الجديدة والفكر الجديد إلى قوم جدد<sup>(١)</sup> .

ومن هنا كانت العبرة بالبيئة لا بالدم فإن من أقام في بيئه معينة وعاش حياة مجتمعها وتسلّم لنها وأحس إحساسها كان منها باللغة والمكان والإحساس وهي في مجموعة روابط أشد أصلة من روابط الدم ، وبذلك استحال أن تكون الأنساب اللغوية أنسابا للأمة التي تسلّم بها وأن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل أو النسل . وقد أسموها (جان فينيو)

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (مجلة العربي) تشرين الأول ١٩٦٠ .

خرافات ومزاعم باطلة وقال ( دينكير - Donicker ) في كتابه : « الأقوام والمرءوق » إنه لا يوجد جنس - أي عرق - آرى ، وأن كل ما هنالك عبارة عن فصيلة لغات آرية والرأى يجمع على أن عقلية الإنسان ونفسيته من محضات حياته الاجتماعية لامن موروثات دمه المادية وبالأسباب لابن الروى أو بشار ، فقد نشأ كلاماً منها في بيته عربية ، وابن الروى لم يكن يعرف اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وقد تكانت عبقريةهما من عوامل البيئة وعناصر الشخصية<sup>(١)</sup> .

وأن تاريخ آدات الأمم الأوروبية لا تخلو من ذكر أدباء وشعراء وعظام منحدرين من أنسال أجنبية عن الأمة التي نشأوا بها ومع ذلك لا يقدم مفكروها تلك الأمم على إرجاع مزاياهم إلى نوع الدم الذي يجري في عروقهم .

أما انتصاف المقلية الآرية بالبعد عن الخيال والتزوع إلى الواقع المحسوس « فقد كذبه ما عرف من شعراء الفرس من علو في الخيال ، وقد أورد ساطع الحصري ثوذاجاً لذلك في مدحهم للملك بأنهم يستطيعون اقتحام النجوم من السماء ليصلعوا بها سيفهم .

أما اتهام العقل السامي بالنيبيات ، فقد كذبه كل الأدلة ، وأن ما عرف عن ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن حيان وغيرهم من منهج على - بهر الفسكت الغربي حتى اليوم - يرد هذا القول ، وقد أدى أرنست رينان بشهادة منصفة في هذا المجال فقال : « أن للساميين عقلية عملية رياضية تبني الأساطير والنيبيات » .

\* \* \*

ويقول ساطع الحصري في دراسة له<sup>(٢)</sup> في هذا المجال : إن فكرة الجنس الآري تولدت من اكتساب بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الآرية في أوائل القرن الماضي فنقدارن ( شله جل - Cehlaogal ) عام ١٨٠٨ اللغة السانسكريتية باللغة الألمانية فوجد بعض المشابهات في أصولها فاستدل من هذه القرابة اللغوية على وجود قرابة نسلية

(١) الدكتور عمر فروخ - كـ / ابن الروى .

(٢) مجلة التربية والتعليم ( بغداد ) ١٩٤٨ م .

بين الأقوام الهندية والأقوام الجرمانية وأُوجَد بذلك فكرة العرق الهندو جرمانى . استدلوا على وجود قرابة نسلية ليس بين الأقوام الهندية وبين الأقوام الجرمانية غُصْب . بل بينها وبين سائر الأقوام الآرية تم اختاروا كلة (آريان) المذكورة في الكتاب المقدس القديعه وانتشرت النظريه بتأثير بعض العوامل السياسية التي وجدتها ملائمة لأهواءها من جهة أخرى .

لَكَنَ الفَسْكَرَةَ لَمْ تَأْيِدْ قَطْ بِالْتَّدْقِيَّاتِ الْعَلَمِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَإِنَّمَا بِرَهْنَتِ التَّدْقِيَّاتِ الْوَاقِعِيَّةِ عَلَى أَنَّ وَحْدَةَ الْلِّفَظِ لَا تَدْلِي عَلَى وَحْدَةِ الْأَصْلِ وَالنَّسْلِ . وَأَنَّ الْلِّفَاظَاتِ قَدْ تَنْتَقِلُ مِنْ أَمَّةٍ إِلَى أَمَّةٍ عَنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ بِهَا عَلَانِقٌ نَسْلِيَّةٌ . فَالْفَرْضُ الْفَائِلُ بِقَرَابَةِ تَلْكَ الْأَمَّمِ مِنْ حِيثِ النَّسْلِ وَالْدَّمِ إِنَّمَا هُوَ فَرْضٌ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَنْدُ عَلَى أَسْسٍ عَلَمِيَّةٍ . وَقَالَ (دَهْ نِيْكَرْ): فِي كِتَابِ الْأَقْوَامِ وَالْأَجْنَاسِ: أَنَّهُ لَا يَوْجِدُ جِنْسٍ - أَيْ عَرْقٍ - آرِيًّا وَأَنَّ كُلَّ مَا هُنَالِكُ إِنَّمَا هُوَ فَصِيلَةُ لِفَاظَاتِ آرِيَّةٍ وَرَبِّعًا حَضَارَةً آرِيَّةً .

وَقَالَ (مَهْ بِيَهْ) فِي كِتَابِ لِنَاتِ الْعَالَمِ: كَثِيرًا مَا تَسْكَلُمُ عَنْ أَقْوَامِ رُومَانِيَّةٍ وَجِنْسٍ سَلَافٍ وَنَفْوَذَجَ آرِيًّا، وَلَكِنَّ هَذِهِ التَّسْبِيرَاتِ عَارِيَّةٌ عَنْ مَعْنَى وَاحِدَةٍ صَحِيقَةٍ ، وَقَالَ (مَا كَسْ مُولَلَرْ): «إِنَّ الْعَالَمَ الْأَنْتَلُوْجِيَّ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ عَرْقٍ آرِيٍّ وَدَمْ آرِيٍّ وَعَيْنَ آرِيَّةٍ وَشَعْرٍ آرِيٍّ ، يَرْتَكِبُ هُرْطَفَةً لَا تَقْلِلُ سَخَاقَهُ عَنْ سَخَافَةِ الْعَالَمِ الْلَّفْوِيِّ الَّذِي يَجْرُؤُ عَلَى التَّسْكُلِمِ عَنْ قَامِوسِ مُسْتَطِيلِ الرَّأْيِ أَوْ نَحْوِ قَصِيرِ الرَّأْيِ .

وَقَالَ (مَارِ): إِنَّ الْجِبْسَ الْآرِيَّ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الْلَّغَوِيِّينَ .

وَجَلَّ الْقَوْلُ أَنَّ الْحَضَارَةَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي أَنْشَأَهَا الْمَقْلُ الْمَوْصُوفُ بِالسَّاعِي قَدْ امْتَدَتْ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْصِّينِ وَكَانَ لِهَا طَابِعَهَا الْمِيزِ فِي كُلِّ مَجَالَاتِ الْإِنْشَاءِ وَالْبَنَاءِ وَالْعِلُومِ ، وَقَدْ انْصَهَرَتْ فِيهَا خَلَاصَاتِ الْتَّقَافَاتِ وَعَصَارَاتِ الْحَضَارَاتِ الْهَنْدِيَّةِ وَالْمَسِيْحِيَّةِ وَالْيَهُونِيَّةِ وَالْرُّومَانِيَّةِ وَحَوْلَهَا إِلَى كِيَانِهَا وَصَهْرَهَا فِي بُوقْتَهَا ، وَأَنْشَأَتْ حَضَارَةً عَرَفَتْ بِالْإِيمَانِيَّةِ وَالْبَنَاءِ ، وَكَانَتْ آثارُهَا وَاحِدَةٌ فِي جَامِعَاتِ الْقَاهِرَةِ وَبَنِيَادِ وَقَرْطَبَةِ وَكَانَتْ هِيَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ النَّهْضَةُ فِي أُورَبَا .

× الفراعنة والفينيقيون روافد عربية .

وفي مجال « تزييف الحقائق » الذي رسمه الفزو الأجنبي للفكر العربي الإسلامي محاولة فرض نظرية « التأكيد على إقليمية الفكر » تحت اسم حضارات وثقافات قديمة ، مسيرة بربط بعض أجزاء الأمة بها كالفرعونية والفينيقية والبربرية ، وقد جرى في هذا التيار كثيرون غفلة منهم أو جهلا بالحقائق ، دون أن ينتبهوا إلى ما تهدف إليه هذه الدعوات . غير أن الحقائق لم تلبث أن انكشفت عن أن كل هذه التيارات ليست إلا روافد من سهر الأمة العربية الكبير .

١ - وفي أكثر من دراسة لباحثين في التاريخ والآثار تأيد الرأى القائل بأن الفراعنة عرب ، وأن كثيرا من علماء الألمان يشار لهم أحمد كمال (باشا) الآخرى المصرى الأول ، وأحمد زكي (باشا) الملقب بشيخ العرب . على أن المصريين جاءوا إما من بزنج السويس أو من جهة باب المدب ، وأن أهل مصر أصلًا من عرب الشimal (الحيجاز ونجد وبادية الشام) ويرى بروكش الألمان وايرى ولوث ولييلن النرويجي أن عرب الجنوب جاءوا عن طريق اليمن . ويزيد أحمد كمال باشا على ذلك بأن اللغات المصرية والإفريقية هي من أصل عربي ويقول « فاللغة المصرية ما هي إلا لغة قبائل الأغنان التي سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم ، هي أصل اللغة العربية بلا مراء » وقد أرجح كل كلاط اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية وأكده نظرية عجيء المصريين الأقباط من بلاد العرب من باب المدب فالجيشة فالسودان فصر . وقال في النهاية أن المتصرين المصري والعربي يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة .

وأشار جير ضومط في كتابه « فلسفة اللغة العربية » إلى رأى أحمد كمال باشا وقال أن الباحث العالم أظهر لنا حقيقة التمايز بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة وألف قاموساً كبيراً أورد فيه ألوقاً من السكريات المغير والغایقية المواتقة للغة العربية المصرية في الغالب ، إما موافقة تامة أو موافقة بضرر من التحرير أو القلب والإبدال المعمود مثله في المفتين ، وقال إن أحمد كمال يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالعلم المغير والغایقية « ومن لوازمه هذا أن أصحاب المدينة كانوا من العرب .

والمروف أن أحد كمال باشا وهو أول أثرى مصرى قد ألف قاموسا في ٢٢ مجلدا ضخماً  
قضى في تأليفه ربع قرن ، وما زال مخطوطا لدى نجله الدكتور محرم كمال عام الآثار الكبير ،  
وجلة قوله أن أغلب اللغة التي استعملها قدماء المصريين عربية الأصل لفظاً ومعنى ، فضلاً عن  
أنها شبيهة بالعربية التي نستعملها اليوم وأن لغة المصريين القدماء هي لغة جزيرة العرب  
لا تختلف إحداثاً عن الأخرى إلا بالإيمالات وبعض الترادفات فيما لم يجتاز في لغة واحدة .

وجملة القول في هذا أن المصريين جنساً من العرب ولنهم جزء من اللغة العربية .

٢ - أما « الفينيقية » فهي دعوى كالفرعونية تماماً ، استناداً الفزو الثقافي الغربي لغزير  
وحدة الفكر العربي الإسلامي ، وقد كشفت أبحاث التاريخ والآثار مما على أن الفينيقيين  
عرب ، وأن فينيقيا لفظ يومنا في معناه النخلة وضعه الأغاثة بعد أن زاروا هذه المنطقة  
الممتدة من أنطاكية شمالاً إلى غزة جنوباً ، فقد هتفوا عند ما شاهدوا « النخلة » :  
« فينيكيا » وتناول شعراً لهم وكتابهم هذا الاسم فتداووه ، وذكره هوميروس في شعره  
وهيرودت في كياباته وبطليموس الجغرافي الفلكي في أبحانه .

وجملة القول في هذا أن جماعة من عرب البحرين قحطانية الأصل هاجروا في الخليج  
الفارسي قبل المسيح بألف سنة ، فاقاموا قريباً من مدينة بابل - على رواية أحد ذي  
باشا - ثم ساحروا إلى الشمال إلى شاطئ بحر الشام فأسسوا طرابلس وبيروت وصور  
وصيداً وعكا وحينا . وقد وجد الباحثون فعلاً تشابهاً كاملاً بين حضارة البحرين وحضارة  
لبنان وفالساليون مما أكد أن الحضارتين مرتبطتين برباط وثيق .

وقد ذكر هيرودت « المؤرخ » صراحة وبصيغة التوكيد أن الفينيقيين جاءوا من  
الخليج الفارسي واستقروا في ساحل الشام ، وذكر استرابون « الأرثى » أن قبور  
البحرين مشابهة لأجداث الفينيقيين وبذلك تجمعت مراجعات على التاريخ والآثار على أن  
اللبنانيين قحطانيون عرباً من أهل الجزيرة العربية أصلاً .

٣ - وبالنسبة للبربر نرى أن أغلب المؤرخين على الرأى القائل بأن البربر في عمومهم أمة  
عئيبة عارية قحطانية نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والغرب والأندلس وجزائر

البحر المتوسط ، وأن هذه الأمة المغاربة القحطانية قامت بأول فتح عربي للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربي القبح في ديار المغارب وسجلت لأول مرة ونهائيا عقد ملكية المغرب للعروبة على حد تعبير (عَيْنُ الْكَمَاكِ) في كتابه البربر ، حيث يرى أن النساية للبربر (من ابن حزم إلى ابن خلدون) لا يحملون للبربر عرقا في غير حمير ، وأن البربر يكرهون جدا إلى اليوم أن يقال إنهم ببر ويسمون أنفسهم (أمازيغ) أي أشراف . وقد رد كثيرا من الباحثين العرب والاجانب المنصفين الرأي القائل بأن البربر من أصل لاتيني ، وقالوا إنه لم يتم عليه دليلا يؤبه له من العلم أو التاريخ .

ويقول المؤرخ « حسن الساعي » من كتاب المغرب « إن الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها ، بأنه لا مجال للشك في انتسابها إلى الأزوامة السامية التي لا تجتمع البربر والعرب جمعا لغويًا فقط ، بل تجتمع بينهما جنسيا وسلاطيا وأن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية وهي من اللغات السامية المبر عنها في تاريخ اللغات (Pratosemitique) وهي تتشابه مع العربية في كثير من الفردات وأصل الاشتتقاق وخارج الحروف ، وقد لقحت هذه اللغة مرة أخرى بالقحطانية بعد جلاء يهود خير عن ضواحي يرب ويفاقمهم بشمال أفريقيا ، كما لقحت قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون أي عام ٤٨٠ ق . م حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية إلى بلاد أفريقيا » .

ومن هنا تبدو هذه الدعوات الثلاث وقد انهارت أمام الحقائق التاريخية التي تؤكد وحدة الفكر العربي الإسلامي بوحدة هذه الروايد مع نهر الأمة العربية الكبير .

---

- الفراخنة عرب عرباء : أحد زكي باشا . ١٣ أكتوبر ١٩٢٩ القبط .
- الفينيقون ومقابرهم : المقطف مارس ١٩٨٨ .
- جبر ضومط : النار م ١٥ .
- (كتاب) البربر : عَيْنُ الْكَمَاكِ :

## م الموضوعات البحث

منحة

الكتاب الأول : الفكر العربي ( مقوماته ومعطياته )	١٧
معطيات الفكر	٢٥
الكتاب الثاني : الفكر الغربي ( مقوماته ومعطياته )	٢٣
الوثيقة الأغريقية	٣٧
الزعنة الرومانية	٣٩
المسيحية الغربية	٤٠
أساس الفكر الغربي	٤٩
المادية التاريخية	٥٠
نظريّة العدم ( الوجودية )	٥٤
مادية السلوك والتربية	٥٨
نظريّة الجنس	٦٠
مفاهيم الفكر الغربي	٦٣
اليهودية والفكر الإنساني	٧٢
الكتاب الثالث : التغريب والشموبية	٨١
(١) تغريب الشرق	٨٣
(٢) حركة التغريب	٨٩
(٣) الفكر العربي: محاولة تغريب مقوماته	٩٤
(٤) بين الثقافة والمرفة	٢٠٢
(٥) بين التسامح وانتمصب	١٠٧
(٦) محاولات التغريب	١١٢
(٧) الشموبية الفكرية الحديثة	١٢٣

صفحة

الكتاب الرابع : نحن والحضارة الغربية ..... ١٣١
الكتاب الخامس : (نحن والفكر الغربي) ..... ١٤٥
١٤٨ ..... ١ - الثقافة
١٥٥ ..... ٢ - الدين
١٧٤ ..... ٣ - التراث
١٨٧ ..... ٤ - التاريخ
٢٠٤ ..... ٥ - اللغة
٢١٨ ..... ٦ - الأدب
٢٢٤ ..... ٧ - (القومية) المروبة والإسلام
٢٢٩ ..... ٨ - نظرية الأجناس

## ث بت المراجع

موسوعة مقارنة الأديان ( ٤ مجلدات ) ..... الدكتور أجد شلبي

كتب غيرت العالم ..... كتب غيرت العالم

هؤلاء علموني ..... سلامه موسى

آراء فلسفية في أزمة العصر ..... الساسونية

الدكتور أجد ذكي أبو شادى ..... المادية الجدلية وفلسفة الماركسية

الإسلام والنصرانية ..... محمد عبده

الصهيونية والاسونية ..... الخطر اليهودي وبروتوكولات صهيون

محمد خليفة التونسي

آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ..... ساطع الحصري

اسرائيليات ( كتاب الملال ) ..... أحمد بهاء الدين

الفكر العربي ومكانه في التاريخ ..... ديلاس أوليري

في سبيل البعث ..... ميشيل عفلق

السيجية والقومية العربية ..... الأقليةمة : جذورها وبنورها

ساطع الحصري

إتجاه الموجات العربية في جزيرة العرب ..... عب الدين الخطيب

فلسفة القومية ..... أحد خاكي

أضواء على التاريخ الإسلامي ..... فتحى عثمان

فلسفة التاريخ ..... غوستاف لوبيون

أثر الشرق في الغرب ..... الدكتور فؤاد حسين على

المجتمع العربي في المصور الوسطى ..... ادوار وليم لين

الطاقة الإنسانية ..... أحمد حسين

فلسفة الحضارة ..... ألبرت اسفيتسر

نظارات في الثقافة ..... هارى شايررو

الإسلام اليوم وغدا ..... ( مجموعة من العلماء )

التربية والأخلاق ..... يعقوب فام  
آراء في التربية والتعليم ..... ساطع الحصري  
العلم والديموقراطية ..... همایون کیر  
المجتمع الإسلامي ..... الدكتور أحمد شلبي  
الاستعمار ..... الأمير مصطفى الشهابي  
الإسلام والقومية العربية (مجموعة أبحاث) ..... الدكتور أحمد الحوف  
ديموقراطية جديدة ..... أحمد جمال الدين  
الدين والميثاق ..... أحمد الشريachi  
مصير الأديان في النظام الشيعي ..... سامي عاشور  
بين الديانات والحضارات ..... طه الدور  
نشأة الدين ..... على سامي النشار  
من هنا نبدأ ..... خالد محمد خالد  
ابيولوجيه عربية جديدة ..... مصطفى السحرقى  
تقويم الفكر الدينى ..... محمود الشرقاوى  
تاريخ الإنسانية ..... أحمد حسين  
الصراع الفكري في البلاد المستمرة ..... مالك بن نبي  
الإسلام بين الانصاف والمحظوظ ..... محمد عبد الفى حسن  
الإسلام في التاريخ الحديث ..... ولنور كاتبول سميث  
ما هي القومية ..... ساطع الحصري  
دراسات إسلامية (مجموعة أبحاث) ..... باشراف نقولا زيادة  
هذا المصر المفجر ..... قسطنطين زريق  
الإسلام من خلال مبادئه ..... علال الفاسي  
الشرق الفنان ..... دكتور زكي نجيب محمود  
عبرية العرب في العلم والفلسفة ..... دكتور عمر فروخ

الدوريات : مجلة الهراء : عبد الدين الغاطب (م من ١ - ٥)

مجلة النار : وهيد رضا (٣٢ مجلد)

مجلة عموماً الحق (المغرب) ...